“مع نثر كهذا، من يحتاج إلى حبكة؟”

The Guardian



كسوف

جون بانفيل

@ketab_n

ترجمة سلمان الجربوع

جون بانفيل

كسوف

ترجمة: سلمان الجريوع

في البدء كان شكلًا[1]. أو ليس ذلك حتىّ. ثِقْلاً، ثِقْلاً زائدًا؛ صابورةً[2]. شعرت به ذلك اليومَ الأوّلَ في الحقول. كأنّ شخصًا قد شرع يمشي بصمتٍ إلى جانبي، أو في داخلي، بالأحرى، شخصًا كان آخَرَ، غيري، ولكنّه مألوف. اعتدتُّ على تقمّص الشخصيّات لكنّ هذا، هذا كان مختلفًا. توقّفتُ، مصعوقًا، مصابًا بذلك الزمهرير الجحيميّ الذي خَبَرتُه جيّدًا، ذلك البرد الفردوسيّ. ثُمّ زيادة طفيفة في كثافة الهواء، احتجاب خاطف للضياء كأنّ شيئًا قد هوى من أمام الشمس، صَبيًّا مجنّحًا، ربما، أو ملاكًا ساقطًا. كان الزمان أبريل: طيرٌ وشجيرات، بريق فضيّ لمطر قادم، سماء شاسعة، السُّحُبُ الجليديّة في تقدّم مَهول. انظُرْني هناك، الرجل المسكون، في عامي الخمسين، أُغِيرَ عليَّ بغتةً، في منتصف العالم. كنتُ مرعوبًا، يجدر بي أن أكون. تخيّلتُ أحزانًا كهذه؛ أفراحَ روحٍ كهذه.

التفتُّ ومنحتُ المنزلَ نظري ورأيتُ ما خِلْتُه زوجتي واقفةً عند نافذةِ ما كان ذات يوم غرفةَ أمّي. شخصُها كان ساكنًا، يحدّق بثبات إلى جهتي لا مباشرةً إليّ. ماذا رأت؟ ما كان الذي ظلّتْ تراه؟ شعرتُ هنيهةً بضآلتي، طارئٌ في تلك التحديقة، عُوْمِل، كما كانت الحال، ضربةٌ عابرة أو طُيِّرتْ إليه قبلةٌ ساخرة. النهار منعكسًا على الزجاج جعل الصورة في النافذة تأتلق وتنزلق؛ أهي كانت أم محضَ ظلّ، على صورة امرأة؟ انطلقتُ على الأرض غير المستوية، متتبّعًا خطاي، وهذا الآخر، المُغِيرُ عليّ، يمشي ثابتَ الخطى داخلي، مثل فارسٍ مُدَّرِعٍ بدرعه. كان الذهابُ وَعِرًا. تشبّث العشب بكاحليّ وكانت

---

1 هوامش الكتاب للمترجم.

2 الصابورة (أو ثِقْل الموازنة): حمولة إضافيّة توضع في بطن السفينة لئلّا تميد.

كسوف

تأليف: جون بانفيل
ترجمة: سلمان الجربوع

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-25-825-4



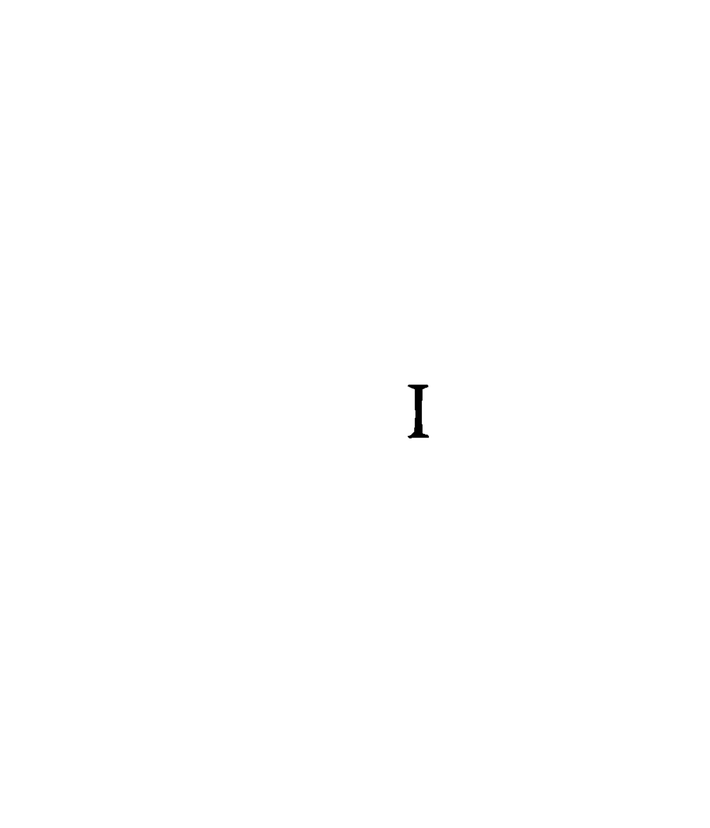
إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2022

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae



في ذكرى

لورنس روش



I

حُفَرٌ في الطين، تحت العشب، حَفَرَتْها أظلافُ قطيع من زمان سحيق حين كان طرف البلدة هذا لم يزل ريفًا مفتوحًا، قد أتعثّر بها، ربما تكسر عظمًا من العظام الرقيقة الكثيرة التي يقال إنّها في القدم. دفقةُ هلعٍ فَارَت فيَّ مثل غثيان. كيف، ساءلت نفسي، كيف لي أن أمكث هنا؟ كيف ظننت أنّ في وسعي المكوثَ هنا، لوحدي؟ حسنًا، فات الأوان الآن؛ سيكون عليّ المضيُّ في ما عزمتُ عليه. هذا ما قلتُه لنفسي، همستُ به جهرًا: لا بدّ لي أن أمضي في ما عزمت عليه، الآن. ثمّ شممتُ نتانة البحر الملحيّة الخفيفة فارتعشت.

سألت ليديا ما كان ذاك الذي قد لبثَتْ تحدّق إليه.

«ماذا؟» قالت. «متى؟»

أشرتُ. «من النافذة، في الأعلى؛ كنتِ تنظرين إليّ».

رمقتني بتلك النظرة المتبلّدة التي كانت قد أتقنَتها مؤخّرًا، مُدْنيةً إليها ذقنَها، كمن يبتلع شيئًا ببطء. قالت أنّها لم تصعد إلى الطابق العلويّ. وقفنا صامتَين لحظةً عندئذ.

«ألستِ بردانة؟» قلت. «أنا بردان».

«أنت دائمًا بردان».

«حلمت البارحة أنّي كنت طفلًا وهنا من جديد».

«طبعًا؛ فأنت لم تبرح هنا قطّ، تلك هي الحقيقة».

حسّ رهيف بخماسيِّ التفاعيلِ[3]، تملكه لِيدياي.

*

---

3 شكل شعريّ يتركّب فيه السطر من خمس تفعيلات، أشهر صوره في الإنجليزيّة أن تحوي كلّ تفعيلة مقطعين؛ غير منبور فمنبور (بحر اليامب). يشير بذلك إلى قول ليديا في المترجَم أعلاه: "Of course; you never left here, that's the truth".

المنزل نفسه كان هو ما أعادني، أوفد إليّ رُسُلَه السريّين كي يستدعوني إلى... الوطن، كنتُ سأقول. على الطريق ذاتَ شفق شتائيّ طلع حيوان في وجه سيّارتي، منكمشًا لكنّ سيماءه جسورة، كاشرًا عن أنيابه وعيناه تومضان في سطوع المصابيح الأماميّة. كانت الغريزة قد أوقفتني قبل أن أُدْرِكَ الشيءَ، وقعدتُ الآن مذعورًا أستنشق أبخرة دخان الإطار السامّة وأصغي إلى دمي يدقّ في أذنيّ. تحرّك الحيوان حركةً تُوهِم بالهرب، ثم عاد ساكنًا من جديد. ما أضرى تلك النظرة، العينين المتكهربتين حمرةً نِيُونيّةً من الخيال! أيَّ شيءٍ كان؟ ابن عِرْس؟ ابن مِقْرَض؟ أكبر من أن يكون أحدهما، لكنّه ليس كبيرًا كبرَ ثعلب أو كلب. مجرّد كائن وحشيّ مجهول. ثمّ بهرولةٍ وطيئة، دون قوائم كما يبدو، بصمتٍ، رحل. لم يهدأ خفقان قلبي بعد. الغابة انكفأَتْ على نفسها من جانبيَّ كليهما، بنيٌّ ضارب إلى السواد على الإشعاعة الخافتة الأخيرة للنهار المحتضر. أميالًا كنتُ قد قطعتُ في نوع من النوم وخِلْتُني الآن ضائعًا. أردتّ أن أدور بسيارتي عائدًا على الطريق التي جئتُ منها، لكنّ أمرًا ما كان يمنعني. أمرًا ما. أطفأت الأنوار الأماميّة وجاهدت كي أترجّل ووقفت مشوّشًا على الطريق، شِبْهُ العتمةِ الرطبُ يطويني فيه، يجعلني بعضَه. من هذا التلّ المنخفض هوت أرضُ الشفق أمامي في الظلّ والسديم. طائر خفيّ في الأغصان فوقي نعق نعقةَ احتراس، رقاقة جليد على كتف الطريق الرطبة انكسرت تحت كعبي انكسارةَ زجاج. وحين تنهّدتُ تَنهُّدةً، وقفَتْ هَبّةُ نَفَسٍ هيولائيّة قبالتي مدّةً وجيزةً كأنّها وجهٌ ثانٍ. مشيت قدّامي إلى حافّة التلّ وإذّاك رأيت البلدة، أنوارَها الوامضةَ القليلة، وَوراءَ ذلك، بصيصَ البحر الأقلّ وميضًا، وعَلِمتُ إلى أين دون وعيٍ منّي أتيت. رجعت وكنت خلف المقود من جديد وقدت السيّارة إلى قمّة التلّ وهناك أطفأت المحرّك والأنوار

وتركتُ السيّارة تهبط المنحدَر الطويل في صمت متخبّط، على نحو حالم، ووقفتُ في الميدان، بين يدي المنزل القائم في ظلمته، مهجورًا، نوافذه كلّها مطفأَة. كلّها، كلّها مطفأة.

*

الآن إذ وقفنا معًا عند نافذة من هذه النوافذ ذاتها حاولت أن أخبر زوجتي عن الحلم. كنت قد سألتها أن تأتيَ معي، كي نلقي نظرة على المكان القديم، قلتُ، منتبهًا إلى النغمة المتملِّقة في صوتي، كي نرى، قلت، إن كانت تعتقد أنّه يمكن أن يُهَيّأ للسكنى من جديد، إن كان يمكن لرجل أن يسكنه، لوحده. كانت قد ضحكَتْ. «أهكذا تحسب أنّك ستبرأ من أيِّما خطبٍ تراه أصابك»، قالت، «بالهرولة عائدًا إلى هنا مثل هذا، مثل طفل انتابه الخوف فهرع يريد ماماه؟» قالت أنّ أمّي ستضحك في قبرها. أشكّ في ذلك. حتّى في الحياة لم تكن قطّ غاوية مَرَحٍ، أمّي. عَقيبَ الضحكة بُكى، كان ذلك أحد أقوالها. عندما وصفتُ حلمي أصغَتْ ليديا ضيقّةَ الصدر، تشاهد سماء أبريل المضطربة فوق الحقول، متقرفصةً في نفسها اتّقاءَ هواء المنزل الفاسد، جناحا أنفها يبيضّان وهي تغالب أن تتثاءب. في الحلم كان صباح عيد فصح، وكنت طفلًا أقف على العتبة ناظرًا إلى الميدان الممطور مؤخّرًا، والمبهور بالشمس. رفرفت الطيورُ، تُصفِّرُ، هبّت نسمةٌ فارتعشتْ في ارتقاب الربيع أشجارُ الكرز التي قد نوّرَتْ. أحسستُ بلطفِ برودةِ الهواءِ الطلقِ على وجهي، وشممتُ من داخل المنزل روائحَ صبيحة يوم العيد: بياضات أكلَ الدّهر عليها وشرب، بخار شاي، جمر نار البارحة المتفحّم، وشيء عابق بأمّي، عطر ما أو صابون، رائحة حطبيّة. كلّ هذا في الحلم، وفي غاية الوضوح. وكانت هدايا الفصح، وإذ وقفت في المدخل كان وهج سعادة ملموس في

أعماق المنزل خلفي: بَيْضٌ قد أفرغته أمّي الحلميّة ثم عبّأته بطريقة ما بالشوكولا- تلك كانت رائحة أخرى، الرائحة الحبيسة للشوكولا المذابة- ودجاجة بلاستيكيّة صفراء.

«وماذا؟» قالت ليديا بنخرة كادت تصير ضحكة. «دجاجة؟»

نعم، قلتُ قولًا حاسمًا، دجاجة بلاستيكية تقوم على ساقين نحيلتين وإذا ضغطت على ظهرها طرحَت بيضة بلاستيكيّة. استطعتُ أن أراها، في الحلم، أن أرى الوَتَلَ المشكّل والمنقارَ المثلّم وأن أسمع نقرةَ الزّنبرك آنَ انفلاتِه داخل الطائر ورجرجةَ البيضة الصفراء أسفلَ القناة ووقوعَها على الطاولة، متمايلةً. خفقة الجناحين، أيضًا، مع قرقعة، أثناء خروج البيضة. كانت البيضة مصنوعة من نصفين أجوفين مصمّغين معًا دون أن يتلاءما تمامًا، استطعت أن أتحسّس بأناملي الحلميّة الحافّتين الحادّتين على كلّ جانب. كانت ليديا تنظر إليّ بابتسامة متهكّمة، هازئة، لا كارهة.

«وكيف تعود إلى الداخل؟» سألَتْ.

«ماذا؟» مؤخّرًا صرت أجد صعوبة في فهم أبسط الأشياء التي يقولها لي الناس، كأنّما كانوا يتحدّثون إليّ بشكل لغويّ لم أعهده؛ أعقل المفردات لكنّي لا أفقه من تركيبها معنى.

«كيف تعيد البيضة إلى داخل الدجاجة»، قالت «حتى تخرج من جديد؟ في هذا الحلم».

«لا أدري. إنّها فقط... تنحشر داخلةً فيها، أظنّ».

الآن فعلًا ضحكَتْ، ضحكَتْ بصخب.

«حسنًا، ماذا سيقول دكتور فرويد».

زفرتُ زفرةَ غضب. «ليس كلّ شيء...» آهةٌ. «ليس كلّ شيء...»

استسلمتُ. ما زالت مع ذلك تُثبّتني بنظرتها المُنتقصة المُحِبّة.

«أوه، أجل»، قالت. «الدجاجة دجاجةٌ لا غير- إلّا أن تكون أنثى في خريف العمر».

الآن كلانا غاضب. لم تستطع أن تفهم لماذا أردتُ العودة إلى هنا. قالت أنّ ذلك كان مَرَضيًّا. قالت قد كان عليّ أن أبيع المكان منذ سنوات، عندما ماتت أمّي. وقفتُ في صمت متجهّم، دون أن أقدّم تبريرًا؛ ليس لديّ ما أُقدّمه. كيف يسعني الأملُ في أن أشرح لها دعوات الرجوع التي كنت قد تلقّيتها في الطريق ذلك المساءَ الشتائيّ، حين لا أملك أن أشرحها لنفسي؟ انتظرَتْ، ما فتئتْ تراقبني، ثمّ هزّتْ كتفيها والتفتَت إلى النافذة. إنّها امرأة مليحة، عريضة المنكبين. خلال شعرها الفاحم الكثيف تنساب رِيشةٌ عريضةٌ من الفضّة من الصّدغ الأيسر، لهبٌ فضيٌّ مذهل. تُؤْثِرُ ارتداء الشالات والأوشحة، الخواتم، الأساور والخلاخيل، وأشياء من أشياء تلمع وترنّ؛ أتخيّلها أميرة صحراء، تخوض وسط بحر رمال. في مثل طولي، على الرغم من أنّه يبدو لي أنّي أستطيع أن أتذكّر زمانًا كنتُ فيه أطولَ منها بمقدار شبر. ربما قد تقلّصتُ، ولن يفاجئني هذا. فالبؤس مُذْوِي أعوادٍ أكيد.

«إنّه شيء يتعلّق بالمستقبل»، قلتُ. «في الحلم». ليتني أستطيع أن أوصل إليها الإحساس الحادّ السريع للوجود هنا، الاستدارة الكاملة المكثّفة للحلم، وكلّ شيء فيه أليفٌ ألفةً نافذة، وأنا أنا ولست أيضًا إيّاي. عابسًا، أومأتُ برأسي، شاحبًا ككلب. «أجل»، قلت، «أنا واقف في المدخل، في الشمس، صبيحة أحد القيامة، وبصورة أو بأخرى إنّه المستقبل».

«أيّ مدخل؟»

«ماذا؟» استهجنتُ سؤالَها، مميلًا كتفًا. «هنا، بالطبع»، قلت، وأنا أومئ

برأسي، متشكّكًا، متيقّنًا. «أجل، الباب الأماميّ هنا».

رفعَت إليّ حاجبيها، مسندةً هيكلَ رأسها الكبير قليلًا إلى الخلف، يداها عالقتان عميقًا في جيبي معطفها الواسع.

«يبدو أقربَ إلى الماضي، في نظري»، قالت، وقد فقدَت اهتمامَها، ما فضل منه.

الماضي، أو المستقبل، نعم، ربما قلتُ- لكن ماضي مَن، أو مستقبله؟

*

كلِيْف هو الاسم، ألكْسَنْدَر كليف، المدعوّ أَلِكس. أجل، ذلك الأَلِكس كليْف. ستتذكّر وجهي، ربما، العينين المشهورتين اللتين في وسع وميض ناريهما أن يخترق صفوف المسرح حتى آخرها. في الخمسين من العمر ولم أزل، إن جاز لي القول، وسيمًا، ولو أنّها وسامةٌ مشوبةٌ بالشحوب والضبابيّة. فَكِّرْ بمثَلِك الأعلى لهاملت تجذْني بين يديك: الشعر الأشقر المسترسل- قد وخطه الشيب الآن نوعًا ما، العينان السماويّتان الشفّافتان، عظم الوجنتين الإسكندينافيّ، وذاك الفكّ البارز، حسّاس، ولكنّه يُلْمِح إلى أعماقِ وحشيّةٍ مهذّبة. لم آتِ على ذكر هذا الأمر إلّا لأنّي أتساءل إلى أيّ مدى قد تشرح ملامحي المسرحيّة التسامحَ والحنانَ واللّطفَ الودودَ الثابتَ وغيرَ المستحقّ في الأغلب، الذي مُنِحْتُه من كثيرٍ- حسنًا، ليس كثيرًا، ولا حتّى أوفى ليبوريلّو[4] قد يقول عنه: كثير- من النساء اللواتي دُرْنَ في فلك حياتي على مرّ السنين. لقد اعتنين بي، واحتملنني؛ وكيفما طائشًا قد يكون سلوكي في بعض الأحيان فإنهنّ دائمًا سبّاقاتٌ إلى إقالة عثرتي. ما الذي يرينه فيّ؟ ما الذي فيّ ليُرى؟ ربما السطح فقط هو منتهى ما يرينه. كم ذا في شبابي

---

4 خادم الدون في أوبرا «دون جيوفاني» الشهيرة لموتسارت.

حُبِسْتُ في إطارِ معبودِ نساء. كان هذا جائرًا. صحيح، أستطيع، كما أقول، أن أكون البطل ذا الشعر الكتّاني متى استدعت المناسبة، لكنّي أدّيتُ أفضل أدواري إذ لعبت الأدوار الباطنيّة الكئيبة، الشخصيّات التي لا تبدو جزءًا من الطاقم بل منضمّةً إليه من الشارع كي تُعِيْر معقوليّةً إلى الحبكة. الخطر كان لعبتي، كنت بارعًا في التهديد. إذا احتيج إلى من يدسُّ سمًّا، أو إلى ذي حُلَّةٍ مُقصَّبةٍ يأخذ ثأرًا، كنتُ ضالّتَك. حتى في أكثر الأدوار مرحًا، الأبله في قبّعة قشّ أو الظريف السكّير، قدّمتُ عرضًا قَلِقًا مُهدِّدًا أَخْرَسَ حتّى العجائزَ العزيزاتِ معتمراتِ القبّعاتِ في الصفّ الأوّل وجعلهنّ أشدَّ تشبُّثًا بحقائبهنّ الملأى بحلوى التوفي. استطعت، أيضًا، تقديم شخصيّات ضخمة البنية؛ متى لَمَحَني الناس عند باب المسرح كانوا دائمًا يدهشون إذ يجدونني، في ما يسمّونه الحياة الواقعيّة، لا الأشعثَ ثقيلَ الوزن متثاقلَ المشية الذي توقّعوه، بل شخصًا نحيفًا رشيقًا يمشي المشيةَ المحترسة التي لراقص. لقد أتقنت الدور، كما ترى، كنت قد درست ضخام الناس وفهمت أنّ ما يميّزهم ليس العضلات أو القوّة أو العنف، بل هشاشة في الجوهر. قصار القامة كلّهم عزمٌ ورباطة جأش، أمّا ذوو الأبدان الكبيرة، إن بدوا أصلًا لائقين، فيمنحون شعورًا جاذبًا بالارتباك، بالتشتّت، بالعذاب حتّى. إنّهم جرحى أكثر من كونهم جارحين. لا أحد يتحرّك ألطفَ ممّا يتحرّك العملاق، لكنّه هو من يهوي من ساق الفول محطَّمًا[5] أو يغفو فتُسْمَلَ عينه بعصا مسنونة مشتعلة[6]. كلّ هذا تعلّمته، وتعلّمت كيف أؤدّيه. كان من أسرار نجاحي، على خشبة المسرح وخارجها، أنّي أستطيع أن أظهر بحجمٍ يفوق حجمي. وسكون، نوعيّة سكون مطلق حتى في قلب الفوضى، تلك كانت حيلة أخرى. هذا ما

---

5 العملاق في حكاية «جاك وساق الفول».

6 بوليفيموس من شخصيّات الأوديسة.

كان النقّاد يلتمسون التعبير عنه حين تحدّثوا عن تجسيدي الخارق لشخصيّة إياغو[7] أو العاصف لريتشارد الأحدب[8]. الحيوان المتحيِّن فرصةً لينقضّ هو دائمًا أكثر فتنةً من ذاك الذي يَثِب.

لا يفوتني أن ألحظ استخدام الفعل الماضي طوال الوارد أعلاه.

آه، الخشبة، الخشبة؛ سوف أفتقدها، أدري. تلك الأمثال السائرة عن المودّة بين أهل المسرح، عليّ أن أقول، كلّها صحيحة. أطفال الليل، يعين بعضنا بعضًا على الظلمة المتطاولة، متظاهرين بأنّنا كِبَار. لا أجد زملائي على وجه التحديد محبوبين، يجب فقط أن أكون جزءًا من طاقم. نحن الممثّلين نهوى التشكّي من الأوقات العجاف، من قيود شركة الإنتاج التابعة للمقاطعة، من المسارح المؤقتة المتداعية، من الجولات الساحليّة التي ألغيت بسبب الأمطار، لكنّ هذه الرثاثةَ المحضةَ لذلك العالم المبهرج كانت هي ما أضمرتُ حبَّه. حين أعيد النظر إلى سيرتي المهنية، التي يبدو أنّها انتهت الآن، فإنّ أكثر ما أستعيده بحبّ هو الألفة الحميمة المحشورة لقاعة قذرة في منطقة نائية وقد أغلقت بإحكام في وجه الظلام الطُّفاليّ ليلةَ خريفٍ ولها رائحةُ دخانِ سيجارة ومعاطفَ رطبة؛ بينما نتبختر- نحن الممثلين- في صندوقنا المنير ونلقي قصائد ونخطب خطبًا، ضاحكين وباكين، تتعلّق تلك الكتلة الغامضة بأعينها العديدة في الظلمة المكسوّة بالفرو أمامنا، خارج الصندوق، على كلّ كلمة نجأر بها، وتشهق عند كل لفتة نغالي فيها. في هذا الجزء من البلاد، عندما كنّا صغارًا، اعتدنا أن نقول عن المتباهين في ملعب المدرسة بأنّهم كانوا يتظهرون فقط؛ شيء بات طبعًا لم أخرج عنه قطّ؛ من التمظهر كسبت قوت عيشي؛ في الحقيقة، صنعت حياةً. ليست الواقعَ،

---

7 مسرحيّة «عطيل»، شيكسبير.

8 مسرحيّة «ريتشارد الثالث»، شيكسبير.

أدري، لكنّها عندي كانت أفضلَ خيار بعده- أحيانًا، الخيار الوحيد، أكثر واقعيّةً من الواقعيّ. حين هجرت العالم المأهول لم يكن سوى نفسي لتنقذني من أن أفضي إلى الحزن. ولقد كان الحزن ما أفضيتُ إليه.

لم أجد بدًّا من التمثيل. من أيّام الصّبا والحياة في حالتي حالٌ دائمة من الوجود مشاهَدًا. حتّى وأنا وحيد كنت آخذ نفسي بالحيطة، محتفظًا بوجهٍ، مؤدّيًا عرضًا. هذه غطرسة الممثّل، أن يتخيّل العالم مُتَمَلَّكًا من عين نهمة واحدة مثبَّتة حصرًا ودائمًا عليه. وهو، بالطبع، يمثّل، يظنّ نفسه الشخص الحقيقيّ الوحيد، الظلّ الأهمّ في عالم من أفياء. أحمل ذكرى بعينها- ولو أنّ ذكرى ليست الكلمة الدقيقة، ما أفكّر فيه أنصعُ من أن يكون ذكرى حقيقيّة- عن وقوفي في الدرب الهابط جوار المنزل ضحى ربيع عندما كنت صبيًّا. النهار رطب وطازج مثل عود مقشّر. ضياءٌ عريضٌ وواضحٌ وضوحًا خرافيًّا يتمدّد على كلّ شيء، حتى في أعالي الأشجار الباسقة أستطيع أن أميّز كلّ ورقةٍ على حدة. بيت عنكبوت يتلألأ مثقلًا بالندى في أجمة. عجوز أسفلَ الدرب تدرج وهي تعرج، منحنيةً انحناءةً هي إلى الركوع أقرب، مشيتها تَرَجُّحٌ بطيء مؤلم متكرّر حول محور وَرِكٍ معطوبة. أشاهدها تدنو. مسالمة، المسكينة بِغْ، رأيتُها غيرَ مرّة في نواحي البلدة. عند كلّ خطوة مترنّحة تطلق عليّ شزراً نظرةً تخمينيّةً حادّة. تلتفع بشال وتعتمر قبّعةَ قشّ وتنتعل زوجي حذاء طويل العنق من المطّاط مقطوعين بشكل مُثَلَّم عند الكاحلين. تحمل سلّة على ذراعها. تتوقّف إذ توازيني وترنو إليّ متلهّفةً بنظرة شزراء مائلة، لسانها طالع، وتغمغم بشيء لا أستطيع أن أستبينه. تريني السلّة، بالفطر الذي قطفتَه في الحقول، ربما أنّها تعرض عليّ شراءه. عيناها زرقاوان زرقةً باهتةً تكاد تَشِفّ، مثل عينيَّ الآن. تنتظر أن أتحدّث، وهي تلهث بعضَ

لُهاث، وإذ لا أقول شيئًا، ولا أُقدّم شيئًا، تتنهّد وتهزّ رأسَها العتيقَ وتعرج بألم من جديد، ملتزِمَةً كتفَ الدرب المعشبة. ماذا كان في اللحظة وأثّر فيّ إلى هذا الحدّ؟ أكان الهواء الهفّاف، ذاك الضياء الواسع، الإحساس بمباهج الربيع أنّي أروح؟ أكان العجوز الشحّاذة، وجودها المنيع هناك؟ شيء دبّ فيّ، جذلٌ عابث. أصوات لا تعدّ ولا تحصى تصارعت في داخلي على التعبير. تراءيتُ لنفسي حشودًا. سأعبّر عنها، ستكون تلك مهمّتي، أن أكونها، أن أكون من لا صوت له! وهكذا وُلد الممثل. وبعد أربعة عقود مات في منتصف الفصل الأخير ونزل مترنّحًا من الخشبة راشحًا بالخزي لحظةَ ما كان الحدث يوشك أن يبلغ ذروته.

*

المنزل. طويل وضيق، ويقوم على زاوية الميدان الصغير قبالةَ الحائط الأبيض العالي لدير راهبات الرحمة[9]. في الحقيقة، ميداننا ليس مربّعًا على الإطلاق[10]، لكنّه يتّخذ شكل قمع ويلتقي عند الطرف البعيد بطريق تصعد تلًّا يقود إلى الريف. أؤرّخ لهذا الافتتان بالتفكير التأمّلي، غير شائع في مهنتي- المسرحيّ المفكّر، ذاك لقب آخر اعتاد النقاد مناداتي به، مع ابتسامة صفراء مكشوفة، من لحظةٍ في الطفولة حين خطر لي أن أتساءل كيف لمساحة مثلّثة الشكل أن يُنتَهَى إلى تسميتها ***square*** (مربّع/ميدان). كان في المنزل المجاور امرأة مجنونة في العليّة. صدقًا، هذه حقيقة[11]. كم

---

9 Sisters of Mercy مؤسسة دينية للراهبات الكاثوليكيّات تأسست العامَ 1831 في مدينة دبلن، وتتبع لها أديار وجمعيّات خيرية ومراكز في أنحاء العالم.

10 في الأصل: "our square is not a square at all" جناس لفظي بين مفردتي square الأولى بمعنى ميدان أو ساحة و square الأخرى بمعنى مربّع الشكل.

11 إلماحًا إلى الشخصية الخيالية في رواية «جين أير» التي حبسها زوجها في العليّة بسبب جنونها.

صباحٍ كنت أنطلق إلى المدرسة فتطلّ برأسِها الغوليووغي[12] المضحك من نافذة السقف المكسور[13]، وتناديني، صائحة بكلام غير مفهوم. شعرها كان أسود فاحمًا ووجهها أبيضَ يققا. كانت في العشرين، أو الثلاثين، سنّ كتلك السنّ، وتلعب بالدّمى. لا أحد كان يدري سبب علّتها على وجه اليقين، أو لا أحد يقول؛ دار كلامٌ عن سفاح الأقارب. أبوها كان جِلْفًا، أحمر الوجه برأس مستدير مستوٍ بلا عنق على كتفيه مثل كرة حجريّة. رأيته في طِماق لكن ذلك قطعًا كساءٌ فاخرٌ فحسب. علمًا بأنّ الأحذية الجلديّة والبناطيل القنّبيّة كانت ملابسَ زمانِها، ولمّا كانت تلك الأيّام بعيدة منّي الآن باتت أزياؤها في نظري نوعًا من المقتنيات الأثريّة.

أرأيت كيف أتحاشى المنزل وأتفاداه، مثل ملاكم يتجنّب خصمَه المتفوّق؟ أبدأ في الحديث عن البيت الموروث وخلال جملة أو اثنتين أجدني انتقلت إلى بيت الجيران. ذلك يلخّصني تمامًا. حادثة الحيوان على الطريق في الشفق الشتائيّ كانت محدِّدةً، مع أنّي لم أدرِ ماهيّة الشيء الذي كان يُحَدَّد. رأيتُ أين كنتُ، وخطر المنزل على بالي، وعرفت أنّي يجب أن أعيش هناك من جديد، ولو إلى حين. وكذا أتى اليوم الأبريليّ حين اصطحبت ليديا بالسيارة أسفل هاتيك الطرق المألوفة ووجدت المفاتيح، تَركَتَها تحت حجرٍ عند العتبة يدٌ مجهولة. مثل هذا الغياب الظاهر للوسيط البشريّ كان لائقًا كذلك، كان كما لو...

«كما لو ماذا؟» قالت زوجتي.

---

12 نسبة إلى golliwog (غوليووغ): دمية أطفال شهيرة تحاكي شخصية خيالية سوداء البشرة شعثاء الشعر.

13 السقف المكسور أو السندي في العمارة هو سطح أو سقف مائل لكل جانب فيه منحدران أسفلهما أشدّ انحدارًا من الأعلى.

التفتّ عنها بهزّةٍ من كتفيّ.

«لا أدري».

*

حالما أنهيت ترتيباتي- عقدٌ فُسِخ بفظاظة، جولة صيفية أُلْغِيت- لم يستغرق وقتًا يُذكَرُ، ظهيرةُ يوم أحد فحسب، أن أنقل أغراضي إلى هنا، الضروريّات القليلة لِمَا أُصِرُّ على الاعتقاد بأنّه لن يكون أكثر من استراحة وجيزة من الحياة، فاصل قصير بين فصلين في مسرحيّة. حمّلت حقائبي وكتبي في صندوق السيارة ومقعدها الخلفيّ، لا أنبس بكلمة، على حين اكتفت ليديا بالتفرُّج شابكة ذراعيها، مبتسمة في غضب. جررتُ قدميّ من المنزل إلى السيارة إلى المنزل مرّةً أخرى دون توقّف، خشيةَ لو توقّفت وهلةً لما بدأتُ من جديد، لَذُبْتُ إلى بركةٍ من التردّد على الرصيف. حلّ الصيف الآن، يوم من تلك الأيّام الغامضة المبهمة أوّلَ يونيو التي تبدو منسولةً من نصف طقس ونصف ذكرى. نسيم ناعم أرعش شجيرة الليلك جنبَ الباب الأماميّ. شجرتا حور في الجهة الأخرى من الطريق كانتا تتناقشان بانفعال في أمر مريع، لأوراقهما رنين. كانت ليديا قد اتّهمتني بأنّي عاطفيٌّ. «كلّ هذا ضرب من الحنين السخيف فقط»، قالت، وضحكتْ متمايلةً. أوقفتني في الرواق، غرست نفسَها وحاجزَ ذراعيها المتشابكتين قبالتي ولم تسمح لي بالمرور. وقفتُ ألتقط أنفاسي، مثقلًا بالأمتعة، أحدّق بكآبة إلى الأرض عند قدميها، صامتًا. تصوَّرْتُني أجذبها وأضربها. هذا هو نوع الأشياء التي تَرِدُ ذهني هذه الأيّام. غريب، إذ لم أبسط قطّ يدي لعراك: الكلمة كانت دائمًا سلاحًا كافيًا. صحيح أنّه يومَ كنّا أصغر سنًّا وعلاقتنا أشدَّ عصفًا كنّا أنا وليديا نلجأ أحيانًا إلى الاشتباك بالأيدي كي نسوِّي خلافًا، لكن ذلك

كان بسبب أشياء أخرى أكثر ممّا كان بسبب الغضب- يا لَإغواء منظر امرأة تلوّح بقبضتها كي تسدّد لكمة! - لأجل كلّ ذلك قد ينتهي العراك بأحدنا وقد طنّت له أذن أو انكسرت سنّ. هذه الأفكار الجديدة المتّسمة بالعنف مقلقة. أليس من الصواب أنّي كان يجب أن أبعد نفسي عن مظانّ الأذى؟ أذى الآخرين، أعني؛ إيذاء الآخرين.

«اصدقني القول»، قالت ليديا. «هل ستتركنا؟»

...نا.

«اسمعي، حبيبتي-»

«لا تتملّقني بـ-حبيبتي»، صرختْ. «إيّاك وأن تجرؤ على محادثتي بتلك الطريقة». كنتُ، أدركتُ أنّي، أشعر بالملل. الملل شقيق البؤس، ذلك شيء كنت أكتشفه. أشحت بنظري عنها، إلى الهواء القلق الناعم. كانت حتى في ذلك الحين لحظاتٌ إذ بدا الضياء نفسه محتشدًا بالشخوص. انتَظَرَتْ؛ مع ذلك لم أتحدّث. «أوه، اذهب، إذن»، قالت، وانصرفتْ في اشمئزاز.

لكن عندما صرت في السيارة وعلى وشك المسير خرجتْ من المنزل بمعطفها ومفاتيحها وركبتْ دون كلمة إلى جانبي. لم نلبث أن انطلقنا عبر جمال الريف الرثّ واللامبالي. مررنا بسيرك، ذاهب في نفس اتجاهنا، من قوافل السيرك القديمة تلك، ما عاد مثلها يُرى إلا نادرًا، بعربات خيل صارخة الألوان، يقودها غجر بأقراط وأوشحة عنق. سيرك، والآن، كان هذا بلا ريبٍ فألًا حسنًا، فكّرت، وبدأت أشعر ببعض البهجة. الأشجار كانت نفثاتِ خضراء، والسماء زرقاء. تذكّرت صفحة من مَلْزَمة ابنتي كنت قد احتفظت بها منذ كانت طفلة، مخبّأة في مؤخّرة درج في مكتبي، مع حزمة من أوراق مصفرّة لبرامج عروض أولى، ورسالة حب سريّة أو اثنتين. البرعم

في الزّهرة، كانت قد كتبَت، بالخطّ المدهوش الكبير لبنتٍ في الخامسة. الطين بيّ. أشعر بأنّ صحّتي جيّدة. قد تسوء الأحوال. تشنّجُ كآبةٍ مائلةٍ إلى الحلاوة جعل عقلي يبتئس؛ فكّرتُ في أنّ ليديا ربما كانت على حقّ، ربما أنا عاطفيّ. تدبّرت الكلمات. العاطفيّة: شعور غير مكتسب. الحنين: توقٌ إلى ما لم يكن. علّقت بصوت مسموع على سلاسة الطريق. «عندما كنتُ شابًّا أخذَتْ هذه الرحلة قرابةَ ثلاث ساعات». أدارت ليديا عينيها، وزفرَتْ. أجل، الماضي، من جديد. كنت أفكّر في حلم صبيحة عيد الفصح. ما زلت أحسّ بأنّي قد أُغِيرَ عليّ، مثل ذاك اليوم في الحقول: منتهَك، محتلّ، مُتْرَع بأيٍّ كان ذاك الذي قد دخلني. لم يبرح مكانَه هنا؛ أحسّ بأنّي حامل؛ وإنّه لإحساسٌ جدُّ غريب. قبلُ، كان الذي احتويته هو القسيم الأروميّ[14] لنفسي، النواة الساخنة الملتفّة لكلّ ما كنته وما قد أكونه. الآن، دُفِعَتْ تلك الذات الجوهريّة جانبًا باستهتار همجيّ، وأنا مثل منزل يَصْعَدُ فيّ وينزلُ غريبٌ لا يُنازَع في ملكه. أنا ارتحال إلى الداخل، أنظر في حيرة متزايدة أبدًا إلى عالم لا شيء فيه معقولٌ تمامًا، لا شيء هو نفسه تمامًا. والشيء نفسه، غَرِيْبِي الصغير، ماذا عنه؟ ألّا تملكَ ماضيًا، ولا مستقبلًا منظورًا، ولا شيء سوى النبض المستقرّ لحاضرٍ لا يتغيّر- كيف يكون ذلك الشعور؟ أنّ لك كائنًا. أتخيّله هناك، يملؤني حتى الجلد، يتوقّع كلَّ حركة مني ويباريها، يحاكي بعناية أصغرَ تفاصيل ما أكونه وما أفعله. لمَ لا أتلوّى قَرَفًا، إذ أحسّ بأنّي مسكون بصورة فظيعة؟ لم لا يعتريني النفور، بدل هذا الشعور الكئيب الحلو بالشوق والوعد الضائع؟

*

---

14 في علم الأحياء: إحدى الخلايا المبكرة الناشئة من انقسام البويضة الملقّحة وتمثل جزءا أساسيًّا من تكوين الجنين.

المنزل أيضًا قد أُغِيرَ عليه، شخص كان قد دخله وعاش فيه، شريدٌ أو طريد. كانت كِسَرُ خبزٍ على طاولة المطبخ وأكياسُ شاي مستخدمة في المجلى، أشياء بنيّة مهروسة قَذِرة. كانت نارٌ قد أُشْعِلتْ في الصالون، في الموقد بقايا كتب محترقة قد سحبها الدّخيل من الأرفف واستخدمها وقودًا. كانت بعض العناوين وأجزاء منها لم تزل مقروءة. انحنيت وحاولت استخلاصَها، بقصد أن أستقرأ منها نبوءةً كما يفعل العرّاف: *The Revenant* (العائد)، *My Mother's House* (منزل أمّي)- مناسبٌ، هذا العنوان- شيء يُدعَى *Heart's Needle* (إبرة قلب)، وأشدّها تفحّمًا *The Necessary*... (... الضروري) مع كلمة أخرى محجوبة بأثر حَرْق خمّنتُ أنّها ربما كانت *Angel*[15] (الملاك). ليس مَوقِدَ كتب عاديًّا، كما يبدو. قعدت على كعبّي وتنهّدتُّ، ثم نهضتُ وتلمّستُ طريقي من غرفة إلى أخرى، عابسًا للقذارة، للأثاث الشاحب، للستائر التي بيّضتها الشمس، أنّى لي المُقام هنا؟ نادتني ليديا. ذهبتُ ووجدتها واقفةً في الحمّام المشبع برائحة الجير تحت الدرج، معصمٌ على وركها، في وِضْعَةِ داودِ دوناتيلّو[16]، مشيرةً بتقزّز إلى المرحاض حيث حُشِر غائطٌ هائل. «أليس الناس لطفاء»، قالت.

نظّفنا بأفضل ما نستطيع، جمعنا القمامة، فتحنا النوافذ، أفرغنا سطولًا من الماء في المرحاض. لم أكن قد أقدمت بعد على مغامرة الأدوار العلويّة.

«وصلني جوابٌ من كاسْ»، قالت ليديا دون أن تنظر إليّ، وهي تلوي عنق كيس بلاستيكيّ ممتلئ.

«شعرت بالانقباض المعتاد في صدري. كاس هي ابنتي. كانت تعيش في الخارج.

---

15 الكلمتان معًا تشكّلان العنوان التالي: الملاك الضروريّ.

16 أحد تمثالين نحتهما النحّات الإيطاليّ دوناتيلو (1368 – 1466) يصّور فيهما النبيّ داود.

«أوه، نعم؟» قلت، بحذر.

«تقول أنّها عائدةٌ إلى الديار».

«تجمُّعُ الهاربيز[17] (الخطّافات)، هاه؟» قصدتُ أن أكون ظريفًا، لكنّ جبين ليديا احمرّ. «من *Harpazein*»، قلتُ على عجل، «وتعني: يخطف، باليونانيّة». لاعبًا دور البروفيسور النيّق المسنّ، جافٍ ولكن على شيء من العطف؛ إذا ما كنتَ في ورطةٍ، مَثَّلْ.

«طبعًا، سوف تنحاز إلى جانبك»، قالت.

تبعتُها إلى الصالون. قِطَعُ أثاثٍ داكنة كبيرة وقفَت مكفهرّةً وِقفةَ تأهّبٍ في عتمة الغرفة الكالحة كأنّها أشياء حيّة. مشت ليديا إلى النافذة، مشعلةً سيجارة. يحمل قدميها الطويلتين الواهنتين الناعمتين خُفّان من مخمل قرمزيّ يَشيان بجزيرة العرب. إنّي لأعجب من التفكير في زمانٍ لو كان الزمانَ لسجدتُ على وجهي قبالتَها في الرمل وغطّيتُ تَيْنِك القدمين العربيّتين بالقبل، واللمسات، والدموع العاجزة العابدة.

«لم أدرِ بأنّ هناك جانبين»، قلتُ، بمنتهى البراءة.

ضحكتْ ضحكةً تامّةً باردة.

«أوه، لا»، قالت، «أنت لا تدري شيئًا». التفتَتْ، رأسها معصوب بدوّامة من دخان سيجارة أزرق رماديّ. خضرةُ الحديقةِ المهدِّدةُ تحتشد في النافذة خلفها، ووسط الخضرة بقعة من لازورد السماء الصيفيّ الرقيق. في هذا الضياء كانت خصلة الفضّة في شعرها صارخةً ومتموّجةً ولامعة. مرّةً في واحد من شجاراتنا نادتني بابن حرامٍ أسودِ قلب وشعرت بنشوة دافئة صغيرة، كما في مغازلة جميلة- أنا ذلك النوع من أبناء الحرام سود القلوب. حدّقَتْ إليّ الآن

---

17 Harpies واحدتها هاربي: هنّ في الميثولوجيا اليونانية مخلوقات مجنّحة خبيثة نصفٌ امرأة ونصفٌ طائر.

صامتةً هنيهة، هازّةً رأسها ببطء. «لا»، قالت من جديد، بزفرةٍ مُرهَقةٍ مُرّة، «أنت لا تدري شيئًا».

ثم أتت اللحظة التي كنتُ، كلا الشعورين معًا، أمقتها وأتوق إليها، حين لم يبق لديها شيءٌ لتفعله إلّا أن ترحل. تسكّعنا على الرصيف خارج باب المنزل في ضياء العصر الحليبيّ. معًا لكنّنا الآن مفترقان. كان النهار خاليًا من حسِّ إنسان، كأنّ كلّ شخص آخر في العالم قد رحل (أنّى لي المقام هنا؟). جاءت سيارة تئزّ عبر الميدان ومرّت بنا، حملق السائق إلينا لحظةً، بدهشة مُغضَبة، هكذا بدت. عاد الصمت. رفعتُ يدًا ولمستُ الهواء قرب كتف ليديا.

«حسنًا، إذن»، قالت، «سأرحل».

عيناها التمعتا وغطسَتْ في السيّارة وصفقَت الباب. انزلقت الإطارات آنَ انطلقتْ مبتعدةً. آخرُ ما رأيته منها كان انحناءتها على المقود وبرجمةٌ ناشبةٌ في عين. انصرفتُ إلى المنزل. كاس، رُحتُ أفكّر. كاس، الآن.

*

المهامَّ المهامّ. تخزين مؤونة المطبخ، وضع كتبي على الأرفف، وصوري المبروزة، وكفّ أرنبي[18] الميمون. خلال وقت قصير كانت كّلها منتهية. لا مجال لتفادي الأدوار العلويّة بعد الآن. مقطّبًا صعدت الدّرج كأنّما كنت أتسلّق الماضي نفسه، السنوات تضغط عليّ، مثل جوٍّ أثقلَ. هنا الغرفة المطلّة على الميدان التي كانت غرفتي. غرفة ألِكس. غبار، وعفونة، وذُرَاقٌ على عتبة النافذة من الداخل حيث وجدَت الطيورُ لها منفذًا عبر زجاج نافذة مكسور.

---

18 كفّ الأرنب من الأشياء التي يعتقد بأنّها تجلب الحظّ عند عدد من الشعوب القديمة. وتصنع منه تعاويذ وتمائم وتماثيل.

غريب، كيف لأماكنَ، كانت حميمةً ذات يوم، أن تُمْسِيَ محايدةً تحت قَتام الزمان. أوّلًا ينفجر الإدراك انفجارًا ناعمًا، ولوهلة يرتجُّ الشيء في الوعي المفاجئ بكونه فريدًا- ذلك الكرسيّ، تلك الصورة المريعة- ثم يستجمع كُلٌّ نفْسَه في المألوف الموحش، أجزاء عالم. كلّ شيء في الغرفة بدا منصرفا عنّي في مقاومة عابسة، محوِّلًا بصرَه عن عودتي غير المرحّب بها. تلكّأتُ لحظة، لا أشعر بشيء سوى بالفراغ الثقيل كما لو كنت أحبس نَفَسي- ربما قد كنت- ثمّ استدرت وهبطت طابقًا، إلى الدور الأول، ودلفتُ إلى غرفة النوم الخلفيّة الكبيرة. لمَّا يرحلِ الضّياء. وقفتُ عند النافذة الطويلة، حيث كنت قد شهدتُ ذلك اليومَ مَنْ ليست بزوجتي ليست واقفةً، ورأيتُ ما لم تكن قد رأت: الحديقةَ شاردةً في الحقول الرتيبة، ثُمّ مجموعةَ أشجار، ووراء ذلك، حيث مال العالمُ، مرجَ رابيةٍ وماشيةً متناهيةَ الصغر ساكنةً بلا حراك، وفي المدى القصيِّ هامشَ جبال، وزرقةً طافئةً ومفلطحةً على السماء حيث سبّبت الشّمس اضطرابًا حانقًا خلف أكداس الغيوم. وحين فرغتُ من المنظر الخارجيّ، انكببت على الداخل: سقف مرتفع، السرير المرتخي ذو المقابض النحاسيّة، طاولة سرير بثقوب دوديّة، كرسيّ خشب ممتعض المظهر، منزوٍ. كان في المشمّع المزخرف بالأزهار- ثلاث درجات من لون الدم المجفّف- رقعةٌ مهترئة جِوارَ السرير، حيث اعتادت أمّي أن تسير، بعزيمة لا تكلّ، ليلةً طويلةً بعد ليلة، محاولةً أن تموت. لم أشعر بشيء. هل كنت هنا أصلًا؟ بدا أنّي أتلاشى في وجه هذه الإشارات، التجويف في مرتبة السرير، البِلى في المشمّع؛ لو أنّ عينًا خارج النافذة تراقبني فلن تكادَ الآن تراني، ظلٌّ فقط.

هنا أيضًا آثار دخيل؛ شخص قد بات ينام في سرير أمّي؛ اتّقد غضبٌ

هنيهةً، ثمّ انطفأ؛ إذ لِمَ لا ينبغي لذات شعر ذهبيّ[19] أن تُرِيح رأسَها المتعبَ حيث لن تُرِيح أمّي المسكينة من جديد رأسَها أبدًا؟

عندما كنتُ صغيرًا أحببت أن أجوس خلال المنزل جَوَسَاني هذا. أوقات الأصيل كانت المفضّلة، شيءٌ مميز في الآصال داخلَ البيوت، أسى، إحساس بمدى حالم، بالأثير اللامحدود يعمّ كلّ شيء، كان ذلك مقلقًا ومطمئنًا في آن. كانت نُذُر مخفيّة في كل مكان. يسترعي انتباهي شيء، أيّ شيء، بيت عنكبوت، بقعة رطبة على حائط، قصاصة جريدة قديمة تبطّن درجًا، غلاف ورقيّ منزوع، فأتوقّف وأرنو إليه وقتا طويلا، ساكنًا، تائهًا، ذاهلًا. استضافت أمّي عندنا نزلاء[20]، موظفين وأمناء مكاتب ومعلمين وباعة متجوّلين. فُتِنْتُ بهم، بحيواتهم المؤجّرة، المعذَّبة بصورة ما والمستلَبَة. ساكنو مكانٍ لا يمكن أن يكون البيت، كانوا مثل ممثّلين مُجْبَرين على أن يمثّلوا ذواتهم. كنتُ إذا رحل أحدهم أنسلّ إلى غرفته الشاغرة وأتنفّس هواءها الملاطف الوديع، أقلّب في الأشياء، وأنكش الزوايا، باحثا خلال الأدراج والخزائن المكتومة الغامضة، مثابرًا مثل مخبر يتصيّد أدلّة. ويا لآثار الجُرْم التي عثرت عليها- طقم أسنان بكَشْرة شنيعة، زوجا سراويل داخليّة معجونان بالدم، آلة محيِّرة تشبه منافيخ مزمار القربة مصنوعة من مطّاط أحمر، ومدجّجة بالأنابيب والخراطيم، وأعجب من كلّ هذا برطمانٌ مغلقٌ بإحكام، قد دُفِع إلى مؤخّرة أعلى رفّ في الدولاب، يحوي سائلًا مصفرًّا كان ضفدعٌ محفوظٌ عالقًا فيه، فمه المشقوق مفتوح بسوداويّة، أصابع قدميه

---

19 إلماحة إلى حكاية الدببة الثلاثة وذات الشعر الذهبي التي تسلّلت إلى منزلهم في الغابة وأكلت طعامهم وقعدت على مقاعدهم ونامت على أسرتهم قبل أن يكتشف أمرها فتهرب بعيدًا حتى كادت تضيع.

20 المقصود بالنزيل هنا من يستأجر غرفة في منزل، ويشارك أهل البيت مرافقَه الأساسيّة.

الشفّافة مفلطحة وتلامس برقّةٍ جدرانَ ضريحه الزجاجيّةَ الغائمة...

Anaglypta (أناغْليبتا)! كان اسمَ ذلك النوع العتيق من ورق الجدران، جاسئٌ بطبقات من الدّهان الأبيض المصفرّ، وقد غُطِّي به الجزء الأدنى من كل جدار في المنزل. أتساءل هل ما زال بعدُ يُصْنَع. أناغْليبتا. كنتُ قد أنفقتُ الظهيرة كلَّها بحثًا عن هذه الكلمة والآن وجدتّها. لماذا *glyp* (غليب) وليس *glyph*[21] (غليف)؟ هذه، قلتُ لنفسي، هذه هي الطريقة التي سيُحْكَم عليّ بأن أمضي بها أيّامي، أقلّب الكلمات، والجمل الضالّة، وشظايا الذاكرة، كي أرى ما قد يكمن تحتها، كما لو كانت حجارة مسطّحة كثيرة جدًّا، وأنا ظِلْتُ يومًا فيومًا أتلاشى.

تمام الثامنة. ستارة المسرح سترفع الآن وأنا لست هناك. غياب آخر. سيفتقدونني. عندما ينسحب ممثّل من عرض فما من ممثّل احتياطي يستطيع أن يحلَّ محلّه بالكامل. إنّه يخلّف وراءه ظلَّ شيءٍ ما، بُعْدًا من الشخصيّة لا يقدر غيره على استحضاره. إبداع منفرد، بمعزل عن الجمل المجرّدة. بقيّة الطاقم يشعر به، والجمهور يشعر به كذلك. البديل دائما بديل: وفي حالته يوجد دائمًا آخَرُ، حضورٌ سابقٌ، يمثّل مكانَه. مَنْ ذا يكون، إذن، إن لم يكن إيّايَ، أمفِتريون[22]؟

---

21 إشارة إلى كلمة Anaglyph التي تعني: نقش ضئيل البروز. كأنّه كان أنسبَ لو سمّي ورق الجدران (أناغليفتا) بدلا من (أناغليبتا).

22 جملة من مسرحيّة «أمفِتريون» للكاتب المسرحي الرومانيّ بلوتس (254 ق.م. – 184 ق.م.). وقد اقتُبِسَت المسرحيّة في نسخ عديدة، من أبرزها نسخة الشاعر والمسرحي الألماني كلايست (1777 – 1811) بالاسم نفسه «أمفتريون»، التي اعتمد عليها جون بانفيل في نصّه المسرحيّ God's Gift (هديّة الإله) المنشور في العام نفسه الذي صدرت فيه روايته هذه «كسوف» (2000). وأمفتريون هو قائد عسكريٌّ من أعيان ثيفا في الميثولوجيا اليونانية والرومانيّة، ابن ألكايوس وزوج ألكميني. قتل عمَّه إليكتريون، ملك مسينا، خطأً، فنُفِي، ثمّ هرب هو وألكميني إلى حِمَى ملك ثيفا الذي طهّره من خطيئة القتل. أما المسرحية فكوميديا أخطاء تدور حول تمثّل كبير الآلهة جوبيتر لألكميني في صورة أمفتريون وإغوائه لها وما جرّه ذلك من أحداث.

سمعتُ ضجيجًا في الأسفل فَسَرَتْ فيّ صدمة رعب، جعلَتْ لوحي كتفيّ يرتجفان ورأسي للحظة يزداد حرارة. كنت دائمًا وما زلت جبان الفؤاد، رغم كلّ السواد الذي يغشى فؤادي. خرجتُ ولأسناني صريف إلى بسطة الدّرج ووقفت وسط الظلال الواقفة وأرخيت سمعي، متشبّثًا بسياج الدرابزين، متفطّنًا إلى الملمس اللزج للورنيش القديم وصلابة الخشب المسترخية بغرابة. عاد الصوت من جديد نحيلًا خلال بيت الدرج، خدشًا حادًّا متقطّعًا. تذكّرت الحيوان الغريب على الطريق تلك الليلة. ثم جعلتني موجة نقمة وجزع أقطّب وجهي وأهزّ رأسي. «هذا كلّه...!» شرعت في القول، ثم توقّفت؛ سلبني الصمت كلماتي وضحك عليها ضحكًا مكتومًا. في الأسفل، نطق شخص بلعنة خافتة جشّاء، فتجمّدتُ من جديد. انتظرت- خَدْشة فأخرى- ثم خطوت متقهقرًا بحذر إلى مدخل غرفة النوم، سوّيتُ كتفيّ، التقطتُّ نَفَسًا، ثم سرتُ إلى البسطة من جديد، لكن بصورة مختلفة هذه المرة- لمصلحة من ظننتُ أنّي كنت أقدّم هذا العرض الغبيّ؟- صافقًا الباب خلفي، فليس إلّا التبجُّحُ الآن، رجل في بيته وسط عالمه. «مرحبا؟» ناديت بفخامة، ومَسْرَحَة، ولو أنّ صوتي قد خرج مشروخًا. «مرحبا، من هناك؟» جلب هذا صمتًا جافلًا، مع أثر ضحكة. ثم الصوت من جديد، موجّها نداءه إلى الأعلى:

«آه، إنّه أنا لا غير».

كُوِيرْك.

كان في الصالون، مُقعيًا أمام الموقد، وقطعة عود مسودّة في يده. كان قد قلّب في بقايا الكتب المتفحّمة. رفع رأسه، مال حاجب لطيف، وشاهدني إذ دخلت عليه.

«لا بد أنّ غجريًّا قد وصل إلى هنا»، قال بلا ضغينة. «أم كنتَ أنت

الذي يحرق الكتب؟» سلّاه هذا القول. هزّ رأسه وأحدث صوت طقطقة في خدّه. «لا يَحسُن بك ترك شيء دون رعاية».

واقفًا عند سفح الدرج أومأتُ إيجابًا، إذ لم أجد ردًّا أفضل. هدوء كويرك التهكّميُّ مزعج ولا يمكن تحدّيه. هو مراسل متقاعد عيّنه محامٍ في البلدة منذ سنوات بطلبٍ منّي كي يقوم على المنزل. أي أنّي طلبت ناظرًا: لم أتوقّع كونَه كويرك. رمى العود في الموقد وقام على قدميه برشاقة مفاجئة، نافضًا يديه إحداهما بالأخرى. كانت يداه البعيدتا الاحتمال قد استرعتا انتباهي: شاحبتان، لا شعر فيهما، براحتين ممتلئتين، وأصابع مستدقّة، وطويلة، يدا عذراءَ «ما قبلَ رفائيليّة»[23]. بقيّته مسبوكة مثل فيل بحر. ضخم، ناعم البشرة، رمليّ الشعر، في منتصف الأربعين، مع البعد الذي لا يشيخ لولدٍ سفيه.

«كان شخص يعيش هنا، دخيلٌ ما»، قلتُ، بتأكيد ثقيل على لومه، وما أضيعَ ذلك عليه، كما أرى من منظره الهادئ. «لقد خلّف أكثر من كتب محترقة». وعرّجتُ، بهاجِسِ تقزّزٍ، على الشيء الذي وجدَتْه ليديا في الحمّام. وما زاده ذلك إلا تسليةً على تسلية.

«محتلٌّ هي الكلمة الصحيحة »، قال، وابتسم ابتسامة عريضة.

كان في منتهى الارتياح، واقفًا على بساط المصطلى- تخدُّدٌ آخرُ هنا شقيقُ تلك الرقعة التي بجوار السرير في الأعلى- وينظر حواليه بملمح من شكّ ماكر، كأنّ الأشياء في الغرفة قد أعيد ترتيبها لخداعه ولم تنطلِ عليه

---

23 في لوحة Proserpine للفنان البريطاني دانتي غابرييل روزيتي (1828 – 1882) تقريب لصورة يدي كويرْك كما وُصِفتا هنا، ومثال على أعمال أخويّة «ما قبل الرفائيلية» التي تأسّست عام 1848 وضمّت عددا من الرسامين والشعراء والنقاد الإنجليز ودعت إلى العودة إلى أسلوب الفن الإيطالي في القرن الخامس عشر قبل رفائيل (من ذلك أُخذت اسمها) وميكيلانجيلو؛ ثورةً على نهج أتباعهما الفني الشائع في بريطانيا آنذاك.

الخدعة. ذكّرتني عيناه الشاحبتان الجاحظتان بنوع رديء من السكاكر الصلبة كنت أحبّه صبيًّا. كان التهابٌ على ذقنه حيث مرّ موس الصباح أقربَ ممّا ينبغي فجرحه. من معطفه «الكوردروي[24]» البسيط أخرج قنّينة في كيس ورقيّ بنيّ. «فلنُدْفِئ المنزل»، قال، بخزرة مائلة، وهو يُريني الويسكي.

*

قعدنا إلى الطاولة المغطّاة بالقماش الزيتيّ في المطبخ وشربنا على احتضار النهار. لم يكن كويرك لِيُتَخلَّصَ منه. تلوّى بقفاه الضخمة على كرسيّ مطبخ وأشعل سيجارة وغرس مرفقيه على الطاولة، ناظرًا إليّ المدّةَ بمسحةٍ من أملٍ عريض، عيناه الحلاوتان تجولان جولة تخمينيّة فوق وجهي وجسمي مثل عيني متسلّق صخرة وهو يبحث عن مُتَمَسَّك على جُرف ليس غايةً في الخطورة لكنّه غدّار. حكى لي تاريخ المنزل قبل عصر عائلتي- لقد تحرّى عنه، قال، كانت هوايته، امتلك الوثائق، المسوحات والإفادات الخطيّة والعقود، كلّها بطباعة نحاسيّة بلون السّبيدَج، مزدانة بالأشرطة، ممهورة، ومدموغة بالأختام. كنت في الأثناء أستدعي أوّل مرة ألفيتُني فيها باكيًا في السينما، بلا صوت، بلا توقّف. كان الألمَ في حنجرتي الضيّقة ما فَطِنتُ إليه ابتداء، ثمّ الدموعَ المالحةَ التي تتسرّب عند زوايا فمي. كان عزّ الشتاء، منتصفَ عصريّةٍ تمطر بَرَدًا. كنت قد تسلّلت هربًا من عرض نهاريّ- الحلم المستحيل لبديلي الشابِّ (سنفِلينغ) قد تحقّق- وانحدرتُ بمفردي إلى السينما، شاعرًا بالسفاهة والسعادة. ثم إذ بدأ الفلم ما لبثت هذه الدموع التي لا يمكن شرحها أن تحدّرت، شهقات، عبرات مخنوقة، وقعدت أرتجف وقبضتاي مشدودتان في حجري، والقطرات الحارّة تسّاقط من ذقني

---

24 قماش قطنيّ متين مضلّع ومخمليّ.

وترطّب صدرَ قميصي. كنت متحيِّرًا، خَجِلًا، كذلك، بالطبع، خائفًا من أن يلحظ متلصّصو الأصيل الغامضون الآخرون انهياريَ المخزي، لكنّ شيئًا عظيمًا كذلك كان في تخلٍّ كهذا، في عصيان طفوليّ كهذا. عندما انتهى الفلم وتواريت خارجًا محمرّ العينين في البرد والعتمة الباكرة شعرت بأنّي قد انسكبتُ، وانتعشتُ، وانغسلت. ومن حينها غدت تلك عادةً مُخْزِيةً لي، أفعلها مرّتين، ثلاث مرّات في الأسبوع، في دُوْر عرض مختلفة، كلّما كانت أقذرَ كانت أطهر، ولا فكرة لديّ مع ذلك عمّا كنت أنوح عليه، وعلى أيٍّ فقد قد يكون حِدادي. لا بد أن بئرَ شجًا سريًّا في مكان ما داخلي كانت تنصبّ منه هذه الينابيع. وبينما أجفّف نفسي بالبكاء، باسطًا ذراعيّ وساقيّ في الظلمة المأهولة بصورة وهمية، تَعْرِض مشاهدُ العنفِ والعواطفِ المشبوبةِ المستحيلةِ نفسَها على الشاشة العريضة المائلة فوقي. ثم جاءت الليلة حين أمحلتُ على خشبة المسرح- عرق بارد، أفواه أسماك مشدوهة خرساء مغلوب على أمرها، الآثار المترتّبة- وعرفت أنّ عليّ أن أهرب بعيدًا.

«ما الذي تنوي فعله إذن؟» قال كويرك. «أعني هنا». آخر المساء، الضياء منعكس على ماء غسيل الأطباق والحديقة مكتسية بالعشب الرماديّ. أردت أن أقول: لقد عشتُ بين مسطّحات زمنًا طويلًا، تزلّجت عليها جيّدًا كذلك؛ أطالب الآن بصدمة الماء الجليديّ، الأعماق الجليديّة. لكن أَوَليس الجليد مشكلتي، أنّه قد تخلّلني حتى النخاع؟ «إنسانٌ عضّه البرد بنابه»[25]... النار، بالأحرى؛ النار كانت بغيتي... جافلا عدت من نفسي إلى نفسي. كان كويرك يومئ برأسه: لا بدّ أنّ أحدًا قد قال شيئًا منذ لحظة- ربّاه، تساءلتُ،

---

25 من مسرحيّة «بريكليس أمير صور» لشيكسبير. وقد أضفتُ علامتي الاقتباس إلى الجملة أعلاه إشارة إلى أنّ الترجمة هنا مقتبسةٌ من تعريب الأستاذ أنطوان رزق مشاطي للمسرحيّة.

أكان أنا؟ ما أكثر ما روّعني مؤخّرًا أن أسمع الناس يردّون على أشياء كنت قد ظننت أنّي لم أقلها إلا بيني وبين نفسي. أردت أن أثب الآن وآمر كويرك بأن يغادر، أن يغادر ويتركني وحدي، يتركني وشأني، وأصواتي الخاصّة.

«تلك هي المشكلة، حسنًا»، كان يقول، وهو يومئ برأسه ببطء، بمهابة، مثل ذلك القسّ الأسود القائم على صندوق التبرعات الذي أومأ برأسه حين في طفولتك تبرّعتَ ببنْس. نِيْمُوسِيني[26]، يا أمّ الأحزان.

«ما هي؟» قلت.

«ماذا؟»

«المشكلة- ما المشكلة؟»

«ماذا؟»

ضربٌ من بطبطة. حدّق كلانا وقد أُسْقِط في يده فاغرًا فاه إلى الآخر.

«أنا آسف»، قلت حينئذ، رافعًا يدًا بتعب كي أظلّل عينيّ. «نسيتُ ما كنّا نتحدّث عنه».

لكنّ كويرك كان شارد الذهن أيضًا، وقعد بلا حراك منهمكًا في نظرةٍ وإحدى كتفيه محنيّة ويداه بأصابعهما المرتبطة ارتباطًا شاحبًا مرتاحتان أمامه على الطاولة. قمت بزاوية معيّنة فمال بغتةً كلُّ شيء في العالم إلى جانب واحد وأدركت أنّي كنت سكران. قلت يجب أن أذهب إلى السرير. رفع كويرك نظره إليّ بدهشة مجروحة. لا بدّ أنّه سكران هو الآخر، لكن من الواضح أنّه لم يكن مستعدًّا للذهاب إلى البيت. لم يتحرّك أدنى حركة، وسرّح نظرته المجروحة إلى النافذة.

«لم يحلّ الظلام بعد»، قال، «انظر. وحتى إذا حلّ الظلام فإنّ الليالي

---

26 إلهة الذاكرة، أمّ ربّات الفن التسع في الميثولوجيا اليونانيّة.

تبدو كأنّها لن تنتهي أبدًا. هذا وقت من السنة بغيض، ما لم تكن نؤومًا».

لذت بالصمت، لكنّي بأصابع كأبراج الكنيسة مضغوطة على الطاولة، وبنخرة ناعمة، ورأس مدلّى نهضتُ. أطلق كويرك آهةً تحوّلت في النهاية إلى سقسقة صغيرة أسيانة لاإراديّة وسحب نفسه سحبًا ليقف أخيرًا على قدميه ونتر الباب إلى الرّدهة، جاعلًا لسان المزلاج يهتزّ في فتحته المهترئة، كويركويركويرك. مشى مترنّحًا إلى الممرّ، يتهادى بضخامة على الجانبين وضرب بكتفه عضادة الباب، شتم شتيمة، ضحك ضحكة خافتة، سعل سُعلة رطبة. «حظًّا سعيدًا، إذن» قال، منحنيًا تحت عارضة الباب الخفيضة ومقدّما تحيّة من خلفه بذراع متصلّبة. ودون أن ننبس بكلمة مشينا في صفّ واحد خلال البيت المظلم. عندما فتحت الباب الأماميّ أقبلَت روائح ليل الصيف تسعى إلى الرّدهة، القطران والتّرمس، وشيء له رائحة فطر، وأرصفة أدفأتها الشمس باتت الآن باردة، وضباب بحر مالح، وروائح أخرى عديدة، وأشياء لا اسم لها. درّاجة كويرك، طراز قديم، سوداء، عالية، كانت مربوطة إلى عمود إنارة. تمهّل لحظة، مديرًا حوله نظرة غائمة. الميدان المهجور بنوافذه وسقوفه المحدودبة المنخفضة يتوهّج بكآبة، وعليه مسحة أجنبيّة شريرة بعض الشيء، أثر يكاد يكون من ترانسيلفانيا[27]. «حظًّا سعيدًا»، قال كويرك مجدّدًا، بصوت عالٍ، ونطق عبارة مصوغة من ضحك كالبكاء، كأنّه ضحك على نكتة جارحة. كان مقعد درّاجته مكسوًّا بالندى. ركب درّاجته غير عابئ بالانزعاج الرطب وحرّكها مترنّحا، فيما عدتُ أدراجي وأغلقتُ الباب، هاذيًا هذيانًا مشوّشًا بقلبي المضطرب.

*

---

27 مسقط رأس الشخصية الروائية الشهيرة «دراكولا» في رومانيا.

وإذ انجرفتُ إلى النوم، وأخذتْ أنفاسي الويسكيّةُ تفسد الهواء، بدا أنّي أشعر بآخرَ يصعد خارجًا منّي إلى الغرفة ويظلّ هناك على الظلمة مثل دخانٍ، مثل فكرةٍ، مثل ذكرى. هفهف نسيمٌ ليليٌّ هدبَ ستارة الدانتيل المغبرّة عند النافذة. كان لم يزل في السماء البعيدة وميض. وقعتُ في حلم. فيه غرفةٌ، لطيفةُ البرودة، مبلّطَةٌ بالرّخام، في فيلّا رومانيّة، بإطلالة عبر نوافذ غير مزجّجة على تلّة مَغْريّة متدرّجة، وصفّ من الأشجار الحارسة. أثاث قليل: أريكة بنهايات حلزونيّة مزخرفة وبالقرب منها طاولة منخفضة تحمل مراهم في آنية من الحجر السمّاقي وقوارير ملونة، وفي زاوية بعيدة جرّة طويلة قد استندت داخلها زنبقة وحيدة. على الأريكة، المتاح لي منها ثلاثة أرباع منظر، تستلقي امرأة، شابّة، بضّة، بشرتها فاتحة بصورة مستحيلة، ذراعاها العاريتان مرفوعتان وتغطّيان وجهها في تهتّك وخجل. إلى جانبها قعدت زنجيّة مُعْتَمَة بتُرْبان، عارية كذلك، شخصها ضخم بفخذين بطيخيّتين مصقولتين وثديين لامعين صلبين كبيرين وراحتين ورديّتين عريضتين. وسطى يدها اليمنى وإبهامها كانتا غارقتين إلى البرجمة والضَّرَّة[28] في فتحتي حوض المرأة المعروض باستهتار خليع. لحظتُ كشكشة مهبلها الزهريّة الغاضبة، رقيقة كالتفافات أذن قطة، وطوق شرجها بلون الشاي مزيّتًا مشدودًا. أدارت الجارية رأسَها ونظرت إليّ من فوق كتفها بابتسامة طروب عريضة وهزهزَتْ لأجلي جسم سيّدتها المتفتّح، فارتعشت المرأة وأصدرت صوتًا كبكاء طفلة. في المنام السَّقُوبي[29] شكّل وجهي فُغْرةً، وإذ أخذتني النوبة الصغيرة قوّستُ ظهري وضغطت مؤخّرة رأسي على الوسادة ثم جمدت وبقيت مضطجعًا على هذه الحال برهة من الزمن، مثل دكتاتور ميت مسجّى في نعش

---

28 اللحمة تحت الإبهام، أو النتوء المستدير عند قاعدته.

29 نسبة إلى سَقُوبة، شيطانة تتخذ شكل امرأة كي تضاجع الرجال في نومهم.

مكشوف وغاطس حتى أذنيه في القطيفة.

فتحت عينيّ وما وعيتُ أين كنت. النافذة كانت في المكان الخطأ، والدّولاب أيضًا. ثم تذكّرت، واستولى عليّ التوجّس الغامض القديم من جديد. لم تكن ظلمةٌ ولا ضياء، إنّما وهجٌ مغبّشٌ خافتٌ بدا أن لا مصدر له، إلّا أن يكون المصدرُ هو الغرفةَ نفسَها، الجدرانَ عينَها. أحسست بخفقانِ قلبي الكادح ووجيبِه. كانت الرطوبة اللزجة على فخذي تبرد الآن. فكّرت في أنّه يجدر بي أن أنهض وأذهب إلى الحمّام وأنظّف نفسي، بل إنّي رأيت نفسي أقوم وأتلمّس مكان مفتاح النور- أَوَمَا زلت أحلم، نصفَ نائم؟- على الرغم من ذلك فإنّي أتمدّد، ملفوفًا في قماطٍ من دفء نديف. قد وجد هوايَ وانيًا طريقَه إلى المرأة في الحلم وتتبّع من جديد رسمَ أطرافها البيضاء ولمس أماكنَها السريّة، لكن دون اهتياج الآن، بفضولٍ فقط، برفقٍ أتعجّب من بشرتها خرافيّة البياض، من مجونها الخياليّ. مستغرقًا على هذا النحو في خمول ناعس أدرت رأسي على الوسادة وكان إذّاك أن رأيت الشكلَ البشريّ في الغرفة، واقفًا بلا حراك على مقربة من جانب السرير. اعتبرته امرأةً، أو شيخًا شبيهًا بامرأةٍ، أو طفلًا حتّى، غير محدَّد الجنس. محتجبًا وساكنًا وقف مواجهًا إيّاي، مثلِ واحدة من حارسات حجرة التمريض في قديم الزمان، الساهرات الخفيّات على حمّى الطفولة. الرأس كان مغطّى فلم أستبن أيّ ملامح. اليدان متشابكتان عند الصدر في ما يشبه موقفَ ضراعة، أو صلاة معذّبة، أو أيّة نهاية أخرى لسعي جاهد مشغوف. كنت مرعوبًا، بالطبع- تجمّد عرق بارد على جبيني، وخزَت شعراتٌ قفا عنقي- لكنّ ما أدركته أوضحَ إدراكٍ كان الشعورَ بكوني موضع تركيز مكثّف، ضرب من التدقيق الضروريّ. حاولت أن أتكلّم فلم أستطع، لا لأنّ الخوف أخرسني بل لأنّ آليّةَ صوتي

لم تصمَّم لتعمل في العالم الآخر بين الحلم واليقظة حيث كنتُ عالقًا. مع ذلك فإنّ الشكل لم يحرِّك ساكنًا، ولا بدرت منه أيّةُ إشارة، وقف فقط وِقْفةَ النهاية الغامضة تلك، ينتظر، ربما، استجابةً منشودةً منّي. فكّرت: *The Necessary* ... (... الضروريّ)، وحالما فعلت، في لمحة الفكر الخاطفة تلك، تلاشى الشكل. لم أنتبه لذهابه. لم يبدُ أنّ تحوّلًا كان بين كونه مرئيًّا وامتناع رؤيته، كأنّه لم يرحل وإنّما غيّر حالتَه فقط، أو تصفّى إلى تردّد لا تبلغه حواسّي الغليظة. آسِفًا على ذهابه ومرتاحًا في آن أغلقتُ عينيّ، وحين فتحتهما مُكْرَهًا من جديد، بعد هنيهةٍ لا أكثر، كانت شفرة ضياء متسلّلة قد أحدثت شقًّا عميقًا خلال الفاصل ما بين الستائر.

هكذا أستيقظ الآن، أخرج من النوم ماشيًا مِشيةَ المرتاب كأنّي قد قضيت الليل متخفّيًا. عمود الذهب ذاك الساقط على النافذة كان باهرًا. في زوايا الغرفة احتشدت ظلال بنيّة. لديّ نفور عميق من الصباحات، قِوامها العفن المكتوم، مثل ذاك الذي لسريرٍ نِيْمَ عليه طويلًا. مؤخّرًا ثَمّ أوقات فجر إذ أصحو متمنّيًا أنّه كان الليل من جديد وأنّ النهار قد انقضى. خلصت إلى الاعتقاد بأنّ حياتي بجملتها مثل مرور صبيحة لامتناهٍ؛ مهما تكن الساعة، فالحال دائمًا يشبه أنّي قد قمت للتوّ وأحاول أن أصفّي ذهني وأستوعب الأشياء. تنهّدت وركلت الأغطية عليّ وعدتّ أتلوّى بأطرافي على المرتبة المتكتّلة. سيكون النهار حارًّا. البارحة، في ثَمَلي، خطر لي أن أنام في سرير أمّي- أجل، ها هو *Herr Doktor*[30] (حضرة الدكتور) من جديد، بلحيته وسيجاره- لكن لا بدّ أنّي قد غيّرت رأيي، لأنّي هنا كنتُ في غرفتي القديمة. ما أكثر ما قد استلقيت فيها صغيرًا في صباحات الصيف تمامًا مثل هذا الصباح، طافيًا على سديمِ تَوقُّعٍ، مقتنعًا بأنّ الأحداث العظيمة على وشك أن تقع، ببرعم في داخلي يرتقب أن يقتحم التفتّحَ الملتبسَ التباسًا رائعًا لما سيكون حياتي وقد بدأ أخيرًا يزهر بالفعل. يا لها خططًا رسمتُها! أو لا، ليست خططًا، كانت أغمض بكثير وأكبر وأنأى من أن تُدعَى خططًا. آمالٌ، إذن؟ ولا ذاك، أيضًا. أحلام، إخالها أحلامًا. خيالات. أوهام.

بنخرة وزفرة سحبت نفسي من السرير سحبًا وقمت أحكّ جلدي. أشكّ في أنّي أصير شيئًا فشيئًا شَبَهَ أبي، ولا سيّما عند اقتراب نهايته، بالنظرةِ

---

30 من أساليب مخاطبة الطبيب في الألمانية. وفي السياق إلماحة إلى تقمصه شخصيّة الدكتور فرويد.

المليّةِ نفسها، بالوقفة القلقة. إنّه انتقامُ أبٍ بعد وفاته، أن يورثك شَبَهًا يتزايد. مشيت بخطى خافتة إلى النافذة وفتحت الستائر المهترئة، مُجْفِلًا الضوء. كان الوقت لم يزل مبكّرًا. الميدان كان مهجورًا. لا روح، ولا حتّى طائر. إسفين حادّ طويل من الشعاع استند إلى الحائط الأبيض للدّير، ساكنًا ومهدِّدًا. ذات ربيعٍ هنا عندما كنت صغيرًا بنيت مزارًا لمريم العذراء. ما الذي ألهمني هذا المشروع النادر؟ لا بدّ أنّ لحظة بصيرة قد ألهمتني، لمحة من زرقة صباحيّة، أو إشعاعة في سماء مترامية عند الظهر، أو نشوة روحية معطّرة بالزنبق، آنَ صلواتِ المساء، منتصفَ التسابيح، إذ كانت الأسرار المجيدة تُقْسَم. كنت صبيًّا بلا صبوة، عرضة لنوبات التحمّس الدينيّ، وفي ذلك الربيع في شهر مايو، الذي هو شهر مريم- وأيضًا، ممّا يثير الفضول، شهر كلٍّ من إبليس والذئب؛ من ترى يقرّر هذه الأمور، أتساءل؟- كنت قد عقدت النية على أن أصنع لها مزارًا، أو مغارة، كما كانت أشياء كهذه تدعى، آنذاك، في هذا الجزء من العالم، وربما لم تزل تدعى كذلك. اصطفيت مكانًا في الدرب جوار المنزل حيث تثنّى نهيرٌ بنيٌّ متدفّقًا تحت سياج من شجيرات زعرور. لم أكن واثقًا بأنّ الحجارة كانت مُشاعًا، فجمعتها احتياطًا من الحقول والمواقف الخالية على الدوّار، مثمِّنًا على وجه الخصوص الأبيضَ الصوانيّ منها. اقتطفتُ من الأسيجة زهر الربيع، وعندما رأيت كيف ماتت الأزاهير سريعًا قلعت النباتات من جذورها وزرعتها على قطعتي من الضفّة، وسط الحجارة، مالئًا الحفر بالماء أوّلًا ومشاهدا برضا عميق الفقاعات الطينيّة ترتفع وتكبر وتنفقع في انغمار التربة العشبيّة المُخَصَّلة واستكنانها، ولوّثت البيت بطينها العالق بكعب حذائي الـ«ولنغتونيّ[31]».

---

31 حذاء يتخطّى أعلاه الركبة.

لا بدّ أنّ تمثال العذراء قد جاء من المنزل، أو ربما أقنعت أمّي بأن نبتاع واحدًا خصّيصًا: أحب أنّي أستطيع أن أتذكّر أمي وهي تتذمّر من التّكلفة. نظرَتْ إلى مشروعي هذا نظرةً مستخسرة، مستريبةً باستعراض تقوى كهذا، لأنّها على الرغم من توقيرها العذراء تحبّ من الولد أن يكون ولدًا، قالت، لا متخنّثًا متأنّثًا. عندما فرغتُ من العمل قعدتُ مسرورًا لوحدي مدّةً طويلةً متأمّلًا المزار وممتلئًا بمشاعر الفخر والخير في ما يشبه تخمة. سمعت (نوكتر) العجوز بائع التفاح ينادي على بضاعته في شارع بعيد، و(ماود) المجنونة في علّيتها تغنّي لعرائسها. لاحقًا مع ذلك، وقد آذنَتْ الشمس بمغيب وطالت الظلال، خرج أبي من المنزل بلا معطف ولا حمالة بنطال وألقى نظرة على المغارة وعليّ وعلى المغارة من جديد، ومصّ أسنانه، وابتسم، ولم يقل شيئًا، نائيًا ومتشكّكًا، كالعادة. ذات يوم وقعت أنظار عصابة فتيان أكبر منّي سنًّا على المزار وهم مارّون بدرّاجاتهم فنزلوا وأمسكوا بالتمثال وتقاذفوه بينهم، ضاحكين، حتى تخبّط في يدي أحدهم وسقط منه على الطريق وتهشّم. استنقذت شظية من العباءة الزرقاء واحتفظت بها، هائبًا البياضَ المكشوفَ للجبس؛ عفاف كهذا قد انهتك تقريبا وتبذّل، وكلّما سمعتُ القساوسةَ بعدُ يذكرون أنّ العذراء المباركة كانت قد ولدت دون لطخة خطيئة أشعر بإثارة مظلمة، مضطربة.

لا بدّ أنّها من أصل مِينَوِيّ[32]، العذراء؛ حتّى ألوانها، كوبَلْتِّي[33] وأبيضُ جِيْرِيّ، توحي بجزائر اليونان. مريم مثل باسيفايي[34]، أفعى في اليد ونهدان

---

32 مرتبط بحضارة جزيرة كريت (أو إقريطش) القديمة.

33 نسبة إلى معدن الكوبلت.

34 في الميثولوجيا اليونانية هي زوجة مينوس ملك كريت. أرسل إليه إله البحر ثورا كي يضحي به فأبقى عليه؛ فكان عقابه أن وقعت زوجته في غرام الثور وأنجبت منه ابنها مينوتور.

مخروطيّان عاريان وباديان للعيان، ها فكرةً لتثير ذعر القساوسة.

بقيتُ مخلصًا للإلهة، وهي في المقابل ما فتئتْ حفيّةً بي، في كلّ الصور العديدة التي لم تزل تتجلّى بها في حياتي. أوّلًا بالطبع كانت هناك أمّي. حاولَتْ لكنّها لم تستطع أن تفهمني، ابنها المستبدَل[35]. كانت كثيرة التشكّي، شاردة الذهن، عرضة للهموم والانفعالات الغامضة، دائمًا تلهث تحت تظلّمات غير محدّدة، دائمًا تنتظر، بدا أنّها دائمًا تنتظر، آسيةً صابرةً على الأسى وكَتومة، اعتذارًا من العالم. كانت خائفة من كلّ شيء، من التأخّر، من التبكير الشديد، من لعبة الداما والاختناق، من الجراثيم والزحمة والحوادث والجيران، من أن تكون صريعةَ غريبٍ في الشارع وسليبتَه. عندما مات أبي أَلِفَت الترمّل كما لو كان الحالة الطبيعيّة التي من أجلها كانت حياتها معه مجرّد إعداد طويل وحزين. لم يكونا سعيدين؛ السعادة لم تكن جزءًا من وعد الحياة المحفوظ لهما. لم يتشاجرا، أعتقد أنّهما لم يكونا حميمين بما يكفي ليتشاجرا. فبينما التزم أبي الصمتَ كانت أمّي مهذارةً، إلى درجة الهستيريا في بعض الأحيان، وهكذا حقّقا توازنًا عنيفًا. بعد أن مات، أو انتهى من تلاشيه- لم تكن وفاةُ جسده إلّا النهايةَ الرسميّةَ لتفسّخ بطيء، مثل النقطة التي طعنها الطبيب في شهادة وفاته ذلك اليوم، تاركًا بقعة حبر لامعة- بدأتْ هي بدورها تنحو شيئًا فشيئًا إلى مهاوي الصمت. صوتها نفسه استحال نحيلًا وورقيًّا، بإيقاع أنين، مثل ذاك الذي لشخص تُرِك واقفًا في غبار الطريق، يرى عجلات العربة تدور مبتعدة، بجملةٍ نصفِ منتهية وما ظلّ أحدٌ ليكملَها له. كلّ معاملاتها إيّاي مذّاك أمست نوعًا من رجاء لا ينقطع، مشفق وغاضب بالتناوب. ما أرادته منّي كان أن أشرح لها نفسي، أن أفسّر ما كنتُه، ولماذا اختلفتُ هكذا عنها.

---

35 تشبيها لحاله بالمستبدَل Changeling رضيع استُبدِل بآخر، فليس هو الابنَ الحقيقيّ للأبوين.

كأنّها آمنتْ أنّ في استطاعتها خلالي بطريقة أو بأخرى أن تحلّ لغز حياتها والأشياءِ التي قد حدثت لها، والأشياءِ الكثيرةِ الأخرى التي لم تحدث. لكنّي لم أستطع مساعدتها، لم أكن من يأخذ بيدها ويهديها عائدًا بها على طول الطريق الظليلة مرورًا بالبوّابات المنغلقة على كلّ الثروات المكدّسة لما كان يمكن أن تكونَه. النهايةُ في حالتها كانت حيرةً ورفضًا محتدمًا، إذ تشبّثت بأعمدة البوّابة الأخيرة، تلك التي كانت قد انفتحت لها أخيرًا، مسندةً قدميها إلى العتبة، حتى جاء حارس البوّابة وفكّك أصابع يديها ودفعها أخيرًا إلى الأمام، إلى المكان المظلم. نعم، لم أستطع مساعدتها. لم أذرف دمعةً حتّى على شفير القبر؛ أظنّني كنت أفكّر في شيء آخر. إنّ في داخلي، في قرارة نفسي، مثل كلّ أحد لا بدّ- على الأقلّ آمُلُ أنّه الحالُ في أعماق كلّ أحد، إذ لا أودّ أن أكون وحيدًا في هذا- جزءًا لا يكترث لأيّ شيء سوى نفسه. ولقد أخسر كلّ شيء وكلّ أحد ويظلّ ذلك الضوء الهادي مشتعلًا في مركز ذاتي، ذلك اللهب المتّقد الذي لا يطفئه شيء، حتى الانطفاء الأخير.

أسترجع بوضوح يومَ صرتُ حقًّا لأوّل وهلة على وعيٍ بذاتي، أعني ذاتي بوصفها شيئًا لم يكُنْهُ كلُّ شيء آخر. أكثر ما أحببته صغيرًا كان تلك الفواصلَ الميتةَ بين فصول السنة حين كان فصلٌ قد انتهى ولمّا يبدأ الذي يليه، وكلّ شيء كان رماديًّا وساكتًا وساكنًا، ومن السكون والسكوت بدا أنّ شيئًا يقترب منّي، شيئًا متردّدًا، ناعمًا، صغيرًا، ويعرض نفسه كي يحظى باهتمامي. كنت في هذا اليوم الذي أتحدّث عنه أمشي على طول الشارع الرئيس في البلدة. كان نوفمبر، أو مارس، الجوّ ليس باردًا، إنّما على الحياد. من سماء منخفضة كان مطر رقيق يسقط، لا يكاد من فرْط رقّته يُحَسّ. كان الصباح، وربّات البيوت طالعات، بأكياس تبضعهنّ وأغطية رؤوسهنّ. كلبٌ يلتمس طريدة

ركض بانشغال متجاوزًا إيّاي ناظرًا لا إلى اليمين ولا إلى اليسار، يتبع خطًّا مستقيمًا مرسومًا بخفاء على الرصيف. كانت رائحة دخان ولحم جزار، ورائحة بحر أجاج، وكعادة البلدة تلك الأيام، النتن الحلو الخفيف لطعام الخنازير. وإذ مررت بمحل خردوات نفث المدخل المفتوح في وجهي هواءً بُنيًّا. وأنا، متشرّبًا كلَّ هذا، جرّبت شيئًا لم أجد له اسمًا إلّا السعادة، على أنّه لم يكن سعادةً، كان أكثرَ وأقلَّ من السعادة. ماذا حدث؟ ما الذي في الإحساس المبتذل بين يديّ، في روائح البلدة وأصواتها ومناظرها العاديّة، قد خلق هذا الشيءَ غيرَ المتوقَّع، أيًّا ما كان، مزهرًا فجأةً في داخلي مثل احتمال إجابة عن كلّ الاشتياقات المبهمة في حياتي؟ كلّ شيء كان على حاله الآن مثلما قد كان من قبل، ربّات البيوت، الكلب المنشغل، كلٌّ على حاله ولكنّه بصورة ما قد تغيّر. ورافق السعادةَ شعورٌ بالقلق. كأنّي كنتُ أحمل إناءً هشًّا وكان واجبي أن أحميَه، مثل الفتى، في القصّة التي رويت لنا في درس الدين، الذي حمل القربان المقدّس خلال شوارع روما القديمة الفاسقة مُخبّأً في تُنْكه[36]؛ في حالتي، مع ذلك، بدا أنّي كنتُ أنا نفسي الإناءَ الثمين. أجل، ذاك ما كان، كنت أنا مَن كان يحدث هنا. لم أدرِ ما يعنيه هذا تمامًا، لكن قطعًا، أخبرت نفسي، قطعًا يجب أن يعني شيئًا. وهكذا مضيت، في حيرة سعيدة، تحت المطر القليل، حاملًا في قلبي غموض ذاتي.

أكان ما انسكب في السينما في ذلك الأصيل هو زجاجةَ الإيكورِ[37] الثمينِ نفسَها، ما زالت في داخلي آنذاك، والتي أحملها فيّ إلى الآن، والتي الآن ستفيض عند أدنى حركة، عند أدنى خفقة في غير أوانها من قلبي؟

أمضيت سنوات شبابي أتدرّب للمسرح. أجوس خلال طرق البلدة الخلفيّة، دائمًا وحدي، أؤدّي دراما كفاح ونصر منفردة ألعب فيها كلّ

---

36 ثوب رومانيّ طويل دون كمين يشد بحزام حول الخصر.

37 Ichor، دم الآلهة في الميثولوجيا اليونانية.

الأدوار، وأتحدّث حتى بلسان المغلوب والمقتول. أكون أيَّ أحد إلّا ذاتي. على هذا المنوال استمرّتْ عامًا إثرَ عام، البروفةُ المجهدةُ اللامنتهية. لكن ما الغاية التي كنت أتدرّب من أجلها؟ عندما بحثت في داخل نفسي لم أجد شيئا ناجزًا، ليس سوى احتمال دائم، انتظار استكمال. ليس في الموقع الذي كان يفترض أن يكون ذاتي إلّا مكانٌ شاغرٌ، غَوْرٌ منتشٍ. وقد تسابقت الموجودات إلى هذا الفراغ حيث ينبغي للذات أن تكون. النساء، على سبيل المثال. وقعن فيّ، آملات أن يملأنني بكل ما يملكن منحه. لم يكن الأمر ببساطةِ أنّي كنت ممثّلا فكان من المفروغ منه افتقارُ شخصيّتي إلى عنصر أساسيّ؛ شكّلتُ تحديًّا لهنّ، لرغبتهنّ الملحّة في أن يبدعن، أن يخلقن حياة. وأخشى أنّ مساعيهن قد باءت بالفشل، معي.

كانت ليديا قد بدت وحدها القادرة على أن تسلّط عليّ اهتمامًا كافيًا فتجعلَني أشعّ في العالم برفيف قوّة حتى إنّي قد أصدّق أنّي كنتُ حقيقيًّا. عندما التقيتها أوّلَ مرّةٍ كانت تعيش في فندق. ذلك الصيف، قبل ما يزيد على نصف عمري الآن، كنت أراها كل يوم تقريبًا غادية ورائحة عبر الأبواب الزجاجية الدوارة للـ(هالسِيَنْ)[38]، مستقبلةً الصباحَ في أزياء غريبة من شاش ومخمل وخرز. ينسدل شعرها الأسود مفعمًا بروح العصر، المسحة الفضيّة الصريحة أقلُّ صراحة مما ستكون عليه في السنوات اللاحقة لكنّها مع ذلك فاتنة. أصبحَتْ لي موضعَ تأمّلٍ شديد. سكنتُ غرفة في نُزُلٍ عفنٍ في واحدٍ من تلك التّلاع المرصوفة بالحصى على النهر، حيث توقظني الكرّاجات عند الفجر وقد أُطْلِق سراحُها من بوابات مصنع العجّة بدويٍّ حوافر القيامة، والليل قد خامرته الرائحة الحلوة الكريهة لتحميص الشعير.

---

38 Halcyon اسم الفندق.

متسكّعًا على طول السدّ كنت أتشوّف إلى ليديا بالساعة، في الهمود الرمليّ لمدينة الصيف. كانت «إكزوتيكيّة»، من بنات الصحراء. تمشي بنوع من أرجحة عابسة، فاردة كتفيها قليلًا، ومطأطئة رأسَها دائمًا، كأنما تتبع خطاها بدقّة وهي عائدةٌ أدراجَها إلى شيء أو مكان جليل. إذا اندفعَت خلال باب الفندق عكسَت الألواحُ الزجاجيّةُ الدوّارةُ صورتَها متعدّدةً متشظّيةً قبل أن تختفي في خفوت البهو المأهول. ابتدعتُ حيوات لها: كانت أجنبيّةً، بالطبع، الابنة الهاربة لعائلة أرستقراطيّة من سلالة رائعة؛ كانت عشيقةً سابقةً لرجل ثريّ، وقد اختبأت في هذا المكان المنعزل عن عيون رقبائه؛ لا بدّ أنّ لديها، يقينًا، شيئًا في ماضيها. كنت مقتنعًا بذلك، فقدًا، عبءَ سرٍّ، جريمةً حتّى. عندما، صدفةً، عُرِّفتُ إليها في ليلة عرض افتتاحيّ- كانت متحمّسة للمسرح، في تلك الأيام، وبدا أنّها لم تكن تفوّت أيّ عرض، تحمّسًا لا يميز الغثّ من السمين- أحسستُ بارتجاج خيبة لم يمكن تفاديه، كأنّ شيئًا قد خمد مصحوبًا بصوت تهشّم تحت حجابي الحاجز. مجرّد فتاة أخرى، في الأخير.

«لقد رأيتك»، قالت، «تتمشّى على أرصفة المرفأ». طالما كانت مباشرة بصورة محرجة.

لكنّ ذلك الشيء المشرقيّ في ملامحها، الشحوب الرقيق وسواد الحاجبين الصارخ والظلّ الخفيف على الشّفة العليا، بقي مصدر جاذبيّة لا تقاوم. اتّخذ فندق هالسِيَنْ في نظري شكل واحة؛ قبل أن أدلف إليها تخيّلت خلف ذلك الباب الدوّار عالمًا سريًا من الخضرة والماء النضّاح والوشوشات المشتِهاة؛ كدت أذوق الشَّرْبات، وأشمّ خشب الصندل. كان يحيط بليديا جلالٌ زاده فتنةً جَهْلُها أنّه يحيط بها. أُعْجِبْتُ بامتلائها، الإحساس الذي تمنحك إيّاه بقدرتها على ملء أيّ شيءٍ ترتديه، مهما يكن واسعًا أو سابغًا.

حتّى اسمُها نَمَّ في مسمعي عن بحبوحة جسمانيّة. كانت أميرتي القليلة الحيلة الأنيقة الكبيرة. أحببت مشاهدتها وهي تمشي لملاقاتي، بتلك المشية المتثاقلة العجزاء وتلك الابتسامة المستاءة دائمًا بغموضٍ، والذاهلة. لقد تقلّبتُ في نعمائها؛ بدت المنبع الخالص والأصل الذي اشتقّتْ منه كلمة *uxorious*[39]؛ قرّرت على الفور، دون حاجة إلى التفكير، أنّي سأتزوّجها.

في الواقع عليّ القول إنّ اسمَ زوجتي حنونةِ العينين الحقيقيَّ، أو الأوّلَ، هو (لِيَا)؛ لمّا قُدِّمتُ إليها في صخب المشرب المحتشد بالمعجبين سمعتُه خطأً (ليديا)، وعندما أعدتُّه على مسامعها لاحقًا أحبَّتْه، فاحتفظنا به كاسم حبٍّ بيننا، وترسّخ أخيرًا، حتى وسط الأفراد الأقلّ اكتراثًا في عائلتها. يخطر لي أن أتساءل الآن أَكَانَ هذا التسليمُ وتبديلُ الأسماءِ قد عمل فيها تغييرًا أعمقَ من مجرّد تسمية. لقد تخلّت عن جزء من ذاتها، لا ريب والحال هذه أنّها قد اكتسبت شيئًا، كذلك. من ليا إلى ليديا رحلة ليست بالهيّنة. في بداياتي تسلّيتُ بإمكانيّة أن أتبنّى لي اسمًا فنيًّا، لكن لم يكن فيّ حينها إلا القليلُ الذي كان حقيقيًّا، فشعرت بأنّي لن أستطيع التضحية بالطابع الإمبراطوريّ الذي دمغتني به أمّي- أنا واثق بأنّ أبي لم تكن له كلمة في هذا الشأن- تيمّنًا بأن يكون لي على الأقل رنّة في العالم، ولو أنّ الجميع في الوقت نفسه، ومن ضمنهم أمّي، قرّروا اختصاره إلى ألكس. في أدواري الأولى أعلنتُ عن نفسي باسم: ألكسندر، لكنّه لم يعلق بالأذهان. أتساءل ما المطلوب ليكتسب الاسم مناعة ضدّ الاختصار.

بحثت عن اسم ليا في المعجم، فوجدت أنّه في العبريّة يعني بقرة. ويحي. لا عجب أنْ كانت راغبةً في التخلّي عنه.

---

39 بمعنى: مفتون بزوجته أو خانع لها. مأخوذة من المفردة اللاتينية uxorius وتعني أنّ الموصوف شيء «يخصّ زوجة أو يتعلّق بها» أو رجل «مكرّس لزوجة» أو «محتكم بأمرها».

فوق كلّ ذكرياتي عن تلك الفترة من حياتي يتلبّث تفتّح دافئ ثقيل الوطأة بمشاعر الحرج. لم أكن تمامًا ما ادّعيتُ بأنّه أنا. وتلك نقيصة ممثّل. لم أروِ أكاذيب عن نفسي، بالضبط، غير أنّي سمحت لأشياء محدّدة أن تبرز خلال الغبش المقصود عن أصولي التي كانت، صدقًا، أكبر من الحياة.

الحقيقة، إنّي كنت سأقايض بكلّ سعادة بكلّ شيء صنعته من نفسي قليلًا من النعيم الموروث، شيئًا ليس من اختراعي، ولم أفعل شيئًا لأستحقّه- طبقة، سلالة، مالًا، لو حتى عقارًا متهالكًا على جانب نهر وقطرة من دم أفراهامَ[40] في عروقي. كنت نكرةً، كما نقول عن الأغرّة في مهنتنا، في حالتي، نكرةً بحقّ، مجهولًا حتى لنفسي.

أظنّني لجأت إلى المسرح كي أمنح نفسي شخصيّات أسكنها أكبرَ، وأعظمَ، وأثقلَ وزنًا وحضورًا من كلّ ما تمنّيت يومًا أن أكونه. درستُ- آه، كيف درست الدّور، أعني أن ألعب كوني آخرين، وفي الوقت نفسه أسعى جاهدا لأحقّق جوهر ذاتي. كرّست ساعات لتدريباتي، أطول بكثير ممّا يطلبه حتّى الأشدّ تطلبا والأصعب إرضاء بين المدرّبين. خشبة المسرح أكاديمية عظيمة؛ أنجزت بإتقان كلّ أشكال المنجزات غير المثمرة: أستطيع الرقص، أستطيع المبارزة، أستطيع، إن اقتضى الظرف، أن أخطر متأرجحًا من روافد السقف على حبل وسيف بحّارة بين أسناني. لمّا كنت أصغر سنًّا اعتدتّ تمثيل سقطات مخيفة، مباشرة على الرأس، ارتطام! مثل ثور هوى بين عينيه فأس جزّار. أخذت دروسًا مدّةَ سنةٍ في الخطابة وفنون الإلقاء، خمس شِلِنات عن ِكلّ درس، من عجوز متأنّقة في مخمل أسود ودانتيل عتيق- «بقولك: *a negg*، سيّد كليف، هل تعني ربما: *an egg* (بيضة)؟» - تستأذن منّي على

---

40 النبي إبراهيم عليه السلام. وقد فضّلت الإبقاء على المقابل العبراني الذي اختاره المؤلف.

فترات خلال نصف ساعتنا الأسبوعية وتنتحي جانبا لتنتهب جرعة من قنينةٍ «ناغِنيّة[41]» خبّأتها في حقيبة يدها. أنهيت دورة باليه، عَلِقتُ بها شتاءً كاملًا، أرشح عرقًا وعنادًا على بار الباليه، مُعرِّضًا نفسي لنظرات التلميذات البليدات والشبيبة بعيون الظباء وبالنوايا المريبة. التهمت الكتب المساعدة. قرأت ستانيسلافسكي[42]، وبرادلي[43] عن التراجيديا، وكلايست[44] عن مسرح العرائس، وحتى زملاء المهنة القديمين ذوي الأسماء العائلية المركّبة من أمثال غرانفيل-باركر[45] وبير-بوم تري[46] عن فنّ التمثيل. التمست البحوث الأقلّ شهرة. ما زلت أحتفظ في مكان ما على رفوفي بكتاب بيروتشي *Dell'arte rappresentativa, pre-meditata ed all'improviso* [47] ديلارتي ربرزنتاتيفا، بري-ميديتاتا إد آليمبروفيزو[48]- اعتدتّ أن أدير ذلك العنوان على لساني مثل بيت شعر لبتراركا[49]- في كوميديا فينيسيّة من القرن السابع عشر، كنت أحملها معي بثقة مدروسة، وقرأت حتى بعض صفحاتها، بمشقّة، بمساعدة كتاب لتعليم مبادئ القراءة. لم أكن لأرضى بأقلّ من تغيير شامل، إعادة تصنيع لكلّ ما كنته فيبعثَ خلقًا جديدًا لامعًا، ومعجزًا. لكنّي

---

41 نسبة إلى ناغِنْ Naggin نوع من زجاجات الخمر صغيرة الحجم (200 مل)، يشيع استخدامها في إيرلندا.

42 قسطنطين ستاينسلافسكي (1863 – 1938) ممثل ومخرج ومنظّر مسرحي روسيّ شهير.

43 أ. س. برادلي (1851 – 1935) أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة أكسفورد. عُرف بمحاضراته عن شيكسبير. من أهم أعماله الكتاب المشار إليه: Shakespearean Tragedy، 1904 «التراجيديا الشيكسبيريّة». ترجمه إلى العربية حنّا إلياس.

44 هاينريش فون كلايست (1777 – 1811) شاعر وقاص وكاتب مسرحي ألمانيّ.

45 هارلي غرانفيل-باركر (1877 – 1946) ممثل ومخرج وكاتب مسرحي إنجليزي.

46 هربرت بير-بوم تري (1852 – 1917) ممثل ومدير مسرح إنجليزي.

47 أندريا بيروتشي (1651 – 1704) مسرحيّ إيطاليّ. نشر كتابه المذكور عام 1966.

48 تُرجم إلى الإنجليزية بعنوان: A Treatise on Acting, from Memory and by Improvisation «أطروحة في التمثيل، استحضارًا وارتجالًا».

49 فرانشيسكو بتراركا أو بترارك (1304 – 1374) شاعر إيطالي من رواد عصر النهضة.

رُمْتُ المحال. إلهٌ فقط من في وسعه تدبير أمر كالذي رحت أرومه- إله، أو دمية متحرّكة. تعلّمت التمثيل، تلك هي كلّ الحكاية، ما يعني أنّي تعلّمت أن أمثّل بصورة مقنعة دور ممثّل يظهر أنّه لا يمثّل. وما قرّبني هذا شيئًا من ذلك التحوّل العظيم الذي تمنّيت غايةَ المنى أن أحقّقه. الرجل العصاميّ لا يملك أرضًا ثابتةً ليقف عليها. من بنى نفسه بنفسه يجد حاله في شقلبة دائمة، تتردّد في سمعه ضحكة العالم: انظر! ها هو من جديد، رأسًا على عقب. كنت قد جئت من اللامكان، والآن عبر ليديا، وصلتُ إلى قلب ما بدا مكانًا ما. كنت مجبرًا على أن ألفّق، بالطبع، كي أوسّع من ذاتي، إذ كيف أرجو أن أكون مقبولًا بما كنتُه فحسب في السكن المُغْرِب الجديد الذي كانت تعرضه عليّ؟

تزوّجنا زواجًا مدنيًّا، وصمة، في تلك الأيام؛ أشعرتني بأنّي ثائر على المقدّسات. نأَتْ أمّي بنفسها، غالبًا ليس بسبب رفضها هذا الارتباط الممتزج الأعراق الذي كنتُ بصدده- وإن كان الرفض هو ما حرصَتْ على تأكيده- قدرَ ما أنّه بسبب خوفٍ ممّا كان في نظرها العالمَ «الإكزوتيكيّ» بصورة مروّعة الذي كنتُ مقبلًا عليه. أقيم إفطار العرس في الهالسِيَنْ. كان يومًا حارًّا والرائحة النتنة من النهر أضفت على الاحتفالات مزاجَ البازار الصفراويّ. أشقّاء ليديا الكثيرون، شباب بشعور سوداء ومؤخّرات كبيرة ومرح وفضول طفوليّين، صفقوني على الظهر ومازحوني بنكات بذيئة بقلوب صافية. واصلوا المشي بعيدًا عني، هكذا أتذكّرهم ذلك اليوم، ماشين بعيدًا عني، كلُّهم بالمشية العائلية ثقيلة الأرداف التي كانت في حالتهم تهاديًا، ضاحكين لي من فوق أكتافِهم بنوعٍ من تشكّك ودود. حماي، أبي الجديد، أرمل فَطِن بالسيماء النبيلة بصورة متنافرة لملكٍ فيلسوف، عَسَّ المناسبةَ، بالبعد الذي لمخبر الفندق أكثر ممّا هو لمالكه. كان قد أنكر منظري من البداية.

هل وصفتُ الهالسِيَنْ؟ كنت مغرمًا بذلك المكان القديم. لا أثر له الآن، بالطبع. تخلّص منه الأبناء بعدما مات أبوهم، ثم اندلع حريق سوّى البناية بالأرض فبِيعَ الموقع على إثره. يبدو خارقًا للعادة أنّ شيئا في غاية المتانة قد يُمحَى أثره تمامًا. الداخل كما أتذكّره كان بنيَّ اللون في العموم، لا بنيَّ الخشب الناعم بل الورنيش العتيق، متعدّد الطبقات لزج الملمس، مثل التوفي. رائحة مترهّلة لطعامٍ طُهِي أكثرَ ممّا ينبغي لبثَتْ واقفةً في الممرّات ليلَ نهار . زُوِّدت الحمّاماتُ بمراحيض هائلة كأنّها عروش بمقاعد خشبية، وبأحواض استحمام بدت مصنوعةً لتذاب فيها جثث العرائس المقتولات؛ إذا ما فُتِحت الصنابير سَرَتْ طقطقةٌ ضخمةٌ على طول الأنابيب تجعل الحيطان نفسها ترتجف حتى العليّات. عاليًا هناك تحت السقف في غرفة خالية، عصرَ سبت يهوديّ خانقًا في الصيف، على سرير واسع مرتفع يذكّر تذكيرًا مزعجًا بمذبح، تساقيتُ وليديا لأوّل مرّة غرامًا محرّمًا. كأنّما عَلِق بذراعيّ طائر مضطرب رائع كبير هَدَل ونَعَق وخَبَط بجناحيه الهائجين وارتعش في النهاية وغاص تحتي، لا حول ولا قوّة، بصيحات خافتة مثيرة للأسى.

ذلك الاستسلام في المخدع كان مضلِّلًا. فعلى الرغم من هيئتها المشتّتة، وتعلّقها المرضيّ بأبيها، وانبهارها بالمسرح، على الرغم من الأساور والخلاخيل والخرز والحرير الهفهاف- كانت تأتي عليها أيام تشبه فيها قافلة كاملة تتموّج خلال السراب على كثبان متلألئة- فإنّي لأَعْلَمُ أنّها كانت الأقوى بيننا نحن الاثنين. لا أعني أنّها كانت أقسى؛ أنا قاسٍ، لكنّي لم أكن قطّ قويًّا؛ تلك نقطة قوّتي. لقد اعتنَتْ بي، وحمتني من العالم، ومن نفسي. تحت درعها الواقي استطعتُ التّظاهر بأنّي رخو كأيّ مخنّث في مسرحيّات عصر

(الاسترداد[50]) الكوميديّة التي شَهِدَتْ واحدًا من أكثر عروضها التجديديّة المتكرّرة شعبيّةً منتصفَ رحلتي مع التمثيل. لم يكن حتّى، في آخر الأمر، يعوزها المال، فلقد اختطف الموت أباها بغتةً ذات كريسمس سخيّ. أجل، كنّا زوجين، بطلي مسرحيّة مكتوبة لاثنين، فريقًا. والآن، ثملًا ومحمرَّ العينين، واقفًا في ملابسي الداخليّة عند نافذة غرفة نوم صباي، مطلًّا على صباح الميدان الخالي، في حيرة وكدر لا يمكن تفسيره، تساءلتُ متى بالضبط قد كانت اللحظة الكارثيّة التي سرحتُ فيها يا ترى فوقعتْ منّي سلطانيّة حياتي المذهّبة وتركتها تتهشّم.

*

حافيًا هبطتُ الدّرج هبوطًا راجفًا وذهبت إلى المطبخ وملْتُ بوهن على الطاولة بعينين متألمتين وضغطٍ رهيبٍ في رأسي. قارورة الويسكي، وقد سُفِحَتْ ثلاثة أرباع روحها، وقفَتْ وحيدةً على الطاولة وكتفاها في هيئة ما بدا توبيخًا حادًّا. الغرفة في ضياء الشمس كانت خيمة مضيئة مشدودة إلى أوتاد من ضوء ينعكس على زوايا كثيرة، فمِ القارورةِ ذاك، حافّةِ زجاجٍ ملطّخ، شفرةِ سكّين ساطعة سطوعًا لا يحتمل. ما الذي كنت قد قلته لكويرك؟ تذكّرت أنّي وصفت له الليلة حين أوقفني الحيوان على الطريق وعرفت أنّ عليّ أن أعود وأعيش هنا. قصصت عليه رؤياي إذ حلمت بكوني طفلًا في صباح عيد الفصح؛ وصفت له حتى الدجاجة البلاستيكيّة، وسألته هل كان يدري الفرق بين دجاجة ودجاجة[51]. هذا اللغز الأخير فكّر فيه مليًّا، دون

---

50 عصر إعادة الملكية الإنجليزية الذي بدأ سنة 1660 على يد تشارلز الثاني إثر عودته من منفاه في أوروبا بعد الحقبة التي شهدت حروب الممالك الثلاث (إنجلترا، إسكتلندا، إيرلندا) وخلو العرش من التاج (1649 – 1660).

51 "the difference between a chicken and a hen" ومعرفة ذلك هنا قد تتضمن التفريق

نتيجة. ثم سمعت نفسي أخبره عن تلك الآصال التي كنت أتسلّل خلالها كي أبكي بمفردي في دور العرض في الضواحي. حلّ الويسكي لساني فبُحْتُ تحت تأثيره بكلّ هذا الكلام، نسخة أخرى بصورة ما لعواصف الأسى الغامض ذاتها التي اعتدتّ خوضها هناك في الظلمة الرطبة، جاثمًا تحت الشاشات الضخمة اللامعة. والآن في ضياء الصباح الذي لا يرحم وقفت مائلًا إلى الطاولة وأغمضت عينيَّ بسرعة وأحسست بحرارتي ترتفع مع خزي عاجز أمام التفكير في ذلك الاعتراف المندفع.

شرع الهاتف يرنّ، فانتابني فزع شديد. لم أكن قد علمتُ بأنّه ما زال متّصلًا. بعد بحث مرتبك وجدتّه في الرّدهة، على الأرض خلف أريكة منزوعة الأحشاء. كان طرازًا قديمًا مصنوعًا من ال«بيكلايت[52]»؛ كان للسمّاعة الثقلُ العظميّ الذي لتحفة قبليّة، شُكّلتْ وصُقِلَتْ بالاستخدام الدمويّ والطويل. أخذتُ لحظةً حتى فطنتُ إلى صوت ليديا على الخطّ. سمعت ضحكتها الجافّة.

«أنسيتنا الآن؟» قالت.

«لم أدر أنّ الهاتف ما زال يعمل».

«حسنًا، إنّه يعمل». خفقة صمت يتنفّس. «وكيف حال الناسك؟»

«مخمور». انكشف لي المطبخ من مكاني؛ كان في واحد من ألواح النافذة الزجاجيّة هناك عيبٌ، وعندما حرّكت رأسي أدنى حركة بدا أنّ شجرة في الحديقة تموج، كما لو كانت منكسرةً تحت سطح الماء. «بتُّ أشرب مع كويرك»، قلتُ.

بين ذكر دجاج وأنثاه أو بين فرّوجة ودجاجة (أنثى) بالغة أو بين دجاجة بالغة وامرأة في خريف العمر، حسب ما تحيل إليه مفردة دجاجة في كلٍّ من chicken و hen.

52 Bakelite من أقدم أنواع البلاستيك وأوسعها انتشارا، يعود اكتشافه إلى العام 1909.

«مع ماذا؟»

«كويرك. ما يسمّى ناظرَنا».

«يا كُثْرَ ما اعتنى بالمنزل، ناظرُنا!».

«جلب قارورة ويسكي».

«لتدشين حياتك الجديدة، هل كسرها على رأسك؟»

استطعت أن أتصوّر المشهد، ضياء الصباح مثل غاز شاحب ثقيل وليديا واقفة في صالة المنزل المظلم القديم الكبير عند البحر الذي كان بعضَ نصيبها من تركة أبيها، والسمّاعة محشورة بين كتف وفكّ، حيلة لم أستطع إتقانها، تتحدّث إليها من الجانبين، كأنّها طفل تهدهده جنب وجهها. ثَمَّ رائحة البحر الأجاج، وصياح النوارس البعيد. كلّه بدا واضحًا غايةَ الوضوح ولكنّه بعيدٌ غايةَ البعد، ربما كان منظرًا من حياة على كوكب آخر، بعيد بشكل يتعذّر تخيُّلُه من هذا الكوكب، لكنّه يشبهه في كل تفصيل.

«اتصلّتْ كاس مجدّدًا»، قالت ليديا.

«إيه؟» قعدت ببطء على الأريكة، غصت فيها حتى لامس ذقني ركبتيّ، أحشاء الأريكة من شعر الخيل مندلقة من تحت وتدغدغ كاحليّ الحافيين.

«عندها مفاجأة لك».

تنفّسَتْ ضحكةً مختصرة.

«أوه؟»

«سوف تُدْهَش».

لا شكّ سوف أُدْهَش؛ مفاجأة من كاس تنطوي على احتمال مرعب. الشجرة وراء اللوح الزجاجيّ المعيب في المطبخ مَاجَتْ. أصدرَتْ ليديا صوتًا

بدا في مسمع رعبي نشيجًا، وحين تحدّثَتْ من جديد كان صوتها عتابًا أجشّ. «ينبغي لك في ظنّي أن تعود إلى البيت»، قالت. «ينبغي أن تكون هنا عندما تصل كاس». لم يكن لديّ ما أقوله ردًّا على ذلك. رحتُ أتذكّر يوم ولدت ابنتي. بزغتْ في العالم، سمكة صغيرة غاضبة وملطّخة، حاملة الأجيال معها. لم أكن مستعدًّا للأشباه الكثيرة التي حَمَلَتْها. كانت أمّي وأبي، وأمّ ليديا المتوفاة وأباها، وليديا نفسَها، وعددًا من الأسلاف الغامضين، كلّهم محتشدون معًا، كما في كوّة سفينة مهاجرة تغادر، في ذلك الوجه المصغّر وقد التوى معاناةً كي يتنفّس. لقد حضرتُ الولادة- إي نعم، كنت تقدّميًّا، ذهبتُ مع كلّ ما يقتضيه ذلك الأمر، كان أداء تمثيليًّا آخر، بالطبع، أمّا من الداخل فقد ارتعدتّ قبل المشهد اللعين. ومع قدوم الطفلة كنت شبهَ دائخ، ولم أدرِ إلى أين ألتفت. وضعوا الرضيعة بين ذراعيّ قبل حتى أن يغسلوها. ما أخفّ ما كانت، لكن يا له حِمْلًا! طبيب في حذاء مطاطيّ أخضر ملطّخ بالدم تحدّث إليّ سوى أنّي لم أستطع فهمه؛ طاقم التمريض كان سريعًا ونظيفًا. عندما رفعوا كاسْ بعيدا عنّي بدا لي أنّي سمعت رنّة حبل سريّ، بضعة منّي، تنقطع. أحضرناها إلى البيت في سلّة، مثل سلعة ثمينة لم نستطع مع فتح غلافها صبرًا. كان الشتاء، وكان في الهواء لسعة من الألب. أتذكّر ضياء الشمس الفاتر على موقف السيارة- ليديا ترفّ عيناها مثل سجين اقتيد خارجًا من زنزانة تحت الأرض- والنسيم العَطِر المنعش البارد يهبّ من التلال العالية خلف المستشفى، ولا شيء ليرى من الصغيرة غير بقعة زهريّة غامضة على غطاء من ساتان. عندما أوصلناها إلى البيت ما كان عندنا سرير مهد لها، فاضطررنا إلى وضعها في الدُّرج التحتيّ من خزانة طويلة في غرفة نومنا. لا أكاد أنام خوفَ أن أستيقظ في الليل

وأنسى أنّها هناك فأغلق الدرج بقوة. مثلثّات نور مائيّ من الأنوار الأماميّة لسيّارات عابرة ظلّت تنفتح على السقف فقط كي تنطوي بذكاء من جديد وتقع، مثل مراوح يدٍ كثيرةٍ، في الدُّرج حيث كانت نائمة. كان عندنا لقب لها، ماذا كان؟ قنفذ، أظنّ؛ أجل، ذاك كان لقبها، بسبب الخنخنات الصغيرة التي كانت تصدرها. أيّام مشرقة، بريئة كما تبدو، في ذاكرتي عنها، رغم أنّ السماء خلف الأفق قد تلبّدت بالغيوم.

«أتحدّث إلى نفسي هنا»، قالت ليديا، بزفرة مستاءة، صارمة.

سمحتُ لعينيّ بأن تنطبقا، حاسًّا بحافّتي الجفنين الملتهبين تلسعان لسعًا. صُدِّع رأسي.

«متى ستصل؟» قلت.

«أوه، لن تخبرنا، بالطبع- سيكون ذلك سهلًا للغاية». يكتسب صوتُ ليديا دائمًا نبرة ملجمة حينما تتحدّث عن ابنتنا الصعبة. «إنّها في الغالب ستطلع علينا ذات يوم من حيث لا نحتسب».

أعقب ذلك صمتٌ آخر، سمعتُ خلاله خشخشة تنفّسي في فم السمّاعة. فتحت عينيّ ونظرت إلى المطبخ مجدّدا. ما تبادر إليّ أوّلًا عن الصورة، الرؤيا، الهلوسة- لم أكن لأدري ما أسمّيها، لو فكّرت في تسميتها بأيّ شيء- التي لمحت منها لمحة هناك كان عاديَّتَها: شكل امرأة، طويلة، شابّة، تتحوّل عن الفرن، وتناول شيئًا بفظاظة، كذلك تراءى الأمر، إلى ما بدا أنّه طفل قاعد. ببطء وضعت السماعة على ذراع الأريكة. لا صوت على الإطلاق، إلا هسهسة خافتة، جدّ خافتة، لعلّها لم تكن أكثر من صوت ذاتي، دمي، لِمْفي، أعضائي الكادحة، تهمس همسها الخفيض في أذنيّ. لم يتح لي سوى تلك اللمحة- المرأة، إن كانت امرأة، تلتفت، الذراع تمتدّ، الطفل لا

يتحرّك، إن كان طفلًا- ثم انقضت. عصرتُ عينيّ الملتهبتين مغمضًا إيّاهما، محاولًا أن أحتفظ بالصورة. كانت كلّها مألوفة بشكل مؤلم، لا يمكن تفسيره.

مشيت بخطى ناعمة إلى المطبخ ووقفت وتلفّت. لا أحد. كلّ شيء كان على حاله قبل دقيقة، قبل رنين الهاتف، ما خلا إحساسًا بتعليق عامّ، كأنّ الأشياء قد حبسَت نفسها في وضع سكون، لا تجرؤ على أن تتنفّس. عدتّ إلى الردهة وقعدت من جديد على الأريكة، شبهَ منهار، وتنهّدت تنهُّدةً مرتجفة. ما زالت ليديا على الخطّ.

«ماذا؟» قالت بنزق. «ماذا قلت؟»

أحسستُ بالبرد يخترقني.

«قلت، المكان مسكون». كنت أضحك الآن، شهقات ضحك خفيفة، خارجة عن السيطرة، تبقبق من فمي.

صمت آخر.

«أنت شبحُ ذَاتِك»، قالت ليديا، بسرعة غاضبة، وسمعت ارتطام السمّاعة في حاملها لحظةً قبل أن ينقطع الاتصال، هي كذلك دفعةً واحدةً غَدَتْ شبحًا، متلاشيًا في الهواء والبعد.

ليست المرّة الأولى التي كنتُ قد رأيت فيها شبحًا في هذا المنزل. ذات يوم، وأنا صبيّ، في الملل الحالم أصيلَ صيف تسلّقت السلّم شديد الانحدار غير المضاء منجذبًا إلى العليّة، نزولًا عند من يدري أيّةِ رغبة. كانت الغرفة حارّة تحت السقف المنخفض والمائل. شخص ما، أمّي، أظنّ، في إحدى محاولاتها الدوريّة المحكومة بالفشل للادّخار، نثرَت الكرّاث الأندلسيّ على الأرضيّة الخشبيّة المكشوفة كي تحفظها لشتاء قد مضى عليه الآن زمن طويل، وكان الهواء متبلًا برائحة الكرّاث الجافّة العفنة الحلوة، محرّكًا فيّ تواشجًا من التذكّرات المبهمة. كانت هنا نافذة صغيرة مفردة، مستديرة، مثل كوّة، إلى جانبها كنت مستندًا، أحدّق تحديقة فارغة خلال الزجاج المغبرّ إلى اتّساع فضاء أزرق كثيف، وإذ بشيء، ليس صوتًا ولكنّه ضرب من التضييق في جوّ الغرفة، جعلني أدير رأسي. خلته واحدًا من النزلاء؛ أحيانًا أصادف في جَوَساني بعضَ أكثرهم غرابةً، يتسلّل، باحثًا عن شيء كي يتجسّس عليه أو يسرقَه، أظنّ. لكنّه لم يكن نزيلًا. لقد كان أبي الميت، واقفًا في المدخل المفتوح، حقيقيّ كأنّه هو في الحياة، لابسًا منامة مخطّطة، وحذاء دون أربطة، وسترة قمحيّة، الثياب نفسها التي كان قد ارتداها كلّ يوم في أشهر احتضاره الأخيرة الطويلة. أبقى نفسه منحنيًا في موقف حيرة، لا ينظر إليّ، من الواضح أنّه غير مدرك لوجودي، وقد حنى رأسه قليلًا، مُرهِفًا سمعَه، ربما، أو محاولًا أن يستذكر شيئا، أن يلتقط فكرة شاردة. بعد هنيهة بدا أنّه عزف عن الجهد، أيًّا كان، وهزّ كتفيه، تاركًا لإحداهما أن تنحني بتلك الطريقة التي قد كانت عليها، واستدار وغاص برأسه في المدخل إلى السلّم واختفى.

لم أخف. كنت سأخاف، أنا واثق، لو أنّه نظر مباشرة إليّ، أو أشار إشارة إلى أنّه على علم بوجودي هناك. الحال أنّي كنتُ متحيّرًا فقط، ومتطلّعا كذلك، بالطبع، إلى معرفة المزيد. لاحقًا، افترضت أنّي كنت في حال نوم، نوع من سرنمة، أو غَيْبة، على الرغم من أنّي لم أشعر لحظةً واحدةً بنفسي موشكًا على شيء من هذا القبيل. فكّرت في أن أحكي لأمّي ما قد رأيت، ونزلت حتى عبر المنزل بحثًا عنها، لكن عندما وجدتّها غلبني شعور بالخجل، وعرفت أنّ عليّ أن أحافظ على هذه الزيارة، أو الانتيابة، أو أيًّا ما كانت، من أن تتلوّث بمجرّد الحديث عنها. إذ اعتقدت أنّي قد امتلكت امتيازًا، امتيازَ أن أكون شاهدًا على بعض الشجون الجليلة ربما والحميمة، كيوم كنت في المدرسة مرّةً مارًّا بجوار قاعة خالية فوقعت عيني على مدرّس، شابّ أصهب- ما زلت أستطيع أن أراه، بوضوح شديد- واقف عند السبورة ورسالة في يديه، يبكي بكاء حارًّا، كتفاه ترتجفان، ولطخات سوداء على غفّارته[53] حيث انتثرت الدموع.

بعدما رأيت أبي أضحى كلّ شيء لبرهة من الزمان مغتسلًا بوهج ضعيف من غرابة، بألق من غير هذه الأرض. بدا العالم منحرفًا بعض الشيء عن الوضع الصحيح. الآن بعد كلّ هذي السنين، حين رأيت المرأة في المطبخ، فكّرت فورًا في أنّي قد استحضرتُ الروح الشبحيّة راجيًا أن يحمل حضورُها التأثيرَ نفسَه، أي أن يُتَوِّهني، وينفِّرني من محيطي ومن ذاتي. لأنّي قد عزمت، من لحظة ما غادرتني ليديا على عتبة المنزل وابتعدَت بالسيارة والدموع في عينيها، على ألّا أسمحَ لنفسي بأن تعتاد الحياة الجديدة التي دشّنتُها في أرض الحياة القديمة، وتملّكني الغضب أن صحوتُ مباشرة

53 الغفّارة: ثوب الكاهن.

على فشلي. أن أكون يقظًا ومنتبهًا إلى كل نأمة، محترزًا من الغرور، مقاومًا للتأقلم، تلك كانت غاياتي من القدوم إلى هنا. سأقبض عليّ، متلبّسًا بالجرم، في تمثيليّة العيش؛ وحيدًا، دون جمهور من أيّ نوع، سأتوقّف عن التمثيل وببساطة أكون. وماذا سيكون سجّل كينونتي إن لم يكن أشياء، كلّما كانت أتفه كانت أرحم؟ لكن ما لبثتُ أن وجدت نفسي مستقرًّا في هذه البيئة المألوفة وتاركًا لها أن تكون مألوفةً من جديد، وكلُّ ما خطّطت له أو عزمتُ عليه قد نُسِي. حتى النظرة الأولى إلى غرفة صباي لم تؤثّر فيّ تأثيرًا شديدًا؛ ما الذي يمهّد للحضور إن لم يكن الغياب؟- أعني حضور الذات بوصفها آخر مستعادًا- وربما أيضًا أنّي لم أبتعد قطّ، بعضي ظلّ هناك، ليُتَفَكَّرَ فيه، أو يُسْتوعَب. استيحاش، الناس في هذه النواحي يقولون استوحش الطفل إذا بكى من الظهور المفاجئ لزائر، كيف كنت لأستوحش الآن، ولا أتوقّفَ عن الاستيحاش؟ كيف كنت لأحارب سطوة الغُرْف القامعة؟ خلال شهر، خلال أسبوع، أخبرت نفسي، كان وهم الانتماء القديم سيعيد ترسيخ نفسه وهمًا عضالًا.

وإذا كان الغرض من ظهور هذا الشبح أن ينتزعني من موضعي ويفقدني اتّزاني، أَفَأَنَا فعلًا أتخيّله، أم هو ينبثق من مصدر خارجيّ ما؟ كلاهما، بطريقة أو بأخرى، كما يبدو، مع أنّي لا أفهم كيف لذلك أن يكون. تلك اللمحة عبر مدخل المطبخ كانت الأولى من مشاهدات كثيرة مماثلة، موجزة، رقيقة، نصف شفافة بصيغة برّاقة، مثل سلسلة صور فوتوغرافيّة كُبِّرتْ إلى حجمها الطبيعيّ وللحظة صدرت عنها حركة واهنة. يظلّ ما يحدث فيها مسترعيًا للنظر بكونه فقط لا يسترعي النظر، المرأة تمارس ما يبدو أنّها مهامّ معتادة- لا شيء محدّد في البعد الذي توجد فيه- أو تقف فقط، صامتة،

ضائعة في حلم يقظة. لا يمكن استقراء ملامحها كما يجب، أي أنّي أرى المشاهد بوضوحها الفوتوغرافيّ، لكنّ الشخصين أنفسهما في نهاية المطاف لا يُدرَكان، ملامحهما لم تُظَهَّر بصورة كاملة. كأنّهما كانا قد تحرّكا حركة بسيطة فيما الرّقاقة لم تزل معرّضةً للضوء. الطفل تحديدًا مهتزّ؛ لا أدري حتّى لماذا أدعوه طفلًا، غامض التكوين، عديم الشكل؛ إنّه الفكرة المجرّدة لطفل، ليس أكثر. شخصان يشارفان طور الوجود، هذي الظلال مخلوقة من ضياء، أم تراهما وُجِدا ذات مرّةٍ والآن هما في طور التلاشي. ومهما كان ما ينشغلان به، مهما كان الموقف الذي يتّخذانه، فإنّهما دائما يبدوان في وضع انتباه حَذِر. أكانا، أتساءل، من جانبهما، إلماحةً إلى وجودي؟ أأنا في نظرهما مثلما هما في نظري، سَنًا خاطفٌ لُمِح من زاوية العين، عبر مدخل، أو واقفًا لثانية على الدرج ثم متلاشيًا بآهة مكتومة؟ والأمر لا يتعلّق بهما فقط- أي أنّي أراهما، إن كانت أرى هي الكلمة، لكنّي أحسّ بالآخرين، أيضًا، عالم من الآخرين غير المرئيين، عبرهم تتحرّك هذه المرأة وطفلها عديم الشكل، وفي وسطهم يحظيان بحياتهما، إن كانت حياة هي الكلمة.

أنا لست خائفًا منهما، تمامًا مثلما لم أكن خائفًا حين ظهر لي أبي ذلك اليوم في العليّة. توجد استماتة بمعنى ما، جهد كئيب وكبير من جانبهم، ليكونوا مخيفين حقًّا. نهج معقّد، دقيق لكنه مبتذل، وحدة مجهولة، نظام مهجور ونوعًا ما تائه، يحاول أن يموضع نفسه هنا، أن يؤلّف نفسه ضمن الإطار غير الملائم للمنزل ومحتوياته. أنا مقتنع بأنّهم لا يبذلون هذا الجهدَ فقط تحت إكراهٍ لا مناص منه- هذه الكائنات تكابد بطريقة أو بأخرى من أجل أن تكون- لكن ذلك من مصلحتي أيضًا. أعتقد أنّ هذه الظواهر ينصبّ تركيزها بصورة ما عليّ وعلى حالي، متشابكة تشابكًا معقّدًا

هي ومشكلة أيّما خطبٍ حلّ بي. توجد بواعث أسى في مفهوم هذا العالم المسكين نصفِ المُطَهَّر وهو يكابد بعماء، متحيّرًا، متألّمًا ربما، كي تكتمل فيه الحياة، لعلّي أن... ماذا؟ أحظى بشيء مبرهَن أمام عينيّ؟ أكون شاهدًا؟ أكون مأمورًا؟ أم ترى الأمر، أسأل نفسي، تراه لا يعدو أن يكون شيئًا يحاول أن يعيش من خلالي، أن يجد فيّ شكلًا للكينونة؟ إذ على الرغم من حديثي عنهم ظاهرين خارجي، مشهدًا متحرِّكًا، مثل شخوص على مسرح، فأنا في الحقيقة- في الحقيقة!- وسْطهم، أنا منهم، وهم منّي، معارفي.

معارفي، أجل- دونك ما هو أغرب، أنّي لم أجد أيًّا منه غريبًا على الإطلاق. كلّ شيء هنا شفقٌ ونصفُ حلم، بيد أنّ ظهور هؤلاء الأشباح تَملّقيٌّ على نحو مزعج، كما لو كنت يجب أن أعرفهم، أو سوف أعرفهم. فيهم شيء من تلك الأشباه الموروثة التي ستنبثق انبثاقةً مقلقةً من المهد أو من فراش الموت. يحومون بجنون على طرف عقلي كما تحوم كلمة مبتغاة على طرف اللسان. تحيط بهم تلك الأهميّة الغامضة التي ستحيط بأناس قابلوا الصباح بعد حلم متعب رأوا فيه أنّهم باتوا شخصيّات مهمة. وبالفعل، الأطياف نفسها تحمل تأثيرًا مشابهًا، مُعِيْرةً إلى هذا الجزء أو ذاك من لوازم حياتي الجديدة المتواضعة أهميّةً طيفيّةً عابرة. حين أتحدّث عن كونهم عند الطاولة، أو الفرن، أو واقفين على الدّرج، فلست أعني الدّرج الواقعيّ أو الفرن أو الطاولة. إنّ لهم أثاثَهم الخاصّ، في عالمهم الخاصّ. يبدو مثل الجمادات التي أتحرّك وسطها، لكنه ليس نفسها، أو أنّه الأشياءُ نفسُها في مرحلة أخرى من الوجود. قائمتا الأشياء كلتاهما، الخياليّة والواقعية، تقدحان معًا رنّة، دقّة. إذا كان في المشهد الشبحيّ كرسيٌّ، مثلًا، تقعد عليه المرأة، ويحتلّ المكان نفسه الذي يحتلّه كرسيٌّ حقيقيٌّ في المطبخ الحقيقيّ، والأول

مركّب على الآخر، مهما كانا غير متناسبين، فالنتيجة عندما يختفي المشهد هي أنّ الكرسيّ الحقيقيّ سيحتفظ بنوعٍ من هالةٍ، سيحمرُّ، تقريبًا، في فجأةِ كونِه مُصْطَفًى، بهذه الطريقة، منصبًّا عليه التركيز، ومسلَّطًا عليه الضوء. سريعًا يمّحي الأثر، رغم ذلك، ثم يرجع الكرسيّ، الكرسي الحقيقيّ، كما كان، خارج الأضواء الساطعة، ويأخذ مكانه المعتاد في المجهوليّة الخافتة. وأتوقّف أنا عن ملاحظته، قد أحاول، ربما، أن أستمرَّ في تقديم واجب الاحترام إلى هذا الشيء العاديّ الذي حظي بلحظته المقدّسة.

خلصت إلى الارتياب حتى بأكثر الأشياء جمودًا، خشيةَ إن لم تكن تمثيلات نفسها فحسب أن تومض لحظةً وتخبو. لقد اتّخذ الواقع صيغة مهتزّة، متوتّرة. كلّ شيء مهيَّأٌ للذوبان. لكن لم يحدث قطّ في حياتي، على ما يبدو، أن كنت بهذا القرب من أشياء العالم، حتى والعالم نفسه يأتلق ويشفّ على مرأى مني. توجد أحلام يعيش المرء فيها أوضحَ ممّا يعيش في الحياة. لديّ لحظاتي من الشكّ النافد الصبر حين، في منامي القلق، سيظهر أنّي أجاهد للخروج من هذا العالم المتخيّل إلى حيرة الصحو المتصبّبة عرقًا. لكنّ صورةً آنئذ من تلك الصور نصف الشفّافة ستومض على أطراف رؤياي وسأدرك أنّي لست مستيقظًا، أو أنّي مستيقظٌ وكلّ هذا الذي قد بدا حلمًا ليس حلمًا على الإطلاق. الخطّ الفاصل بين الوهم وأيًّا ما كان ضدّه رَقَّ في نظري حتى تلاشى. أنا لا نائمٌ ولا صاحٍ، إنّما في حال وسط نشوى بين النوم والصحو؛ مثل أن تكون نصف مخمور طيلةَ الوقت، انتشاءٌ متعالٍ.

مقترح العائلة الذي يقترحه الأشباح يجعلني أتساءل هل كانوا ربما شكلَ حياة مرفوضة وقد عادت للمطالبة بي. هأنذا، رغم ذلك، أعيش في منزل الأموات. إنه لإحساس غريب أن أكون مرّة أخرى في المحيط الذي نشأت

فيه. لم أشعر قطّ هنا شعورًا كاملًا بأنّي في البيت. إذا كان النزلاء قد عاشوا حيوات غير حقيقية، فلقد عشناها كذلك، السكّانَ الدائمين، كما نُسمَّى. لا ريب، هذا سببُ أنّ الأطياف لا تخيفني، أنّ المكان كان دائمًا مسكونًا. قضيت طفولتي وسط حضور غريب، بين شخوص شبحيّة. يا للوداعة التي كانوا عليها، أعني نزلاءنا، يا لمحوهم ذواتهم، يغمغمون ذواتهم إلى نوع من الهمس في المنزل. أقابلهم على الدرج، ينثنون جانبًا عند محاذاتي ويبتسمون ابتساماتهم الثابتة، ابتسامات لطفٍ متألّم. يقعدون في ما يدعى حجرة الطعام منحنين على أطباقهم من شرائح لحم الخنزير، أو اللحم والبطاطا المهروسة في الوِضْعَة المطأطئة اليقظة التي لأطفال معاقبين. لقد أسمع في الليل حضورهم حولي، تراشق، تنقّل، تنهّد متململ خفيض. والآن هأنذا، أنا نفسي نزيل، لست حقيقيًّا أكثر من الأشباح الذين يظهرون لي وسط الظلال الواهية.

ما الذي في الماضي يجعل الحاضر بالمقارنة يبدو شاحبًا وعديم الوزن؟ أبي، على سبيل المثال، ينبض بالحياة الآن في نظري أكثر ممّا كان وهو حيٌّ يُرزَق. حتى أمّي لم تمنحني اهتمامَها الكامل إلى أن غدَتْ بالسلامة ذكرى. أراهما نوعًا من ثنائيّ قديم، بوسيس وفيلمون[54]، مرتبطين معًا هنا، يقضيان حوائج الآخرين، كلاهما يتحوّل ببطء بمرور الأيام إلى حجر رماديّ، كلُّ يوم جديد لا يمكن تمييزه عن الذي مضى قبله، حبّات بطيئة تتراكم، وتصير السنين. فهمتُ الأمر طفلًا أنّهما حين حان الوقت كي أغادر تراجعا مفسحين لي الطريق، تمثالان متواضعان منتصبان على المدخل إلى مستقبلي،

---

54 زوجان مسنّان فقيران في الميثولوجيا اليونانيّة أحسنا ضيافة الإلهين زيوس وهرمس (جوبيتر وميركوري، عند الرومان) حين طردهما الناس وقد تنكّرا في زي عابري سبيل عبر فيرجيا يبتغيان زادًا. لمّا دمّر الطوفان البلدة نُجّي الزوجان من الغرق وجُعِل كوخهما الصغير معبدًا وجُعِلا كاهنيه وحُقِّق لهما سُؤْلُهما بأن يعيشا معا ويموتا حين يموتان معًا في اللحظة نفسها.

يراقبان بأناة، في حيرة مستسلمة، إذ مشيتُ مبتعدًا عنهما وبالكاد ألقيت عليهما نظرة خاطفة، كلّ فرسخ قطعته كان يجعلني لا أصغرَ حجمًا بل أعظمَ فأعظم، ابنهما العصيّ على الفهم، المفرط في النمو. عندما ماتا لم آسَ عليهما. ولذا أسأل نفسي، أهذه الانتياباتُ الآن انتقامُهما، يفرضان عليّ جزءًا من حياة ضائعة لم أشهدها شهودًا لائقًا حين سنحَت لي الفرصة؟ أيطالبان بواجب الحِدَاد الذي لم أعلنه على روحيهما؟ لأنّ إحساسًا بالأسى هنا، وبالندم؛ بوعود مُخْلَفَة، بوعد لم يُنْجَز.

*

في تلك الأيّام الأولى وحيدًا هنا لم أبصر أحدًا، أو أحدًا بشحمه ولحمه، على الأقل. بعد المكالمة من ليديا لم أجب على الهاتف، وصرت أخاف استدعاءاته القاسية المفاجئة ففصلته نهائيًّا. ويا لَه صمتًا بعدئذ! تركت نفسي تغوص فيه كأنّه شيء دافئ ساكن يمدّ بأسباب الحياة. لكنّي لم أنعم به، نعم، لم أفعل. في البداية كنت كلّي طاقة، أنهض وأنشط كلّ يوم مع انبلاج الفجر. تصدّيت للحديقة المغطّاة بالنباتات البريّة فشذّبتها، ممزّقًا ملء أذرع من النجيل الزاحف ومقطّعًا العلّيق حتى نزفت يداي وتحدّر العرق إلى عينيّ. ورد أمّي لم يزل هنا، كلّ شجيراته صارت بريّة. جرفَت المسحاةُ بطاطسَ قديمة، جثثًا مجوّفة انفجرت تحت كعبي بنعومةِ غطسةِ حجرٍ في الماء وأفرزَت سائلا مُبْيَضًّا. العناكب هرولت، واليرقانات الدوديّة تلوّت. كنت سعيدًا. شعرت وأنا أكدح هناك في حرّ منتصف الصيف بنشوة مجنونة. وجدت نفسي أبربر نُتَفًا من كلام صاخب، أو أغنّي، أو أضحك، أو أحيانًا أنوح حتى، لا من حزن بل من شبه بهجة مريعة. لم أهدف إلى خلق إطلالة، لم أسعَ إلى زراعة أيّ شيء؛ كنت أعمل للعمل فحسب، وعمّا قريب

تخلّيتُ عنه، وتركت الورد البريّ وأكوام العشب المقتلع تَرْمَض وتتعفّن في الشمس إلى أن نما فوقها نبات جديد.

الآن، وقد تخلّيت عن جهودي غير المثمرة، شعرت بكلال راسخ يستوي عليّ مثل شبكة. في المساء، متهاويًا على الأريكة دائخًا، كنت أعيد النظر إلى اليوم الخالي من الأحداث وأتساءل ما الذي عساه قد مرّ وأنهكني إلى هذا الحدّ. أنا هادئ، إن كان هادئٌ وصفًا مناسبًا؛ مخدَّرٌ، ربما، أنسب منه. لياليَّ طوالٌ، اثنتا عشرة، أربع عشرة ساعة من نعاس مضطرب وحلم أصحو منه مهدودًا، مطروحًا على ساحل الصباح مثل ناجٍ من حطام سفينة. خِلْتُ أنّي بالقدوم إلى هنا سأعثر على رؤية أفحص بها الأشياء، على زاوية نظر أستعرض من خلالها حياتي، لكنّي إذ ألتفت الآن ناظرًا إلى ما خلّفته ورائي أَعْجَبُ عَجَبًا مُقْعِدًا: كيف كدّست هذا القدر من ركام الحياة، دون جهد كما يبدو، أو وعي كامل حتّى؟ - قدرًا كبيرًا لا أستطيع تحت ثقله أن أشرع في تحديد مكان تلك الذات الجوهريّة الفريدة، التي أتيت إلى هنا كي أجدها، التي لا بدّ أنّها مختبئة، في مكان ما، تحت خليط الأقنعة الملقاة. إنّه إحساس مدوّخ، مثل أن تفلت كلمةٌ أو غايةٌ من قبضة العقل لحظةً وتنجرف إلى فضاء وحدانيّتها المطلقة. كلّ شيءٍ غريبٌ الآن. الظواهر الأكثر إملالًا تملؤني بدهشة بطيئة. أشعر بأنّي حديث الولادة وطاعن في السنّ. بينما لديّ وَلَعُ خَرِفٍ بكرسيّي، بكأس خمرتي، بسريريَ الدافئ، ما أنا في تلمّسي الأشياءَ التي تواصل الإفلات من قبضتي تلمّسًا أخرقَ إلّا عاجزٌ كطفل رضيع. لقد اسِتعبَدَتني ذاتي. أتعجّب من إفرازات جسدي، البراز، قشور المخاط، الدبيب الدقيق للأظفار والشعر. دبيب محبّب يحفزني لتوديع الحلاقة. أحبّ الإحساس الواخز لوجهي والرائحة الكبريتيّة للشعيرات الشوكيّة وصوت ورقِ الصنفرة

الخشن حين أمرّر يدا على طول خط فكّي. بعد محاولة البستنة قصيرة الأجل أنتنت راحة يدي حيث كانت شوكة من شجيرة ورد قد استقرّت، وأضحيت أقف بلا حراك مستغرق الذهن عند النافذة ويدي مرفوعة في ضوء النهار، أفحص التورّم بسطحه الأرجوانيّ المحدّب اللامع، مشدودًا ونصف شفاف كجناح حشرة؛ في الليل، عندما استيقظت في الظلمة، بدت اليد شيئًا حيًّا ومنفصلًا ينبض إلى جانبي. كاد ألمها الساخن الطفيف يكون شهوانيًّا. ثم ذات صباح إذ كنت أسحب نفسي من السرير تعثّرت وأوقعت يدي على شيء حادّ، فطبّل وشمُ ألمٍ على امتداد ذراعي وانفقأ الورم وانبثقت الشوكة في بقعةٍ من صديد. غصت عائدًا في السرير متشبّثا بمعصمي أئنّ أنينًا، لم أدرِ لذةً كان أم ألمًا.

هنالك متعٌ أوضحُ ملامحَ إن لم تكن أقلَّ إحراجًا. وجدتّ ذخيرة من صور خليعة مرميّة فوق دولاب في إحدى الغرف، تركها وراءه دون شكّ أحدُ الباعة المتجوّلين الذين مضى على رحيلهم زمن طويل. مجون عتيق، صور فوتوغرافية ملوّنة باليد للوحات من القرن الماضي، بحجم بطاقات بريديّة لكنّها غنيّة بالتفاصيل، كلّها قشديّة اللون وقرمزيّة وورديّة. معظمها مشاهد مشرقيّة: مجموعة من زوجات حريم ممتلئات الصدور في حمّام تركيّ يلمس بعضهنّ بعضا، زنجيّ معمّم يواقع من الخلف فتاةً على ركبتيها، عريانة لَعوب على أريكة تمتّعها جاريتُها السوداء. أحتفظ بها تحت مرتبة سريري، حيث أُخرجها في اهتياج الخطيئة وألمّ وسائدي وأغوص بآهة مبحوحة في معانقاتي المفعمة. بعدها، كالعادة فراغ حزين وصغير في داخلي، يبدو مطابقا في الحجم لما تخلّصت منه، كأنّ الشهوة التي أفرغتها خلقت مساحة لا يدري جسدي كيف يملؤها بالضبط. لكن ليس الأمر كلّه خيبةَ أمل. فلقد تمرّ

أوقات، نادرة وثمينة، إذ أحسّ، وقد حملت نفسي على الركضة اللاهثة الأخيرة، والصور متناثرة بين يديّ وعيناي جاحظتان، بلحظة نشوة موحشة لا علاقة لها بما يحدث في حجري لكنّها تبدو خلاصة كلّ الرقّة والقسوة الذي قد تعد به الحياة. ذاك اليوم، في لحظة من لحظات الهناءة الزاخرة تلك، إذ استلقيت لاهثًا وذقني على صدري، بلغني الصوت المنهك لجوقة أطفال في الدّير على الجهة المقابة من الطريق خافتًا خلال سكون الظهيرة، ولربما كان صوتَ ملائكة الساروفيم تغنّي.

يشهد المنزل عليّ، يحصي حركاتي، كأنّما قد أوكلت إليه مراقبتي فلن يدع لثانية واحدة أن تندّ عنه. خشب الأرضيّة يصرّ إذا خطوت عليه، مفاصل الباب تصيح خلفي صيحة صغيرة إذا دخلت غرفة؛ وإذا ما كنت قاعدًا بزاوية محدّدة عند الموقد في غرفة الجلوس ثم أحدثت صوتًا- عطست، أو صفقت بدفّتي كتاب- فإنّ المنزل كلّه مثل بيانو ضُرِب أحد مفاتيحه سيردّد صدى صوتي نغمًا وتريًّا مهتزًّا، خفيضًا، وسوداويًّا. أشعر أحيانًا بأنّ الهواء نفسه يتجمّع في الغرف كي يتبادل الحديث عنّي وعن أعمالي. فأقفز حينها وأخطو مسرعًا هنا وهناك، فاركًا يديّ بعصبيّة ومغمغمًا بيني وبين نفسي، ممتنعًا عن أن أقف بلا حراك، محملقًا إلى شيء ما، أو زاوية أو مدخل مفتوح، متحدّيًا- راجيًا- بعبعًا أن يظهر لي؛ لولا أنّ الأشباح لن يظهروا أبدًا عند رغبتي أو طوعَ أمري، فأنطلق من فوري من جديد ورأسي في المقدّمة، أخطو مسرعا وألتفت، أخطو مسرعا وألتفت. في الغالب، مع ذلك، أنا في سلام، ولا أبتغي أحدًا. عندما أكون في الحديقة، ويمرّ شخص على الطريق، مزارع على جرّارته أو ساعي البريد على درّاجته، فسرعان ما أنتحي جانبًا،

مُحدِّبًا كتفًا، كازيمودو[55] المسكين، متواريًا خلف حدبة مشاكلي العويصة.

إضافةً إلى الظواهر الشبحيّة تحضر ظواهر أخرى تبدو مجسَّمَة بصورة يصعب معها ألّا تكونَ حقيقيّة، إن صحّ لي بعدُ أن أعرف ما تعنيه كلمة حقيقيّ. أسمع وقع خطى ناعمة على الدرج، وما يشبه همسات بعيدة في أعماق المنزل؛ ومن حين لآخر أحسّ بأنّ توقُّفًا وسكونًا يعمّان المكان، مثل أن يتوقّف شخص على طريق ريفيّة في الليل فتتوقّف الخطوات المتخيّلة وراء ظهره على الفور. يقينًا تلك ليست أصوات روح. شبح المرأة يظهر لي دائما في صمت أعمق من الصمت، صمت هو همهمة لا تُسمَع. لا، هذه أصوات كأصوات الأحياء. أَدَخيلٌ، آخرُ، في المنزل، أم هو الدخيل نفسه الذي من قبل، عودة حارق الكتب، وحش عنيف قد ينتصب خلفي في لحظة سهو ويضع يديه الرهيبتين على عنقي أو يثب من الظلام ويفضخ رأسي بهراوة؟ بات من عادتي أن أُبقي مسعرًا[56] عند السرير دفاعًا عن النفس. لكن ماذا لو أنّ الهمجيّ جثم عليّ وأنا نائم؟ يتملّكني شعور بكوني تحت نظر عينين حيّتين. مساء البارحة لمّا كنت أغسل أطباقي في مجلى المطبخ أدرت رأسي بسرعة واقتنصت لمحة من شيء في المدخل، لا حضورًا بل غيابًا كثيفًا. أنا مقتنع بأنّ أحدًا ما، قبل ثانية، أكبر من شبح، كان واقفًا حيث يرتعش الآن الهواء الشاغر، يشاهدني.

لا، لن يأتي الأشباح حين آمرهم، وذاك يحيّرني. إذ يبدو أنّي أملك بعض السيطرة عليهم، كأيّ أحد يملك سيطرة، مهما كانت ضعيفة أو مشروطة، على تقلّبات الأحداث الصاخبة في حلم. إنّهم يعتمدون عليّ في استقلاليّتهم، مهما بدا ذلك متناقضًا. يتوقون إليّ، بوصفي من الأحياء، يهفون إلى النور

55 الأحدب بطل رواية هوغو الشهيرة: نوتردام باريس.

56 قضيب معدني لإذكاء النار.

الحيّ فيّ، مثل نباتات خفيّة تتغذّى بخفاء على إشراقة السماء. وهذا ما يُشجي نوعهم. يبدو أنّي محرّك أفعالهم، مصدر تغذية وجودهم الضعيف. سلوك المرأة، إن كان يمكن الحديث عن امتلاك كائن سريع الزوال مثلها لسلوك، مبنيّ على الحدس والتوقّع الغامض؛ إنّها متردّدة، مرتبكة، متشكّكة. أوه، أنا لست مخدوعًا إلى حدّ أن يغيب عنّي أنّ هذه الصور منتجُ خَيَالِي- لكنّها منتج؛ ليست في عقلي، هي في الخارج، أراها، واضحة كأيّ شيء لا أستطيع لمسَه، السماء، السحاب، تلك التلال الزرقاء البعيدة. في الليل تقتحم أحلامي، ظلال شاحبة تُحْدِث جلبة مكتومة لتسترعي انتباهي. في أوقات من النهار تلعلع حولي مثل نار مستعرة. وإذ أخطو خلال هذه الصورة أو تلك من تصاويرها أحسّ بخشخشة طاقة منخفضة، خائرة، كأنّي قد قطعت الروابط الضعيفة في مجال قوّة. شيء متوقع منّي هنا، شيء يراد منّي فعله. هم ليسوا حتى أشباحًا بمعنى الكلمة، ملتزمين بكونهم مخيفين أو بإرسال نذر مروّعة. زعقات في العتمة، أنّات وسلاسل تصلصل، تأثيرات كهذه، مهما تكن مستهلكة أو تافهة، قد تنجح على الأقلّ في إخافتي. لكن من أنا لأفهم هذا الثلاثيّ الشبحيّ الذي أقف أمام أفعاله العاديّة حائرًا وأشهدها غيرَ راغب؟

ثلاثيّ؟ لماذا أقول ثلاثيّ؟ فليس سوى المرأة والطفل الأخفى ملامحَ حتى- مَن ثالثهما؟ مَن، إن لم يكن إيّاي؟ ربما ليديا على حقّ، ربما قد صرتُ أخيرًا شبحَ ذاتي.

*

تتزاحم عليّ الذكريات، بشكل لا يقاوَم، مهدّدة بأن تجتاح أفكاري، وقد أكون طفلًا من جديد، وهذا الحاضر القاحل ليس أكثر من لمحة مسبقة قلقة عن المستقبل. لا أجرؤ على الصعود إلى العليّة خشيةَ ربما أن أرى

أبي من جديد، ما زال يتسكّع هناك. ولو أنّه لا يظهر كثيرًا في ألبوم الصور الرثّ المحسوب عليّ ماضيًا- مات شابًّا، أو بعضَ شابٍّ، بالمحصّلة- من اللقطات المبكّرة المحفورة في ذاكرتي لقطةٌ حُمِلتُ فيها ذاتَ ليلةٍ للقائه في محطّة القطار. لا أدري من أين كان عائدًا، فلم يكن كثير الترحال، أبي. نزل سريعًا من القطار ورفعني عاليًا على كتفه وضحك. لم يزد سنّي على، ماذا، أربع أو خمس سنوات؟ لكنّي كنت مصدومًا بمرح اللحظة غير المعهود. حتى أمّي كانت تضحك. أتذكّر اللقطة مثل صفحة من قصّة أطفال، أنوار المحطة في الظلمة الضبابيّة متوهّجة كرؤوس هندباء برية مكسوّة بالفرو، والقاطرة البخاريّة السوداء البادية في الأفق تلهث حيث وقفَت، والرائحة العرقسوسيّة للدخان والرماد. كان الزمان عيد فصح. وقد أحضر أبي لي هدية. ماذا كانت؟ طائر، شيء بلاستيكي، أصفر. قدنا الدرّاجة إلى البيت، يحملني أبي على القضيب الممتدّ أمام المقعد داخل معطفه المزرّر وأمّي، وحقيبته الكرتونيّة مربوطة إلى الحامل خلفها. أحاط بنا الليل باردًا ورطبًا وساترًا. في المنزل قعد أبي جنب الفرن في المطبخ يدخّن سيجارة ويتحدّث إلى أمي. أحببت مشاهدة أبي يدخّن. كان يمارس التدخين ببراعة لامبالية، كما لو كان تمرينًا صعبًا في خفّة اليد قد أتقنه من زمن بعيد، ناقرًا ومدوِّرًا العصا البيضاء المصغّرة ومدحرجًا إيّاها على براجم يديه برشاقة ساحر. وحين قرّبها إلى شفتيه أمال رأسه جانبًا وأغمض عينًا واحدة، كأنّما كان يصوّب ماسورة بندقيّة متناهية الصغر. كان للدخان الذي نفثه- أزرقَ داخلًا، رماديًّا حين خرج- نكهةٌ مميّزة هو من منحها له، شيء قطرانيّ وبائت، الرائحة النقيّة لدواخله؛ يروقني أنّي أستطيع أن ألتقط أثرًا من تلك الرائحة لم يزل عالقًا في زاويا المنزل المختلفة.

لكن هل أتذكّر عن يقين تلك الليلة؟ هل أتذكّر أيّ شيء عن يقين؟ ربما أنّي أنمّق، أختلق، ربما أنّي أخلط كلّ شيء. ربما كانت ليلة أخرى تمامًا تلك التي أحضرني فيها أبي إلى البيت على درّاجته، تحت معطفه. وكيف لدرّاجته أصلًا أن تكون هناك، في المحطّة، إن كان قد وصل بواسطة القطار؟ تلك هي الخيوط الكاشفة التي تَنشب فيها أظفار الذاكرة.

ها أنا، رجل ناضج في منزل مسكون، مهووس بالماضي.

صيفًا مات أبي. كانت أمّي قد نقلته إلى أعلى المنزل، إلى غرفة في الجهة الأخرى من غرفتي عبر بسطة الدرج، حيث سيكون بعيدًا عن أنظار النزلاء. ألقاه، وهو يترك صينيّة الشاي خارج بابه، أو يجرجر شبشبه أسفل الردهة إلى الحمّام. فأتحاشى نظرتَه، رواقيَّتَها المعذَّبَة، مثل نظرة يسوع المخلّص عارضًا قلبه المثقوب في الصورة الزهرية-النيونيّة والفضيّة المعلّقة إلى جانب المشجب في الردهة. أراه، شاحبًا، ضائعًا في ملابسه، ودائمًا، مثلما أنا الآن، بذقن ثلاثة أيام دون حلاقة، يتحرّك صامتًا كطيف خلال غرفٍ أضناها سكون الصيف، رسمٌ محنيّ الظهر يرفّ من الضياء إلى الظل، ويخبو دون وقع خطى، دون أثر يدلّ على مروره سوى نوع من وميض، طيّة في الهواء، وعلامة استفهام ملتفة من دخان سيجارة.

يوم مماته لا ينسى كذلك إذ يوافق اليوم الذي لطمتني فيه أمّي. عندما تحوّلَتْ عن جهة الفرن وظننتُ أنّها تمدّ يدها بسرعة كي تناولني شيئًا. ما زلت أحسّ بلطمة يدها السريعة الحارّة الشديدة على فكّي، بالرجّة التي أحدثتها. لم تمدّ يدها عليّ قطّ. وحين لطمتني لم تفعلها كذلك مثل والد يضرب ابنه، بل مثل شخص بالغ يفرغ غضبه فجأةً على آخر. لا أتذكّر ماذا كنت قد قلت أو فعلت فاستفزّها. كان منظرها بعد ذلك مباشرة منظرَ المنتصر. رفعَتْ رأسَها

ووسّعَت منخريها مثل زوجة الأب الشرّيرة في «سنو وايت»، ولاح لي من عينيها شيء، خاطف ولامع وحادّ، مثل شفرة أُشْهِرَتْ ثمّ أُغمِدَتْ على الفور. ثم دون أن تنبس بكلمة عادت إلى أيّما شأن كانت منشغلة به عند الفرن. لم أبكِ، كنت أشدّ دهشةً من أن أبكي، لكنّي قعدت فقط وبسطت يدًا أمامي على الطاولة، أحسّ بالتّمَل على طول فكّي حيث صكّت وجهي بيدها، كأنّ قطرات صغيرة من شيء حارّ كانت تتساقط على جلدي. القماش الزيتي الذي يغطّي الطاولة كان باردًا بصورة رائعة وناعمًا ورطبًا تحت يدي، يكاد يكون شيئًا حيًّا، مثل جلد تقريبا. ثم هبط أبي، متشبّثا ببطانيّة يشدّها حول رقبته المنهكة، سيّئة الحلاقة. كانت ظلال في تجاويف وجهه وبقع حمراء محمومة على عظام وجنتيه كأنّها رُسِمَتْ رسمًا. تعابير أمّي كانت فارغة، كأنّ شيئا لم يحدث، لكنّ أبي غضّن أنفه، مختبرًا ضغطَ غضبِها على الهواء، وأعطاني نظرة شزراء غريبة، مبتسمًا نصفَ ابتسامةٍ، خبيثةٍ تقريبا. لاحقًا تلك الليلة استيقظت على أصوات مخنوقة خارج غرفتي. عندما ذهبت إلى الباب ونظرت خارجًا رأيت أمّي في قميص نومها تعبر البسطة وإناء أزرق بين يديها، وسمعت خلال باب غرفة أبي المفتوح صفيرًا عاليًا كان صوتَه وهو يعاني من أجل نَفَس، فأغلقت بابي بسرعة وعدتّ إلى السرير، وحين استيقظت من جديد كان الصباح، وعرفت أن أبي قد فارق الحياة.

أمطرت السماء في الجنازة بعضَ الوقت، كأنّما أمطرت من أجلنا. سحابة مستديرة صغيرة برزت في سماءٍ، خلافَ ذلك، فارغةٍ فوق المقبرة، وسمحَتْ لرذاذ ناعم ودافئ ورقيق أن يهمي على دائرة المعزّين. شاهدت كلّ المراسم بانتباه عَبوس، عازمًا على ألّا يفوتني شيء. ظلّت أمي تلتفت بنظرة قلقة وغامضة إلى جهة بوّابة المقبرة، كأنّ شيئا أكثر إلحاحًا بمراحل في مكان

آخر كان يطلب أن توليّه اهتمامَها. في وقت لاحق نهارَ ذلك اليوم، حين تفرّق المعزّون، أتيتها وهي قاعدة على الأريكة في الصالون، تنوح، ووجهها في يديها، ومشيت شاعرًا بالنضج وبهيبة المسؤوليّة بهدوء ووقفت خلفها مباشرة ووضعت يدًا بلطف على كتفها. ما زلت أستطيع الإحساس بالملمس الأملس الناعم البارد لفستانها الأسود الجديد. نترَتْ نفسَها بعيدًا عنّي، وهي تموء كقطّة وتفرك خدّيها، وانتابني شعور بانتصار صغير، مبهج ومخجل بعض الشيء.

لِمَ ليست هي التي تظهر لي؟ فسنواتها الأخيرة كانت مسكونة. كنت أسمعها في الليل، تذرع الأرضيّة جوار سريرها، بلا نهاية تذرعها. ازداد ذهنها تشوّشًا، وباتت تحسبني أبي، وتثور في نوبات غضب لا مثير لها. ثم ذات صباح وجدتّها مضطجعةً على أرضيّة حمّام الطابق السفليّ وسروالها التحتيّ الفضفاض حول ركبتيها. كان على وجهها ازرقاق وعلى شفتيها زبد. ظننتها قد ماتت. شعرت بأنّي غريب، بارد وهادئ وبعيد عن نفسي. نظّفت المرحاض، مشيحًا بوجهي، حريصًا على ألّا أنظر إليه، ثم جثوت ورفعتها عن الأرض وضممتها إليّ. كانت دافئة ومترهّلة ومرتعشة، وكنت مصدومًا إذ وجدتني أفكّر في ليديا وهي في هزّة الجماع. رفّ جفناها لكنهما لم ينفتحا، وزفَرتْ زفرةَ ضنًى شديد، وخرجت من فمها فقاعة متلألئة وانتفخت، وانتفخت، وانفقعت.

رقدَت لأسابيع لا تتحرّك على سرير معدنيّ في غرفة مشرقة في زاوية جناحِ المستشفى المطلّة على طريق رماديّة وصفّ من أشجار الكرز. صحبتُها خلال ساعات طويلة من الأحلام الأَرِقة؛ كان المكان مريحًا نوعًا ما. ألقى شعاع الشمس على السرير أشكالًا معقّدة راحت تتقدّم ببطء على الفِراش

وعلى الأرض كأشياء تلوذ بفرار سريّ مرسومٍ بالتفصيل. تناهت إليّ أصوات المستشفى، مكتومة بصورة مهدِّئة، يدا أمّي ارتاحتا على الملاءة، ساكنتين، شاحبتين كورقتين، كبيرتين بصورة مستحيلة. بدت كتمثال لها أكبر حجمًا ممّا هي عليه. لقد وقع خطأ ما، لعلّ بعضَ جرم سماوي انحرف عن مساره وتركها على هذه الحال، مستأصَلَةً بالموت لكنّها لم تزل حيّة، عالقة بين ساحلين يعتمان شيئًا فشيئًا على نحو لا يمكن إدراكه. كنت حين أهمّ بالمغادرة نهايةَ سهري عليها أنحني فوقها، متمايلًا بعض الشيء، وأقبّلها واعيًا بذاتي على جبينها، فأشتمّ خليطًا من رائحة صابون وقطن شاحب وجلد ناشف وشعر عفن.

أزهرت أشجار الكرز، وتهافتت الأزهار، وتساقطت الأوراق. واستعادت أمّي أخيرًا شيئًا من وعيها. وصلتُ ذات أصيل خريفيّ وكانت جالسة بزاوية بعينها وقد ارتدت سترة زهريّة ليست لها، وفي عينيها يلوح تساؤل موحش. وإذ تحدّثتُ إليها أعادت رأسَها بهزّة سريعة إلى عنقها ذي اللغاديد مثل دجاجةٍ رُوِّعت. عادت إلى البيت ذلك المساء. أحضروها في سيارة إسعاف، أبهرَتها، رأيته في ذهولها؛ هبطَت من البابين الخلفيّين المشرعين على اتّساعهما بخطوة ملكيّة الوقع إلّا قليلًا، واضعةً يدها بجبروت على ذراعي الممدودة.

كان غريبًا، الضجيج الصامت لوجودها في البيت. شعرت كأنّي مرافقٌ مُكلَّفٌ بالقيام على آلة خطيرة وكبيرة قد شُلّت حركتُها ولم يدرِ أحد كيف يعيد تشغيلها من جديد. كان الإحساس بها، بكلّ ذلك الإمكان المتعطّل، الذي يدندن المنزلُ لحنَه، يكمن دائمًا، تحت كلّ شيء. في مكان ما داخلها ما زال المحرّك يدور؛ فإلى أين تذهب الطاقة، ما التطوّرات الخفيّة التي كان

يولّدها؟ لقد أثارت أعصابي. لم تعد تبدو بشرًا، بدت شيئًا أكثر من ذلك، عتيقًا وأوليًّا. رعيتُها مثل قسٍّ قيّمٍ على ضريح، بتبجيل مرهق، برضا، أنحني تحت تلك النظرة الصامتة، ذلك المزيج الأبكم من التوسّل والازدراء. استمرأَتْ إسقاطَ الأشياء من طاولة السرير الجانبية، علب الأدوية، حامل الشموع، الكأس حيث تضع طقم أسنانها؛ حتى إنّها اكتسبت مهارة في قلب نونيّة المهجع[57] رأسًا على عقب. سرى نبأ حالتها بين النزلاء، فما لبث الباعة المتجوّلون أن توقفوا عن الزيارة ووجد الموظّفون والسكرتيريّةُ لهم نزلًا في أماكن أخرى. الآن بات المنزل المهجور قوقعتَها، صندوقَ-صوتِها. على الرغم من خراب عقلها فإنّي أشهد لها بقوى إدراك خارقة. أحببت أنّي كنت أستطيع سماعها تتنفس أنّى ضمّني المنزل، حتى في الملحق الخلفي الصغير تحت، حيث أعدّ لها الشاي وأهرس لها الطعام الليّن فذاك كان أقصى ما تطيقه الآن. لم يبدُ قطّ أنّها تخلد إلى النوم. كلما نظرتُ داخل غرفتها وجدتها يقظى، مهما تأخّر الوقت، ممدّدةً في مأوى سريرها القذر، مُسْنَدَةً باعوجاج في الزاوية إلى ضفّة من وسائد، في وهج الشمعة الشحميّ، مَرْفِقٌ محشور على الحائط، شعر رماديّ مذعور وفكّها جامد والعينان الدامعتان الزرقاوان القاسيتان الصغيرتان مثبّتتان عليّ بغضب، وقد طفحتا بكلّ ما كان مكظومًا فيها، بالسنين. أخطو، على الرغم منّي، إلى الداخل، وأغلق الباب، فيرتعش لهب الشمعة، ويتمايل المكان، ويعدّل نفسَه على الفور. أتحدّث أحيانًا إليها، غير عارف هل كانت تستطيع سماعي، أو إن سمعتني، هل تفهم ما كنت أقوله. كنتُ فريسةَ وعي خانق بالذات. أصغي إلى الظلال في الغرفة العلويّة. كان للخزانة السوداء الطويلة واجهة مقوّسة، أشبه بغطاء

---

57 مبولة توضع في حجرة النوم.

منها بباب، وطالما ذكّرتني بناووس[58]. قد تتحرّك أمّي، أو بالأحرى، يتحرّك شيء فيها، رعشة من تلك الرعشات الداخلية، التي لا تكاد تُبين، والتي كنت قد تعلّمت كيف أفسّرها، لا أدري كيف، فأتنهّد، وأرفع فنجان الشاي والإبريق المكسور الموضوع رفقةَ مسبحتها وكتاب صلواتها على طاولة السرير، وأصبّ لها شربة ماء، متعجّبًا على نحو مبهم من الحبل السائل المتموّج وهو يلتفّ في الفنجان، ذهبيّ اللون في نور الشمعة. أقعد جنبَها على شُذْفةٍ من مؤخّرتي على جانب السرير، السرير الذي فيه وُلِدتُّ- بُذِرْتُ، أيضًا، على الأرجح- وأضع ذراعًا حول كتفيها وأقرّبها وأشاهدها وهي تشرب، شفتاها العجوزتان والمزمومتان تترشّفان بعسر من حافّة الفنجان، وأشعر بالماء منحدرًا أسفل مريئها في رشفاتٍ شهقات. ثم أرى نفسي هنا طفلًا، جاثيًا على الأرض في المطر الخفيف عصرَ شتاء، تائهًا في ألعاب عزلتي، وأمّي مسترخية في السرير بين مجلّاتها وشوكولاها، وهمس الأثير والمطر يطرق على زجاج النوافذ، والآن رحت أهزها قليلًا، برفق، حاسًّا بعظام كتفيها تتحرّك داخل بُقشة جلدها المترهّل، وأخيرًا، مستسلمةً، أراحت رأسَها المسنَّ المرهَق على كتفي وزفرت زفرة بطيئة، طويلة، لها صفير. أُنْظُرْنا هناك، مشهد نزول من الصليب[59] معكوس، العجوز المحدودبة المحتضرة بين أحضان ابنها المحبّ، في قبّة نور شمعتنا، في كنف دفئنا العتيق النتن.

لحظتئذٍ ماتت. لقد كان موتها، كما يقولون في هذه البقاع، خلاصًا عظيمًا.

*

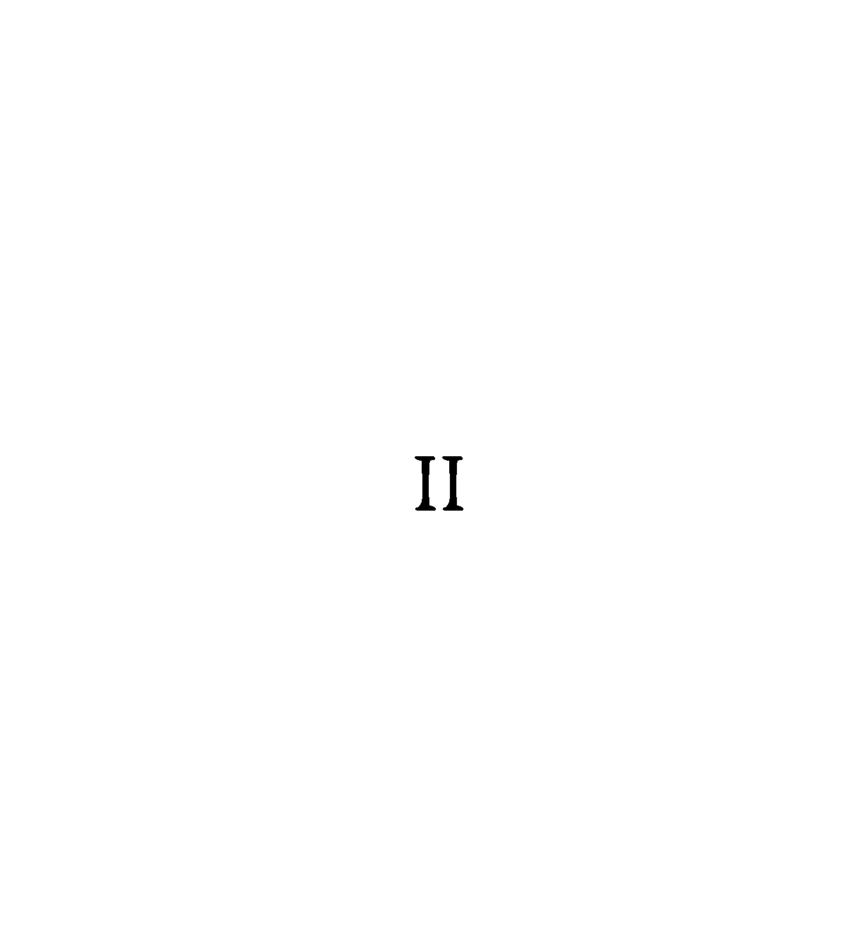
---

58 تابوت حجري.

59 إشارة إلى نزول يسوع من الصليب واحتضان مريم العذراء جسدَه بأسى مشفق، المشهد الذي خلّده الفن المسيحيّ عبر التاريخ في عديد التماثيل والرسومات.

الوقت متأخّر، الضياء يخبو. عقلي يتألّم من التذكّر الكثير المهدَر، ما الذي يعنيه، هذا الفصل من الحوادث العائليّة؟ ما الذي آمل استنقاذه؟ ما الذي أحاول تفاديه؟ أرى ما كان حياتي ينجرف خلفي، يغدو أصغر فأصغر إذ يبتعد، مثل مدينة على طوف جليديّ جرفه تيّار، أنوارها المتلألئة، قصورها وقممها، وأحياؤها الفقيرة، كلّها بأعجوبة سليمٌ من الأذى، وكلها بصورة يائسة بعيدُ المنال. أكنت أنا من حمل فأسا إلى الجليد؟ وماذا بيدي أن أفعل الآن سوى الوقوف على أنف الجبل ومشاهدة الماضي يتضاءل؟ عندما ألتفت أمامي لا أرى إلا صبيحة فارغة، ولا نهار، غسق فقط يتكثّف إلى ليل، وبعيدًا، شيء لا يمكن تبيُّنُه، شيء غامض، متلبّث، مترقّب. أذاك هو المستقبل، يحاول أن يتحدّث إليّ هنا، وسط ظلال الماضي هذه؟ لا أريد أن أسمع ما قد يَلْزَمُه أن يقولَه.

II



صخبٌ في أوساط النوارس، يبدو أنّ أحداثًا عظيمةً تجري. كان سربٌ منها قد جاء من البحر قبل وصولي واستقرّ فوق المنزل، بانيًا أعشاشه في المدخنة وفي وادي السقف. لا أدري لماذا اختارت هذه البقعة؛ ربما أحبّتْ سكون ميداننا الصغير وهدوءه. على أنّها هي بنفسها أبعدُ شيءٍ عن أن تكون هادئة. تضجّ السماء بصياحها من مطلع الفجر. تصرخ وتزعق وتُحْدِث قعقعة غاضبة بمناقيرها المفتوحة على مداها. صوتها المحبّب، مع ذلك، كركرة متقطّعة، مثل ضحك ضبع أو زقْح قرد بابون، بينما ينخفض الصوت بالتدريج تعلو في الوقت نفسه طبقتُه. هي لا ترتاح حتّى في الليل، أسمعها تصطفق على السقف، تتذمّر ويهدّد بعضها بعضا. كلَّ يومٍ هي في جَلَبةٍ تصمّ الآذان. فعلامَ تهيج هكذا؟ موسم التزاوج قطعًا قد انتهى- لا بدّ أنها الآن تعلّم صغارها الطيران، أفراخ داكنة اللون، خرقاء، قبيحة تتهادى إلى حافّة السقف وتجثم هناك، تقيس مسافة السقوط وتبتلع ريقها بصعوبة، أو تنظر من حولها بمظهر اللامبالي، قبل أن تقذف بنفسها مهتزّة على تيّارات الهواء. النوارس الكبيرة ستحلّق في أوقات معيّنة إلى السماء وتدور وتدور في دوائر بطيئة مهيبة فوق المنزل، صائحةً، إمّا هلعًا أو نشوةً وحشيّةً، يستحيل أن أدري.

أمسِ رفعت بصري من حيث كنت أجلس ورأيت نورسًا بالغًا واقفًا في الخارج على عتبة النافذة. طالما أفزعني حجم هذه الطيور العظيم حين تُرَى من قرب. إنّها جدُّ رشيقةٍ آنَ تطيرُ رشاقةً منطويةً على وعيد، لكنّها إذ تهبط

تصير مضحكة على نحو محزن، تحطّ على سيقانِها النحيلة، وأقدامِها المفلطحة بصورة سخيفة، كأنّها النموذج الأوليّ الفاشل من أنواع أجملَ بكثير وأبدعَ تصميمًا. هذا النورس وقف فقط وراء النافذة، لم يزد على أن فتح منقاره في ما بدا تثاؤبًا أو صراخًا بلا صوت. وضعت كتابي، وخرجت، يدفعني الفضول. لم يطر الطائر مبتعدًا عند اقترابي، إنّما بقي في مكانه، مُنقِّلًا قدميه بخُرْق ومحدّقًا إليّ باستخفافٍ حَذِر من عين لمّاعة، شاحبة، كبيرة. انجلى الموقف لي دفعة واحدة: على الأرض أسفل عتبة النافذة يرقد فرخ ميت. لا بد أنّه قد وقع عن السقف، أو فشل في التحليق فهوى إلى الأرض وكسر عنقه. على نظرته غشاوة شبه زجاجيّة، وعلى ريشه شحوب. النورس، ولا ريب عندي في أنّه أحد الأبوين، فتح منقاره من جديد بتلك الطريقة الغريبة، بلا صوت. لعلّها كانت تهديدًا، يحذّرني به من أن أقترب، لكنّي أميل إلى الاعتقاد بأنّها أَمَارَةُ كرب شديد. حتى النوارس يجب أن يكون لديها تعابير ترح أو فرح يستطيع الرفقاء تمييزَها. ربما ترى هي ملامحنا فارغة وغير معبّرة مثلما نرى نحن ملامحها. رجل مخدَّر ببأساء لا يمكن شرحها، على سبيل المثال، أنا واثق بأنّه لن يكون في نظرها سوى غبيٍّ آخرَ بعينين ميتتين يحملق بلا رحمة إلى مشهدِ فقدٍ لا يُقَاس. الطائر كان ذكرًا، أظنُّ؛ أجل، أظنُّه أبًا.

تركته لصلواته الصامتة، ونزلت، مدفوعًا بهذه المصادفة، إلى البحر. نادرًا ما غادرت المنزل منذ قدمت إلى هنا، مضيت شبهَ خائف، ملقيًا نظرة قلقة على عالمي الصغير من ورائي، مثل مستكشف من القرون الوسطى على وشك أن يبحر بسفينته إلى كاثَي[60]. استغرقَت الرحلةُ نصفَ ساعة. سلكتُ طريقًا عبر الحقول حسبتها مختصرة فتهت. أخيرًا، طلعتُ من غابة بندق،

60 من الأسماء القديمة التي عُرِفتْ بها الصين (شمالها خصوصا) بين الأوروبيين وسكان آسيا الوسطى والغربية.

متعرّقًا ومرتجفًا، على شريطٍ بحريٍّ كثيرِ الحصى. كانت الرائحة المعتادة لليود الممتزج ببول القطط قويّةً جدًّا. هل يوجد أيّ مكان أكثر إثارة من هوامش عالمنا القاحل السمراء هذه؟ أحسست على وقع الخطوة الأولى الطاحنِ بأنّي ربّما كنت أمشي على هذه الرمال طيلة حياتي، على الرغم من الجانب الفظّ وغير المرحِّب لهذه البقعة، التي كانت ستناسب الصعلكة وقطع الطريق أكثر من السباحة والاستجمام. كانت الكثبان خفيضةً، ولم يكن عشبٌ، ليس سوى أشياء شائكة وقاسية خشخشَت تحت وطء القدم. كان الشاطئ منحدرًا انحدارًا حادًّا، وقد نُسِفَتْ في أماكن منه طبقةُ الرمل العليا، كاشفةً عن حوافّ مثلّمة لما يشبه طَفَحًا صَفْحيًّا[61] حَرْشَفيًّا كفيلة بشقّ باطن قدمي أيّ سبّاح متهوّر بما يكفي ليغامر حافيًا فوقها.

أتساءل ما إذا كان أشباحي قد عرفوا أنّي لست في المنزل. أيظهرون حين لا أكون حاضرًا؟ أتكون وردةٌ حمراءَ في الظلام[62]- من قال ذلك؟

لا روح كانت على الساحل لتُرَى، ما عدا، على مَبْعدة، طائرًا بحريًّا أسود كبيرًا يجثم بلا حراك على صخرة سوداء. كان ممشوق الجسم ونحيل العنق وبدا غيرَ حقيقيٍّ في سكونه، أقرب إلى مثال على أسلوب فنّان منه إلى كائن حيّ. قعدت على حافّة من حوافّ الطفح الصفحيّ المكشوفة تلك. شيئًا غريبًا كانت، مثل حصاة سهلة التفتّت، وزيتيّة الملمس. كان الصباح ساكنًا، تحت سماء بيضاء منسابة. وكان مدّ البحر عاليًا، وبدا سطح الماء، وهو مشدود

---

61 الطفح الصفحي أو السجيل الزيتي: صخر رسوبي يتكوّن أساسا من طين أو صلصال متصلب على هيئة رقائق سريعة الانفلاق.

62 سيتكرر السؤال الفلسفي نفسه على لسان بطل روايته الشهيرة The Sea «البحر» الصادرة عام 2005. وفيه إلماحة إلى رؤية القس والفيلسوف الإيرلندي جورج بركلي (1685 – 1753) التي تقول بأن الأشياء المادية ليس لها وجود مستقل ولكنها مدركات ذهنيّة فقط؛ والمدرَك معنى/ فكرة، وغير المدرَك لا وجود له.

ولامع مثل حرير منتفخ، أعلى من اليابسة، وعلى وشك أن ينسكب. الأمواج كانت بالكاد أمواجًا من الأساس، أشبه بتجعيدة تجري على طول حوافّ طست ماء عظيم يتمايل ببطء. لماذا أجد فكرة البحر مرعبة؟ نتحدّث عن عنفه وعنفوانه كما لو كان نوعًا من حيوان وحشيّ مفترس ولا سبيل إلى ترويضه أو تهدئته، لكنّ البحر لا يفعل شيئا، إنّه ببساطة هناك، إنّه واقعه الخاصّ، كالليل، أو السماء. أَجيشانُه وترجُّحُه وابتلاعه المفاجئ هو ما يخيف؟ أم أنّ ما يخيف هو صراحته الشديدة في كونه ليس وسطنا الذي نعيش فيه؟ أفكّر في العالم تحت المحيط، الوجه الآخر من عالمنا، معكوس أضوائنا وظلالنا، بسهوله الرمليّة ووديانه الصامتة وسلاسل جباله المغمورة العظيمة، فيخذلني شيء في نفسي، شيء لي ينسحب بعيدًا عنّي في رعب. الماء عجيب في الطريقة التي يواصل بها، جامحًا وجازمًا، سعيَه إلى مستواه الخاصّ، ليس كمثله شيء آخر في العالم الذي نقطنه. هناك عواصف، أجل، وأمواج مدّ، وحتّى في هذه المناطق المعتدلة توجد أمواج مصبّ عارمة، أو عالية، لكنّ هذه الظواهر ليست بسبب أيِّ خصائص متأصّلة في الماء نفسه، لأنّ الماء يقينًا- وإن كان سائلًا ويقع دائما خارج نطاق فهمنا بصورة محيّرة- جامدٌ في جوهره. لكنّه يفقدنا توازننا؛ يكون أحدنا دائمًا بزاوية معيّنة من المحيط- يبقي رأسه فوق الماء كي يضمن ذلك. أن تخوض في الأمواج هو أن يبدو أنّك تسقط دون سقوط، حاسًّا بالميلان الرمليّ الحادّ المتلوّي تحت الخطوة الثقيلة المتمهّلة. أجل، السعي الوحشيّ الدائم إلى بلوغ مستوى محدّد، الوجهة المزوّاة ثنائيّة الأبِعاد التي نراها منه، هاتان السمتان في الماء تثيران قلقنا. والغرق، بالطبع، الغرق غريب، أعني أنّه غريب في نظر أولئك الذين على الشاطئ. يقع كلّه في أجواء محاطة بالتكتّم. ينظر المتفرّج، وقد استرعت انتباهه استغاثة ناعمة

بعيدة، بتركيز ولا يرى شيئًا من المعاناة، من الإخراس الذي لا حيلة فيه، من التخبّط البطيء الفظيع، من السقوط الطويل الأخير في الزرقة المسودّة أبدًا والعميقة. كلّا. كلّ ذاك الذي يراه لا يعدو أن يكون لحظةً من ماءٍ أبيض، ويدٍ، بِضَنًى تغوص.

ما كان البحر أزرق الآن، مع ذلك؛ نادرًا ما يكون. يغلب عليه في مناطقنا أن يظهر رماديًّا لامعًا، أو أرجوانيًّا، مثل كدمة، أو طينيَّ اللون بعد خضّات عاصفة هوجاء. لكن نادرًا، نادرًا ما يكون أزرق.

فرد الطائر الأسود الثاوي على الصخرة جناحيه وهزّهما هزًّا عنيفًا وبعد هنيهة مديدة من سكون صليبيّ مطلق طواهما بعناية.

لم أعرف في شبابي خوفًا من البحر، وأحببت الشاطئ. كنت، إذ أرفّه عن نفسي على ذاك الشريط الضيّق ليابسة لم يكتمل خلقها تمامًا محشورة بين الماء والسماء، تحت منحنى الظهيرة الهابط هبوطًا لا يُحَسّ، أشعر برونق العالم العظيم. تجذب نظري فتاة تلبس نظّارة شمسيّة رخيصة ومايوهًا مجعّدا وتبدو حوريّة ماء مؤتلقة. الفناء الرمليّ الناعم الذي لم يُقْفَزْ عليه كثيرًا على طرف الأمواج كان ترامبولينًا وَطِئتُ عليه برشاقة لم تكن لتُحْرَزَ في أيّ مكان آخر من عالم الصِّبا الأخرق. ثمّ البحر نفسه يمضي منبسطًا إلى الأفق الخفيض، كوعد لا حدّ له- نعم، لم أوجس في نفسي خيفةً من البحرِ، آنذاك. في صباي كنت سبّاحًا لا بأس به، بطريقتي غير المنضبطة، كلها خبطٌ في الماء ورَشٌّ. خصصتُ الغوصَ بحبّي، أحببت تلك اللحظة المقطوعة النّفَس المذعورة تقريبًا تحت الماء، الوهج المخضرّ المخيف، الصمت المنتفخ، شعور الانزلاق والتنقل والترنّح. أبي أيضًا كان مفتونًا بأشياء البحر. لم يسبح، لم يركب المحيط قطّ، لكنّه كان منجذبًا انجذابًا لا يقاوَم إلى هوامشه. يطوي

أطراف بنطاله ويمشي حافيًا في المياه الضّحلة، مثل كلّ الآباء، لكن بعيدًا عنهم، منشغلًا بنفسه. يشبه منظره في ذاكرتي واحدة من بطاقات بريد تلك الأيّام الشاطئيّة المبهرجة، هو هناك في «بلوفر» بلا أكمام وغطاء رأس مصنوع من منديل أبيض معقود من زواياه الأربع، يمشي في الأمواج المتكسّرة، بينما في أعلى الشاطئ تقعد أمّي على منشفة وساقاها المكشوفتان على نحو محرج ممدودتان أمامها، وهي غارقة في «نوفيلّا». لاحقًا، حين فقدت الشمس قواها ونعس الضياء، وجمعنا أغراضَنا وغُصْنا بأقدامنا في الكثبان متّجهين إلى محطّة القطار، ظلّ أبي محافظًا على صمت متجهّم بعيد، لم تحاول حتّى أمّي أن تكسره، كما لو كان قد زار مكانًا ما بعيدًا، ورأى أشياء لا يقوى على ذكرها لأحد.

لمعة، رعشة في الهواء. إحساس غريب، كما في توجّس بارد. ألقيت نظرة حول الشاطئ. لم أرَ أحدًا، لكن بدا أنّي لست وحدي. أحسست ببرد مألوف، مفاجئ، فقمت فزعًا وهرولت بنصف انحناءة إلى أعلى الشاطئ. هل لحق أشباحي بي؟ على طرف غابة البندق كان ما يشبه سقيفة أو جزءًا من كوخ غاطسًا في الرمل، مكمن صيّادين، أظنّ، مصنوع من ألواح قطرانيّة ملفوفة بضياء الشمس والرياح المالحة، ثلاثة حيطان فقط وسقف مائل ولوح مقطوع بالطول لتصنع منه دكّة للجلوس. كان غاية في القدم والبلى حتّى فقد كلّ أثر من صنعة البشر، وبدا والأشجارَ المتلوّية الجذوع المتكتّلة وراءه واحدًا، بالرمل المحرشف ولفائف طحالب البحر المخدّدة ونثار الأخشاب المجروفة. دخلت وقعدت، بعيدًا عن أنظار ذلك الخطّ الساحليّ غير المضياف وأمواجه المتأوّهة. كانت الفضلات المعتادة من أعقاب السجائر والعلب الصدئة وقصاصات الجرائد المصفرّة مبعثرة في الأرجاء. تخيّلتُني لاجئًا حطّ

هنا نائيًا بنفسه عن أذى العالم. ربما، فكّرت، ربما، هذا ما أحتاج إلى فعله، أن أتخلّى أخيرًا عن كلّ شيء، عن البيت، والأهل، والأملاك، وأخلّص نفسي من المتعلَّقات جملة وتفصيلًا وآتي وأعيش في مكان كهذا لا يلقي له أحدٌ بالًا. ما الذي يتطلّبه البقاء غير كأس وصحن وغطاء؟ متحرّرًا إذّاك من كلّ العوائق، كلّ الملهيات، قد أقدر أخيرًا على مواجهة ذاتي دون أن أُصدَم، أو أنكمش. أَوَلَيس هذا ما أسعى وراءه، الاقتران النقيّ، توحّد الذات بالذات المنشطرة؟ أنا متعب من الانقسام، من كوني ممزَّقًا على الدوام. أغمضتُ عينيّ وفي ما يشبه نشوة رأيتُ نفسي أخطو إلى الخلف ببطء عائدًا إلى البيضة المنفلقة، وشطراها، ما زالا رَطِبَين بالآحِ، ينغلقان عليّ...

لمّا خرجت من الكوخ ونظرت حولي من جديد بدا النهار مختلفًا، كأنّ الضياء قد تحرّك، كأنّ ظلًّا كان قد مرّ بالرمل وترك شيئًا خلفه، قتامة، برودة. احدودبَتْ وراء الأمواج الصغيرة رقعةُ ماء، ثم ماج البحر وهاج مدّةً وجيزة، وطلع شكلٌ، مكتسٍ بالسواد، بقناعٍ يومض مكان الوجه ويحمل في إحدى يديه ما بدا رمحًا أهيفَ ثلاثيَّ الشعب. طار قلبي بنياطه، متخبّطًا مثل بالون تلعب به الريح. بزغ الطائر البحري من صخرته وطار مبتعدا بحركة فخمة يغلب عليها التكاسل. ثم خلع بوسيدون[63] قناعه وبصق، ولوّح، إذ رآني، برمحه، وابتعد ماشيًا في نعال البحر على حصى الشاطئ. كان لبدلته المطاطيّة نفس اللمعة الكابية الغليظة التي لريش الطائر. استدرت واندفعت، في ربكة، إلى داخل الغابة. كنت قد ضعت، في القدوم، والآن راجعًا خلتني قد عرفت الطريق الصحيحة، لكنّي كنت مخطئا.

*

---

63 إله البحر في الميثولوجيا اليونانية.

أفكّر في ابنتي، فتطنّ العواطف من فورها طنينًا غاضبًا في صدري. إنّها تُغْضِبني، أعترف بذلك. ليست موضع ثقتي. أدري، أدري، يوجد اسم حتى للمتلازمة التي تعاني منها، لكنّي في كثير من الأحيان أعتقد أنّها لا تعاني من شيء البتّة، وأنّ تشنّجاتها ونوبات صرعها، هوسها، أيّامها السوداء ولياليها المؤرّقة العنيفة، كلّها ليست أكثر من استراتيجية لتحميلي مسؤوليّة بعض الفظائع التي تتخيّل أنّي أنزلتها بها في الأيّام الخوالي. تملك أحيانًا نظرةً، نظرةً مبتسمةً بعض الشيء، غير مباشرة، خاطفة، يبدو أنّي ألمح فيها هي أخرى تمامًا، باردة وخبيثة وتضحك في سرّها. ببراعة كهذه تربط طرائق عمل العالم بمصيرها. كلّ شيء يحدث، هي مقتنعة، يحمل إشارة شخصيّة ومحدّدة إليها. لا شيء، لا تغيّر في الطقس، لا كلام يقال عرضًا في الشارع، إلّا ويتضمّن رسالة عميقة إليها، تحذيرًا أو تشجيعًا. اعتدتّ أن أحاول تغيير قناعتها، متحدّثًا إليها بالغمغمة، بهزّ الرأس، بالضحك المتنقّل بعنف بين الغضب والإحباط، وكانت هي تقف صامتةً بين يديّ، كأنّها موضوعة في المثقّبة[64]، كتفاها مرفوعتان، وذراعاها متدلّيتان، وذقنها نازل إلى ترقوتها، مقطّبة في تحدّ ورفض عنيد. ما من مرصد لتقلّبات مزاجها، لم أحدس قطّ متى قد تنحرف عن مسارها وتنعطف وتواجهني بنسخة أخرى من ذاتها، خريطة جديدة بالكامل لذلك العالم الغريب، المتقلّب والمحتدّ الذي كانت تسكنه وحدها. لأنّها هكذا تجعل الأمر يبدو، أنّها تعيش في عالم حيث لا يوجد أحد آخر. يا لها من ممثّلة! تتقمّص شخصيّةً بسهولة وإقناع لا أستطيع أبدًا بلوغ مستواه. لكن ربما أنّها لا تختلق ذلك، ربما ذاك سرّها، أنّها لا

---

64 أداة تعذيب خشبية ذات ثقوب شاع استخدامها في القرون الوسطى كانت تقيد فيها يدا المذنب أو رجلاه أو يداه ورجلاه وأحيانا توضع حول رقبته كذلك. (التعريب لصاحب المورد منير البعلبكي رحمه الله).

تمثّل، لكنّها بطرق متنوعة تفعل. مثل مساعدة الحاوي، تخطو مبتسمةً إلى داخل التابوت البرّاق وتخرج من الجهة الأخرى وقد تغيّرت هيئتها.

ليديا لم تشاركني قطّ شكوكي. هذا، بالطبع، مصدر آخر لانزعاجي. كيف كانت تركض إلى كاس، لاهثة، بحماس متكلَّف، وتحاول أن تضغط عليها كي تجرّب أحدثَ لعبةٍ قد ابتكرَتْها لتصرف الطفلةَ عن نفسها وعن جنونها. وكانت كاس تجاريها في اللعب بعضَ الوقت، كلّها ابتسام واهتزاز حماس، كي تنصرف مبتعدةً فقط في النهاية وتنكفئ بفتور على ذاتها. ثم تبدو ليديا الطفلةَ المكتئبةَ وكاس البالغةَ الممتنعة.

كانت في الخامسة أو السادسة حينما ظهرت عليها الأعراض الأوليّة لحالتها. عدتُّ إلى البيت متأخّرًا ذات ليلة بعد عرض مسرحيّ وكانت تقف في لباس نومها في الظلمة عند أعلى الدّرج، تتحدّث. ما زلت حتى الآن، إذ أتذكّرها هناك، أحسّ بقشعريرة بطيئة تدبّ على فروة رأسي من الخلف. عيناها كانتا مفتوحتين ووجهها كان خاليًا من التعبير، بدت مثل تمثال شمعيّ لنفسها. كانت تتحدّث بصوت خفيض على نبرة واحدة، صوت وسيطِ وحي[65]. لم أستطع أن أخرج بشيء ممّا كانت تقوله إلّا شيئا عن بومة وعن القمر. قلت لا بدّ أنها كانت تردّد في منامها أنشودة أو نغمة من الطفولة. أخذت بكتفيها وأدرتها وقدتّها إلى غرفتها. إنّها هي من يفترض به أن يحسّ في أوقات كهذه بالأنسام الغريبة، لكن في تلك الليلة كنت أنا من انتبه إلى الرائحة. رائحة الشيء الذي كان، أنا على قناعة، وما زال، علّتَها. لم تكن على الإطلاق رائحةً استثنائيّة، مجرّد نتانة ضعيفة رمادية ثابتة كئيبة، كتلك التي

---

65 وسيط الوحي أو ما يُعرف بالأوراكل: كاهن أو كاهنة عند الإغريق كان يُعتقَد بأن الآلهة تتحدث من خلالهم إلى الناس وتجيب بواسطتهم عن أسئلة الغيب.

لشعر غير مغسول أو لثوب تُرِكَ في درج حتى بلي. ميّزتُها. كان لي عمّ، مات وأنا صغير، لا أكاد أتذكّره، كان يعزف الأكورديون، ويلبس قبّعة في المنزل، ويمشي بعكّاز، كانت له تلك الرائحة، أيضًا. العكّاز كان طرازًا قديمًا، عصا مفردة خشنة غليظة وخشبة متعارضة مقوّسة مبطّنة بقماش ملطّخ بالعرق؛ الجزء الذي تمسكه يده صُقِل حتى صار بملمس حرير رماديّ. ظننت أنّ الرائحة كانت من هذا العكّاز، لكنّي الآن أظنّ أنّها رائحة البلوى نفسها. في نور المصباح بدت غرفة كاس مرتّبة بهوس- على لمسة كاسنا، كالعادة، أثر راهبة- لكنّها في نور بصيرتي بدت موقع فوضى عارمة. أرحتُها على السرير، ما زالت تهمهم، عيناها مثبّتتان على وجهي، يداها متشبّثتان بيديّ، كأنّي كنتُ أُسْلِمُها لتغرق في مسبح عميق مظلم، تحت صفصافة، في عزّ الليل. ظهرت ليديا نعسانة في المدخل خلفنا، يد في شعرها، تريد أن تعرف ما الخطب. قعدت على جانب السرير الضيّق، لم أزل ممسكًا بيدي كاس الشاحبتين الباردتين. نظرت إلى الألعاب على الأرفف، في ظلّ المصباح عالقةً بانتقالات متلاشية؛ على ورق الجدران، شخصيات كرتونية قفزتِ وتبسمت. شعرت بالظلام يضغط على كهف ضوء مصباحنا مثل غول في حكاية خرافيّة. قمر شامت كان معلّقًا بميلان على النافذة فوق السرير وعندما رفعت رأسي بدا أنّه ينفحني غمزةً سمينة، داريةً وشنيعة. كان صوت كاس عندما تكلّمَتْ خشنًا وجافًّا، تَطَايُر غبارٍ في أرضٍ قاحلة.

«يقولون لي أشياء، بابا»، قالت، وأصابعها تمسك بأصابعي المشدودة مثل أسلاك. «يقولون لي أشياء».

بماذا أخبرتها الأصوات، بماذا ألحّت عليها، لم تجب قطّ. لقد كانوا أسرارَها. مرّت بها فترات راحة، أسابيع، أشهر، حتّى، حين كانوا بناء على

اتّفاق بينهم يجنحون إلى الصمت. وكم بدا المنزل هادئًا إذّاك. كأنّ ضجّة يسمعها الجميع قد خمدت. لكن عمّا قريب، عندما تأقلمَتْ أذناي، أمسيتُ منتبهًا من جديد لتلك النغمة القلقة الباقية التي كانت دائمًا هناك، في كلّ غرفة، نحيلة وثاقبة حتى إنّها لتكسر الزجاج الرهيف لأيّ أمل. كانت كاس أهدأنا، نحن الثلاثةَ، في مواجهة هذه التقلّبات. في الواقع، بلغ من هدوئها أحيانًا أن تبدو غير موجودة على الإطلاق، أن يبدو أنّها قد رحلت، أخفَّ من الهواء. إنّه هواء مختلف ذاك الذي تتحرّك فيه، وسيط منفصل. العالم بالنسبة إليها هو دائمًا مكان آخر، مكان غير مألوف مع أنها كانت تقطنه على الدوام. هذا في نظري أصعب الأمور، أن أفكّر فيها هناك، واقفة على شاطئ مهجور كئيب بعيد، لا تمتدّ إليه يد العون، في ضياء ساكن، وأمامها محيط من التيه والأصواتُ المغويةُ تغنّي في رأسها. كانت دائمًا وحيدة، دائمًا هائمة. مرّةً حين جئت آخذها من المدرسة وجدتّها تنظر أسفل ممرّ أخضر الطلاء طويل إلى حيث التمّ عند النهاية البعيدة جمع صاخب من الفتيات. كنّ يتجهّزن لمباراة أو لرحلة ما، وضحكُهنّ وصراخُهنّ الحادّ قد جعل الهواء الهامد يرنّ. وقفت كاس ضامّةً حقيبتها المدرسيّة إلى صدرها، منحنيةً إلى الأمام قليلًا، مميلةً رأسَها إلى جانب واحد، متجهّمةً، متلهّفةً تلهّفَ العاجز، كعالمة طبيعيّات تلمح لمحًا فقط أنواعًا جديدة مستحيلة من الطيور، بتدرّجات لونيّة رائعة، وقد توهّجَتْ على الضفّة البعيدة لنهر يتعذّر عبوره وفي لحظة فردَتْ أجنحتَها وطارت بعيدًا من جديد، في أعماق الغابة، حيث لا أمل في متابعتها. عندما سمعَتْ خطوي رفعَتْ ناظريها إليّ وابتسمت، ميرانداي[66]، وفعلَت بعينيها تلك الحركة إذ يظهر أنّهما تنقلبان في محجريهما مثل قرصين

---

66 الإشارة هنا إلى ميراندا ابنة الساحر بروسبيرو في مسرحية «العاصفة» لشيكسبير.

معدنيّين مسطّحين لتُرِيَا جانبهما الدفاعيّ الفارغ. مشينا معًا بصمت إلى الشارع، حيث توقّفَت لحظةً بلا حراك، ناظرةً إلى الأرض. ريح آذاريّة رمادية كمعطفها المدرسي أثارت دوّامة غبار على الرصيف عند أقدامنا. جرس الكاتدرائيّة كان يرنّ، فتهافتت حوالينا أصداؤه الأخيرة، مُغضِّنةً الهواء. حكَت لي كيف في درس التاريخ كانوا قد تعلّموا عن جان دارك[67] وأصواتها. رفعَتْ ناظريها وضيّقتهما وابتسمَتْ من جديد، ذاهبةً بوجهها إلى جهة النهر.

«هل تظنّهم سيعدمونني حرقًا بالنار، أيضًا؟» قالت. ثم ما لبث السؤال أن غدا مزحةً من مزحاتها.

الذاكرة غريبة إذ تُحْكِم قبضتَها الشديدةَ على ما يبدو أقلَّ المشاهد قيمة. أجزاء كاملة من حياتي غابت مثل جرف في البحر، بيد أنّ ما يبدو تَوَافِهَ يعلق بإصرار عجيب. في هذه الأيّام السائبة، وفي الليالي الساهرة خصوصًا، كثيرًا ما أُمَرِّر الوقت ملتقطًا نُتَفًا من هذه اللحظة المتذكَّرَة أو تلك، مثل طائر أسود ينقّب وسط أوراق الشجر الميتة، باحثًا عن الجوهريّ كامنًا في الطين، بين قشور الخشب وقشر الثمار الجافّ والريش المنبوذ، عن الكسرة التي ستمنح معنى لذكرى بلا معنى، اللقمة المشبعة مخفيّةً في متناول النظر تحت تمويه العرضيّ العابر. هناك أوقات مع كاس ينبغي لها أن تُوسَم في البطانة الداخليّة لجمجمتي، أوقات ظننتُ إذ تكبّدتها أنّ الحظّ لن يحالفني أبدًا فأنساها- الليالي على الهاتف، الساعات التي قضيتها ساهرًا على شخصها

---

67 القديسة جان دارك (1412 – 1431) بطلة فرنسية قومية كانت تقول أنها كانت تسمع أصواتا تدعوها لمساعدة ملك فرنسا شارل السابع الذي سلبه الاحتلال عرشه. نذرت نفسها لمحاربة الإنجليز، وانتصرت عليهم في أورليان عام 1429. لكنها أُسرت بعدُ وحوكمت وأُحرقت حية بتهمة الخيانة والشعوذة.

الساكن المحنيّ خوفًا تحت الشراشف الحيرانة، الانتظارات الشاحبة في غرف استشارة مجهولة- لكنّها لا تبدو لي الآن سوى بقايا غامضة من أحلام سيّئة، في حين أنّ كلمةً فارغةً تقولها، نظرةً تلقيها عليَّ من مدخل، رحلةَ سيّارةٍ بلا هدف معها تسقط صامتةً إلى جانبي، يتردّد صداها في عقلي، حافلةً بالمغزى.

من ذلك أصيل الكريسمس الجليديّ حين اصطحبتها إلى الحديقة كي تجرّب أوّل حذاء تزلّج بالعجلات تقتنيه. الأشجار بيضاء بلون الصقيع والضباب الزهريّ الشفقيّ عالق في الهواء الساكن. لم أكن في مزاج جيّد؛ المكان كان غاصًّا بالأطفال الصارخين وآبائهم الحليمين حِلْمًا يوتّر الأعصاب. كاس في حذاء التزلّج بالعجلات تمسّكَتْ بي بشدّة مرتجفة ورفضَت أن تفلت يدها. كان الأمر يشبه تعليم مُقْعَد ضئيل الحجم مبادئَ القابليّة للحركة. في النهاية فقدَت توازنها وضرب حدُّ حذائها كاحلي فلعنتُها وهززتُ بغضب يدَها المتشبّثة بي فتمايلَت هنا وهناك لحظةً ثم امتدّت ساقُها من تحتها بسرعة وقعدَت فجأة على الطريق الرماديّة. يا لها نظرةً رمقتني بها.

ويوم آخر عندما زلّت قدمها من جديد، يوم في أبريل، كان، وكنّا نمشي معًا في التلال. الطقس شتائيّ لم يزل. كان ثلج رطب ناعم قد نزل وقتًا قصيرًا، والآن قد طلعت الشمس على استحياء، والسماء كانت مصنوعة من زجاج شاحب، وشجيرة الجولق كانت شعلة صفراء على البياض، وكلّ ما حولنا كان ماءً ينقّط ويتقاطر ويسري خلسةً تحت العشب الممهَّد النضير. قلت معلّقًا إن الثلج كان جليديًّا (آيسي *icy*)، فتظاهرت باعتقاد أنّي قد قلتُ شيئًا عن «سكّر الزينة» (آيسينغ *icing*)، وأرادت أن تعرف أين كانت الكعكة، وأمسكتْ بجانبيها في مرح مبالغ فيه،ضاحكة ضحكتَها الخنّاء. لم

تكن قطّ فتاة رشيقة، وذاك اليوم كانت تلبس حذاءً مطاطيًّا طويل العنق ومعطفًا مبطّنًا ثقيلًا جعلا المسير أصعب، وإذ كنّا ننزل دربًا حجريًّا بين حائطين من أشجار صنوبر سوداءَ زرقاءَ تعثّرت وخرَّت على وجهها وشقّت شفتها. قطرات دمها على رُقَع الثلج كانت تعريفَ الحمرة. انتزعتُها ورفعتُها إليّ، كرة من الأسى دافئة جسيمة، وتحدّرَتْ دمعة من دموعها الزئبقيّة إلى داخل فمي. أفكّر فينا نحن الاثنين هناك، وسط الأشجار الراجفة، وتغريد الطير، وهمس الماء المتساقط السريع النمّام، فيرتخي شيء فيّ، يرتخي، ويرتدّ بعد جهد جهيد. ما السعادةُ عَدَا أنّها شكلٌ مُصَفًّى من الألم؟

*

الطريق التي سلكتها عائدًا من تلك الزيارة المزعجة إلى الشاطئ قادتني بصورة ما إلى مُرتَفَع. لم أنتبه إلى أنّي كنت أصعد حتّى صرتُ أخيرًا على طريق التلّ، عند البقعة حيث كنت قد توقّفت في السيارة تلك الليلة الشتائيّة، ليلة الحيوان. كان النهار حارًّا؛ والضياء يطنّ فوق الحقول. وقفت على حافّة التلّ، وكانت البلدة الحلزونيّة هناك أسفل مني، متلملمةً في غشاوتها الزرقاء الشاحبة. استطعت أن أرى الميدان، والمنزل، والحائط الأبيض الساطع لدير (ستيلا ماريس). طائر بنيّ صغير رفّ من غصن إلى غصن أعلى منه في شجرة زعرور على جانب الطريق. ووراء البلدة كان البحر الآن امتدادًا سرابيًّا ممتزجًا بالسماء دون أفق. كان الوقت يشير إلى تلك الساعة الخادرة أصيلَ صيف حين يصمت الجميع وحتّى الطيور تكفّ عن تغريدها. في وقت كهذا، في مكان كهذا، قد يفقد المرء سيطرته على كلّ ذاك الذي يشكّل هويّته. في أثناء وقوفي هناك في السكون أمسيت منتبهًا إلى صوت لا يكاد يُسْمَع، شِبهُ شدوٍ مُلطَّفٍ مُوهَن. لقد حيّرني، حتى أدركتُ أنّ ما

أمسيتُ أسمعه كان ببساطة ضوضاءَ العالم، الصوت المشكَّل من كلّ شيء في العالم، يسري فحسب، وقلبي قد تبلسم إلّا قليلا.

هبطت ماشيًا خلال البلدة. كان الأحد والشوارع خالية، مررت بالحوانيت المغلقة فحدّقَتْ إليّ النوافذ السوداء الصقيلة باستهجان. شفرة ظلّ حبريّة قسمَتْ الشارع الرئيس بأناقة إلى نصفين. على أحد الجانبين سيارات مركونة قرفصَتْ بحرارة في الشمس. ولد صغير قذف عليّ حصاة وفرّ راكضًا يضحك. أظنّني كنت منظرًا متنافرًا، بلحيتي النامية حديثًا وشعري الأشعث ودون شكّ بعينيَّ المحملقتين. جاء كلب وتشمّم ثنيتي بنطالي بارتعاشات خطمه الحسّاسة. أين أنا هنا، غلام، فتى، شابّ، ممثّل منهار؟ هذا هو المكان الذي يجدر بي أن أعرفه، المكان الذي نشأت فيه، لكنّي غريب، لا أحد يستطيع أن يضع اسمًا على وجهي، ولا أنا حتّى، مع أيّ ضمانٍ، أستطيع. لا حاضرَ، والماضي فوضى، والمستقبل هو الثابت الوحيد. أن تتوقّف عن الصيرورة وتكونَ فحسب، أن تقفَ كتمثال في ميدانٍ ما خريفيِّ الأوراقِ مهجور، ناجيًا من الدمار، محتمِلًا الفصولَ بالتساوي، المطرَ والثلجَ والشمس، قد اعتادتك حتّى الطّيور، كيف يكون ذلك؟ قصدتُ البيت، ومعي قنّينة حليب وكيسُ بَيْضٍ ورقيٌّ بنيّ اشتريتهما من عجوز شمطاء في محلّ قذر أسفلَ درب.

شخصٌ ما كان في المنزل، عرفت ذلك أوّلَ ما تخطّيت العتبة. وقفت والحليب وكيس البيض في يديّ بلا حراك، ولا نَفَس، احمرّ منخراي وارتفعت إحدى أذنيّ، حيوانٌ أُغِيْرَ عليه في عرينه. ضياء صيف هادئ وقف في الردهة وثلاث ذبابات دُرْنَ في تشكيل ضيّق تحت لمبة رماديّة مكشوفة ومقرفة على نحو غريب. ولا صوت. ما الخطأ الذي حصل، ما الرائحة أو الإشارة التي

التقطتها؟ كان في الجوّ ما يريب، التموّج الذي يخلّفه عبورُ شخصٍ ما. بحذر تحرّكت من غرفة إلى غرفة، صعدت الدّرج، أوتار ركبتيّ تَصِرّ، أطللت برأسي حتّى في خزانة المكانس المشبعة برائحة الرطوبة خلف باب الملحق، لكنّي لم أجد أحدًا. في الخارج، إذن؟ ذهبت إلى النوافذ كي أراجع إحداثيّات عالمي: الميدان في الواجهة، بريء من أيّة علامة يمكنني رؤيتها، والحديقة في الخلف، الشجرة، التّلال البعيدة، كلّها ساكنة سكون الأحد في ضياء الأصيل القطنيّ. كنت في المطبخ حين سمعتُ صوتًا ورائي. نَمّلَتْ فروة رأسي وتكوّنتْ قطرة عرق على خطّ شعري وتحدّرتْ سريعًا في مسار قصير أسفلَ جبيني وتوقّفَتْ. استدرتُ. كانت فتاة تقف في المدخل وضوء الرّدهة خلفها. انطباعي الأوّل كان إحساسًا بميلان طفيف يحيط بها. عيناها لم تكونا متّسقتين تمامًا وفمها مرتخٍ من جانب واحد بالطريقة الوقحة اللامبالية للفتاة الضّجِرة. حتى كُفّة ثوبها كانت متعرّجة. لم تنبس بكلمة. وقفتْ هناك فقط محملقةً إليّ بصراحة متبلّدة. مرّت لحظات صمت متردّد. كنت سأعتبرها هلوسة أخرى لولا أنّها كانت ذاتَها بثبات لا يتأتّى من هلوسة. ما زال الصمت سيّد الموقف، ثمّ كانت جرجرة قدمين فنحنحة، وطلع من ورائها كويرك، منحنيًا انحناءةَ اعتذار، الأصابع المتوتّرة لإحدى اليدين تهتزّ إلى جانبه. كان يلبس اليوم سترة خفيفة زرقاء بأزرار نحاسيّة ولمعة ساطعة على المرفقين، وقميصًا كان ذات مرّة أبيض، وربطة عنق ضيقة، وبنطالًا رماديًّا فضفاضًا مرتخيًا من الخلف، وحذاء منزلقًا بإبزيم عند المشط، وجوارب بيضاء. جرح نفسه من جديد وهو يحلق. نتْفةٌ من منديل حمّام ملطّخةٌ بالدم كانت ملتصقةً بذقنه، زهيرةٌ بيضاءُ بقلبٍ صغيرٍ أحمرَ حمرةَ الصدأ. كان يتأبّط صندوقًا كرتونيًّا أسودَ محكّكًا كبيرًا مربوطًا بشريطة حريريّة سوداء.

«سَأَلْتَني عن المنزل؟» قال- هل فعلتُ؟ «لديّ كلّ شيء»- وأمال طرف عينه إلى جهة الصندوق - «هنا».

خطا مارًّا بالفتاة وتقدّم بحماس ووضع الصندوق على طاولة المطبخ وفكّ الشريطة وبرشاقةٍ مُحِبّةٍ أخرج وثائقه، ناشرًا إيّاها مثل توزيعة ورق لعب هائل الحجم، متحدِّثًا خلال ذلك. «أنا من يمكن أن تسمّيه محاميًا مدلَّلًا»، قال بنظرة شزراء كئيبة، مبرزًا أسنانًا بلون الشمع كبيرة. كان مستندًا إلى الطاولة، وقد مدَّ إليّ حزمةً من أوراق صفراء الأطراف مطبوعة كلّها على صفائح نحاسيّة بخطّ سَبيدَجيّ منمّق. أخذتها وأمسكتها بيدي ونظرت إليها؛ كانت لها رائحة الأقحوان المجفف المتعفّنة الصريحة. مررتُ على الكلمات سريعًا. بينما... في ما يلي... بالنظر إلى هذا اليوم من... تثاؤب متجمّع جعل فتحتي أنفي تضيقان. أتت الفتاة ووقفت عند كتف كويرك وتطلّعت بفضول فاتر. كان قد انطلق في وصفٍ مفصّلٍ لمنازعة تاريخيّة معقّدة طويلة على إيجار الأرض وحدودها وحقوق المرور، موضّحًا كلّ مرحلة من النزاع بوثيقتها، وعقودها، وخريطتها. وفيما كان يتحدّث رأيتُ اللاعبين الأساسيّين في هذه الدراما الصغيرة، الآباء بقبّعاتهم الجاروفيّة[68]، الأمّهات طويلات الأناة، الأبناء العجولين، البنات الذابلات المسلولات بشرائطهن المطرّزة وروايتهنّ. ورسمت صورة لكويرك، أيضًا، ساهرًا في لباس قطنيّ غليظ، مثلهم، بقَبّة عالية، في عليّة شديدة الرطوبة، منحنيًا على أوراقه قربَ وميضِ عَقِبِ شمعةٍ يذوب، وريح الليل تَأَوَّهُ عبر قرميد السقف والقطط تجوس خلال الحدائق الخلفيّة الضيّقة تحت قمر مثل قشارة صفيحة مصقولة... «وجد الابنُ وصيّةَ الشيخ الكبير وأحرقها»، راح يقول

---

68 نوع من القبعات ارتبط في السابق برجال الدين الإنجليز، لها طرف عريض ينتهي ببروز يشبه المجرفة.

بهمسٍ مستأمِنٍ، أجشَّ، مغمضًا إحدى عينيه وهازًّا رأسَه بطريقة مثقلة بالاحتمالات. «وكان بالطبع سيناله منها...» مدّ سبّابة مرتجفة بعض الشيء ومستدقّة ونقر على أعلى الصفحة في الأوراق التي أمسكتُها. «هل ترى؟».

«نعم، إنّي أرى»، قلت، بجديّة، مع أنّي كذبت.

انتظر، متفحّصًا وجهي، ثم تنهّد؛ لا يشبع جوعَ الهاوي هوايةً شيء. مُثبَّطَ الروح، أشاح بوجهه وحدّق متكدّرًا عبر النافذة إلى الحديقة بعينين لا تريان. استحال ضياء الشمس نحاسيًّا إذ تضعضع الأصيل. وَكَزَتْه الفتاة بوركها وكزةً جانبيّةً كسولةً فطرفتْ عينُه. «أوه، أجل»، قال، «هذه لِلِي». ابتسمَت في وجهي ابتسامةً منقبضةً كئيبة وانحنَت انحناءةَ احترامٍ هازئة. «ستحتاج إلى المساعدة في بعض شؤون المنزل»، قال. «لِلي ستعتني بذلك».

جمع أوراقه، مكسورَ الخاطر وحزينًا، ووضعها في الصندوق وأغلق الغطاء وعقد شريطة الحرير السوداء، استرعتني مجدّدًا رشاقة تلك الأصابع العذراويّة. انتشل من جيب سترته مشبكي ركوب الدرّاجة[69] وانحنى ووضعهما حول كاحليه، وهو يَنْخُر. أنا والفتاة معًا نظرنا إلى هامة رأسه وملاسة الشعر الرمليّ والكتفين المقوّستين وقد تساقط عليهما خفيفًا ثلجُ قشرةِ الرأس. ربما كنّا صورةَ الأبوين وهو الولد البغيض، المفرط في النمو الذي كنّا أقلَّ من فخورين به. اعتدل قائمًا، فبدا الآن لحظةً مثل خَصيٍّ قصرٍ مُسَرْوَل، بشحوبه الخميريّ وجوربيه الأبيضين وحذائه المرتفع عند الأصابع.

«سأذهب»، قال.

ماشيتُه أسفلَ الردهة إلى الباب الأماميّ. في الخارج، كانت درّاجته مسدوحةً على مصباح الشارع في حالة انهيار مبالغ فيه، العجلة الأماميّة

---

69 مشبكان معدنيان نحيلان على شكل حدوة يُشبَكان أسفل البنطال وقاية لأطرافه من أن تعلق في الجنزير.

منقلبة والمقود منحرف، كأنّها ممثّل هزليّ يقلّد سكران. عدّلها وشبك صندوق الوثائق في الحامل وفي صمتٍ نَكِدٍ ركب وانطلق مبتعدًا. كان نسيجَ وحدِه في قيادة الدرّاجة، يقعد على الطرف البعيد آخرَ المقعد وكتفاه منحنيتان إلى الأمام وكرشه بارزة، متحكّما في المقود بيد واحدة أمّا الأخرى فترتاح مسترخية في حجره، ركبتاه ترتفعان وتنخفضان مثل مكابس لا تعمل بل تدور فحسب. منتصفَ الطريق عبر الميدان كبح سير درّاجته وتوقّف ووضع إصبعَ قدمِ راقصٍ باليه على الأرض والتفتَ ناظرًا وراءه، لوّحتُ له؛ وَاصَلَ المسير.

في المطبخ كانت الفتاة عند المجلى تؤدّي بكسل حركات غسيل المواعين. ليست فتاة جميلة، وليست، كما يبدو من منظرها، نظيفةً على التحديد. أبقَت رأسها منخفضًا عندما دَخَلْتُ. عبرتُ المكان وقعدتُّ إلى الطاولة. زبدة في صحن قد ساحت في الشمس، بركة خُثارة دهنيّة؛ شريحة خبز بائتة سَقْلَبَها الحرُّ بزخرفةٍ على طول حوافّها. الحليب وكيس البيض كانا حيث تركتُهما. نظرتُ إلى عنقِ الفتاةِ الطويلِ المصفرّ، وذيولِ جرذانِ شعرِها الباهت. صفّيت حنجرتي، وطبّلت بأصابعي على الطاولة.

«قولي لي يا لِلِي»، قلت، «كم تبلغين من العمر؟»

اكتشفت سلاسة متملّقة، خبيثة في صوتي، صوت أشيمط خليع فاجر يحاول أن يبدو بريئًا.

«سبع عشرة»، أجابت دون تردّد؛ أنا واثق بأنّها أصغر من ذلك بكثير.

«وهل تذهبين إلى المدرسة؟»

هزّةُ كتفين مائلة، الكتف اليمنى تعلو، واليسرى تهبط.

«كنتُ».

قمت من الطاولة وذهبت ووقفت إلى جانبها، مسندًا ظهري إلى لوح تجفيف الأطباق وشابكًا ذراعًا في ذراع وكاحلًا على كاحل. الوقفة، والنبرة، هذان هما الشيئان المهمّان؛ حالما تتقن النبرة والوقفة يلعب الدورُ نفسَه بنفسه. يدا لِلي بدتا في الماء الساخن مسلوختين إلى المعصمين، كأنّما كانت تلبس زوجي قفّازات جراحيّة زهريّين. إنّهما يدا كويرك، مرسومتين رسمًا ورقيقتين. وَضَعَتْ كوزًا على اللوح مقلوبًا في رغوةٍ من فقاعات متلألئة. سألتُها برفق أَلَا تظنُّ أنّه ينبغي لها أن تغسل رغوة الصابون. جمدَت مكانَها لحظةً، ناظرةً إلى المجلى، ثمّ أدارت رأسَها ببطء وأعطتني نظرةً مَوَاتًا جعلتني أنكص. التقطَت الكوزَ بتأنٍّ وأمسكَته تحت ماء الصنبور ثم خبطَت به من جديد. تمايلتُ متراجعًا بسرعة إلى مكاني عند الطاولة، منحرفَ المزاج. كيف يستطعن أن يكنّ مربكات للغاية، اليافعات، بلمحة، أو كشرة، لا أكثر؟ الآن أنهت الأطباق ونشّفت يديها في خرقة؛ على أصابعها، لحظتُ، كانت آثارُ نيكوتين. «عندي بنتٌ، تدرين»، قلتُ، مبديًا الآن حسَّ العجوز الحنون الأبله المتلعثم. «أكبر منك. اسمها كاثرِن. نناديها كاسْ». ربما لم تسمعني. شاهدتّها وهي تُوْدِع الفناجين الرّطبةَ لم تزلْ وصحونَ الفناجين في الخزانة؛ كيف تعرف بهذه الدّقة أماكنَها، لا بدّ أنّها غريزةُ أنثى. عندما انتهَت وقفَت لحظةً تنظر حولَها على نحو غامض، ثم استدارت لتغادر، لكنّها توقّفت، كما لو كانت قد تذكّرتْ وجودي، ونظرَت إليّ، محرّكةً أنفَها باشمئزاز.

«هل أنت مشهور؟» قالت، بنبرةِ تشكّكٍ خبيث.

طالما بدا لي من الخزي أنّ إحراجات الصّبا ينبغي أن تستمرّ في إيلامها على مدى البلوغ بحدّة غير منقوصة. ألا يكفي أنّ حماقاتنا الصبيانيّة قد جعلتنا منكمشين حَرَجًا حينها، حين كانت أعوادنا أطرى ما تكون، أنّه يجب أن تظلّ معنا، لا يرجَى برؤها، آثار حرق جاهزة لتشتعل بألم عند أدنى لمسة؟ نعم: أيّ طيش في زهرة الشباب سيظلّ يجلب معه حمرةَ خجلٍ إلى خدّ التسعيني على فراش موته. ها قد حانت اللحظة إذ يجب أن أضيء واحدة من رُقَعِ ماضيَّ المسفوعة التي أودّ كثيرًا لو أُخْلِّيها في عتمة النسيان الباردة. وهي أنّي بدأت مسيرتي المهنيّة، لا بدور مميّز في إنتاج طليعيّ لا يساوم على الإبداع في سَرَبِ مبنى بعشرين مقعدًا، بل على مسرح الهواة، في قاعة مجتمع يتردّد فيها الصدى، في مسقط رأسي، قبالة جمهور من فاغري الأفواه ضيّقي الأفق. كانت القطعة من مسرحيّات دراما الريف التي ما زالت تكتب آنذاك، كلّها بيريهات إيرلنديّة وهراوات ونسوة متلفّعات يبكين فقدَ أبنائهنّ قرب نيران الخُثّ[70] الزائفة. أحمرُّ خجلًا إلى الآن حين أتذكّر الليلة الأولى. فبينما كانت الجُمَل الهزليّة تُسْتَقْبَل بصمتٍ يتّسم بالاحترام أثارت لحظات التراجيديا العالية عواصفَ من الضحك. عندما أُسْدِلتْ الستارة أخيرًا، كان لما وراء الكواليس جوُّ غرفة عمليّات جراحيّة حيث آخر ضحايا كارثة طبيعية قد مُسِح وخَيِط ونُقِل بعيدًا، ووقفنا نحن الممثّلين مشاةً جرحى، يشدّ بعضنا أزر بعض ويسمع كلٌّ نَفْسَه وهو يبتلع ريقه.

ليتني أستطيع أن أقول كنّا فرقة نابضة بالحياة، فتيان ساحرون

---

70 تراكم نباتات متعفنة ومواد عضوية يوجد في الأراضي الغدقة. يستخرج ويجفف ويُقطَّع. كان يعد المصدر الرئيس للوقود والتدفئة لأجيال وأجيال من الإيرلنديين.

وجميلات لطيفات من بنات البلد، لكن في الحقيقة كنّا حزانى ومجموعة صغيرة كسيفة الحال. كنّا نلتقي للبروفات ثلاث مرات في الأسبوع في قاعة كنيسة شديدة البرودة أُعِيرَتْ إلينا من قسّ أبرشيّة مغرم بالتمثيل. لعبت دور أخي البطل الأصغر مفتول العضلات، الحسّاس، من كان يخطّط ليكون معلّمًا وينشئ مدرسة في القرية. لم أكن قد عرفتُ أنّي أستطيع التمثيل، حتى أخذتني دوْرَا بيدي وقادتني إلى الأضواء. دوْرَا: ربّة إلهاميَ الأولى. كانت ململمة ومكتنزة بشعر خشن بقَصّة قصيرة ونظّارة ذات إطار بلاستيكيّ زهريّ فاتح. أتذكّر رائحتَها اللحميّة المثيرة، التي لا يستطيع حتى أقوى العطور أن يُخْفِيَها تمامًا. كانت قد التحقت بفرقة الـ(البرايوري بلايرز[71]) بحثًا عن زوج، أظنّ، وعِوَضَ ذلك وجدَتني. كنت في السابعة عشرة، ومع أنّها لا يمكن أن تكون قد تجاوزت الثلاثين فلقد بدت كبيرةً جدًّا في نظري، كبرَ سنٍّ يثير الحماس، ضربًا من أمّ معكوسة، شهوانيّة ومدنّسة. ظننتُها لم تكدْ تلتفتُ إليّ، حتى كان مساءٌ أكتوبريٌّ عاصفٌ فأنهينا البروفة مبكّرا ودَعَتني لأصحبها إلى الحانة نديمَ شراب. كنّا آخرَ من غادر القاعة. كانت مشغولة بارتداء معطفها المطريّ ولم تنظر إليّ مباشرة. تمرّ مناسبات يقتنص فيها المرءُ الذاكرةَ في أثناء عملها، وهي تمسح تفاصيل اللحظة وتخزنها لوقت مستقبليّ. بينما كانت دورا تغالب كُمًّا عنيدًا انتبهتُ إلى انزلاقةِ ضوءٍ زيتيّة أسفل جانب معطفها البلاستيكيّ، وموقدِ الكيروسين الذي كان يَتِكّ في زاوية القاعة خلفها وقد دار اللهب الخامد حول الذّبالة التي خفّ وهجها بسرعة أشدّ، والبابِ في الردهة ينفتح، والأشجارِ المظلمة المتكتّلة عبر المدخل، وفلعِ فضّةٍ وهّاجةٍ مثلّمٍ في السماءِ الغربيّةِ العاصفة. أدخلَتْ على الأقلّ ذراعَها في

---

71 Priory Players فرقة مسرحية للهواة.

ذلك الكُمِّ ورنَتْ إليّ بنصف ابتسامة ساخرة، ارتفع حاجبٌ هازئٌ بطريقة دفاعيّة؛ امرأة مثل دورا تتعلّم أن تحتاط للرفض.

مشينا معا صامتين خلال شفق مزرقّ نازلين إلى أرصفة المرفأ، حيث قوارب صيد مربوطة رنّحها الموج وجرس على عوّامة إرشاد سفن بعيدًا في المرفأ رنّ ورنّ. ركّزَت دورا النظر على الطريق أمامها، وانتابني الشكّ المقلق في أنّها كانت تحاول ألّا تضحك. في الحانة قعدَت على مقعد مرتفع ووضعَت ساقًا على ساق، عارضةً ركبةً صقيلة. طلبَت كأس «جِن وتونيك» وسمحَتْ لي بأن أشعلَ عود كبريت بيد مهزوزة وأُمْسِكَه قربَ طرف سيجارتها. لم أكن قد زرتُ حانةً قطّ، ولا طلبتُ شرابًا، أو أشعلتُ سيجارة سيّدة. وإذ التمستُ اقتناصَ نظرة من الساقي كنتُ منتبهًا إلى نظرة دورا الصريحة وهي تجول فوق وجهي، ويديّ، وملابسي. وعندما التفتّ إليها لم تصرف نظرها، رفعت ذقنها فقط ومنحتني نظرة مبتسمة، وقحة، ممعنة. لا أستطيع تذكُّرَ ما دار بيننا من حديث. دخّنَتْ سيجارتها مثل رجل، تسحب نَفَسا بتركيز شديد، كتفاها محدَّبتان وعيناها مضيَّقتان. صدرها كان ممتلئا ووركاها ممتلئتين، اللحم محشور داخل فستانها الرماديّ القصير. دخان السيجارة وأبخرة «الجن» الحلوة الفضيّة لعبا بحواسّي. كنت سأهوى أن أضع يدًا على ركبتها؛ أوشكتُ أن أحسّ بملمس كيلونها الحريريّ المشدود تحت أصابعي. ما زالت تنظر إلى وجهي بتلك الابتسامة نصف الساخرة، المتحدّية، وأنا ازددت تشوّشًا وظللت أحاول تجنّبَ نظرتها. أنهَتْ شرابَها وردّت رأسَها إلى الوراء بحركة مفاجئة وقامت من المقعد وارتدت معطفها وقالت أنّها يجب أن تذهب. حين صرنا عند باب الحانة توقّفَتْ، متيحة لي بعض الوقت كي... لست أدري ماذا. وإذ انعطفَتْ مبتعدةً خُيِّل إليّ أنّي سمعتها تطلق آهةً

حَرَّى صغيرة. افترقنا عند جانب الرصيف. وقفتُ وشاهدتّها تمشي في الظلام بخطى واسعة، مطأطئة الرأس مشدودة الكتفين اتّقاءَ البرد. ضربَتْها ريحُ البحر، فحرّكَتْ خصلَ شعرِها الخشن المجعّدة وألصقَتْ معطفَها على جسمها. طقطقة كعبها العالي على الرصيف كانت مثل صوتِ شيءٍ يمشي صاعدًا عمودي الفقريّ.

بعد ذاك عادت إلى تجاهلي، حتى صادفتُها ذات ليلة خارجة من دورة المياه خلف القاعة، عابسة في وجه نفسها وفي يدها كأس ماء، فداخلتني جرأة جعلت قلبي يدقّ هلعًا، دفعتها داخل الظلام الصوفيّ للفجوة الجداريّة حيث كانت المعاطف توضع وقبّلتُها تقبيلَ الأخرقِ في صنعة الحب ووضعت يدًا على صدرها الساخن المكتنز، المصفّح بصورة مربكة. خلعَتْ نظّارتَها مسايرةً وغامت عيناها وسبحتا في محجريهما مثل سمكتين حالمتين. ذقتُ في فمها دخانًا ومعجونَ أسنان وشيئًا له مذاق أقدام جعل دمي يشتعل. بعد لحظة عُبَابِيّة، وطويلة ضحكَتْ ضحكتَها الخافتة المبحوحة ووضعَتْ يدًا على صدري وأبعدتني عنها، بلطف. لم تزل ممسكةً بالكأس في يدها؛ نظرَتْ إليه، وضحكَتْ من جديد، فارتعش سطح الماء قليلًا، وانحدرتْ قطرة ماء سريعة كزئبق متعرّجةً على جانب الكأس المضبّب.

وهكذا ابتدأت علاقتنا الغراميّة، إن لم تكن تلك الكلمة كبيرة عليها. كانت علاقة لا تكاد تزيد عن بضع قبلات محمومات، تلامس أيد مرتجف، ومضة فخذ حليبيّ البياض في الفجوة ما بين مقعدين في السينما، اشتباك صامت ينتهي بهسيس لا! والفرقعة الكئيبة لانفلات نسيج مغّاطي. أحسبها لم تستطع أن تأخذَني بجديّة كاملة، إذ كنت في الريعان لم أزل.

«أنا (خَطّافة مهد[72])»، كانت تقول هازةً رأسَها ومتنهّدةً تنهُّدَ حسرة على نحو مبالغ فيه. لم أشعر قطّ بأنّي مُنِحْتُ انتباهَها الكامل، لأنّها بدَتْ دائما مشغولةَ البال بعض الشيء، كأنّها كانت تتسمّع شيئًا يتجاوزني، مصمّمة على استجابة مأمولة من مكان آخر. كان ينتابني إذ أعانقها إحساس غريب بأنّها كانت تنظر من فوق كتفي إلى وجود آخر يقف خلفي، شخص ما هي وحدها القادرة على رؤيته، يشاهدنا بألم، ربما، أو غضب عاجز. كانت أيضًا تبتسم لنفسها ابتسامة غير مريحة حين نكون معًا وحدنا، ترتعش شفتاها وتنفرج عيناها، كما لو كانت تستمتع بسرّ، بنكتة جارحة. أعتقد الآن بأنّ شيئًا ما كان لا بدّ في ماضيها- آمالًا محطّمة، خيانة، خطيبًا هاربًا- بسببه من خلالي كانت تنتقم انتقامًا خياليًّا.

لم تكن لتخبرني بأيّ شيء عن نفسها. عاشت في الطرف الشماليّ من البلدة في منطقة خلفيّة تنتشر فيها الجريمة حيث مساكن البلديّة وملاكمات ليلة السبت. مرّةً واحدةً فقط سمحَتْ لي بأن أُمَاشيَها إلى البيت. كان عزّ الشتاء الآن، وكان صقيع ثقيل وكانت الظلمة تتلألأ وكلّ شيء كان في غاية السكون والصمت، وخطانا ترنّ على حديد الأرصفة المتجمّدة. لا تكاد روحٌ تُحَسّ. سابلةُ الليلِ القليلون الذين صادفناهم بدوا لي صورةَ الوحدةِ الخالصة، متلملمين في معاطفهم وأوشحتهم، وشعرت شعورًا مضطربا بالفخر، ماضيًا وذراع هذه المرأة المثيرة الدافئة الغامضة في ذراعي. الهواء الجليديّ كان مثل مطر من إبر متناهية الصغر على وجهي، وذكّرني بلطمة أمّي قبل كلّ تلك السنين، يوم ممات أبي. عندما شارفنا منزلَها أوقفتني دورا وقبّلتني بجفاء وعجّلَتْ وحدها. وقفتُ في سكون الليلة الباردة الشاسعة

---

72 أو سرّاق(ة) مهد: تعبير يطلق على من يرتبط بمن يصغره سنًّا بكثير.

وسمعت خشخشة النقود المعدنيّة وهي تبحث في حقيبة يدها عن المفتاح، سمعت دخول المفتاح في القفل، سمعت الباب ينفتح ثم ينغلق خلفها. كانت ألحانُ فرقة رقص تنبعث من جهاز راديو في مكان ما، موسيقا حادّة، غريبة وحزينة. أَزّ من فوقي شهابٌ خلال قوس مساره الوجيز وراق لي أن سمعته، اندفاعٌ، هَفّةٌ، آهة.

لقد كان من أجل دورا، بعيدًا عن المسرح، أن قدّمتُ عروضيَ الحقيقيّةَ الأولى، أن أدّيتُ أدواريَ الأصليّةَ الأولى. كيف تموضعتُ وتهندمتُ في مرآة نظرتها المتشكّكة. على خشبة المسرح، أيضًا، رأيتُ موهبتي منعكسةً فيها. التفتّ ذات ليلة في منتصف خطاب الستارة[73] - «وأيْنا، يا أخي، سيتذكّره باليْبوغ[74]؟» - واقتنصتُ وميضَ نظّارتها في أجنحة المسرح[75] التي كانت تشاهدني منها بتركيز شديد، وتحت حرارة غِبْطتها المتجهّمة انفتح شيءٌ فيَّ مثلَ يَدٍ ودخلتُ أخيرًا في الدّور كأنّه كان جلدي. لم ألتفت ورائي قطّ، بعد ذلك.

تُسْدَل الستارة، يُسْتَولَى على الفاصل، وفي فضاء الصمت الشّاسع الذي يَرِين على المسرح المفرَغ مدّةً قصيرة، يعبر أسطول ثلاثين سنة. إنّها ليلةُ عرضٍ افتتاحيٍّ أخرى، وفي حالتي، أخيرة. أنا، كما يقول النقاد، وقد لجأوا من جديد إلى كيس كليشيهاتهم، في أوج مجدي. حقّقت انتصارات من هنا إلى أديلايد[76] وإيابًا. مسكتُ في راحة يدي ألفَ جمهور، وعددًا كبيرًا كذلك من الممثّلات البارزات. العناوين الرئيسة التي صنعتها! أَحَبُّها إليَّ ما كتبوا

---

73 آخر مقطع يقال في مسرحية أو في نهاية فصل من فصولها قبل إسدال الستارة.

74 اسم هذه الشخصية يحيل إلى النسخة الإيرلندية من خرافة الغيلان، وهو بعبع صغير قميء مغطى بالطين يعيش في مستنقعات الخُثّ.

75 جزء جانبي من خشبة المسرح لا يراه النظّارة.

76 عاصمة ولاية جنوب أستراليا.

بعد جولتي الأمريكيّة الأولى: ألكْسَنْدَر يجد عالمًا جديدًا ليغزوَه. داخل بدلة درعه الواقية، رغم ذلك، لم يكن شيء في بطلنا المليء بالنقائص على ما يُرام. عندما وقع الانهيار، كنت الوحيد الذي لم يتفاجأ. كانت قد انتابتني لأشهر نوبات وعيٍ مدمّرٍ بالذات. كنت أعكف مكرَهًا على إصلاح جزءٍ من ذاتي، إصبع، قدم، وأحدّق إليه فاغرَ الفم في ضرب من الرّعب، مشلولًا، عاجزًا عن استيعاب كيف بات يؤدّي حركاته، أيّة قوّة كانت تقوده. في الشارع كنت أقتنص لمحةً من انعكاسي على نافذة محلّ، مستخفيًا مطأطئ الرأس مرفوع الكتفين ومرفقاي ضاغطان على جنبيّ، مثل مجرم يحمل جثّة بعيدًا، فأتداعى، وأكاد أهوي، مبهورَ النَّفَسِ كأنْ من لطمةٍ، مرتبكًا أمام المأزق الذي لا مفرَّ منه، مأزقِ أن أكونَ الذي كنتُه. كان هذا أخيرًا هو الذي أمسك بخناقي تلك الليلة وخنق الكلمات في فمي، هذا الوعي البشع، فائض الذات الذي لا يُطاق. نهارَ اليوم التالي دارت ضجّة، بالطبع، وتناقلت الألسن تخمينًا مسليًّا جدًّا عن الشيء الذي ألمّ بي. افترض الجميع أنّ الشراب كان سبب سقوطي. حقّق الحادث شهرة قصيرة. إحدى الجرائد- في صفحتها الأولى، لا أقلّ- اقتبسَتْ من أحدِ الحضور المستائين قولَه أنّ الأمرَ كان مثل شهود تمثال هائل يسقط من قاعدته ويتحطّم أنقاضًا على المسرح. لم أستطع إزاء هذي المقارنة أن أحدّد أبالإهانة أشعر أم بالإطراء. كنت سأفضّل تشبيهي بآغاممنون[77]، مثلًا، أو كوريلانس[78]، بطل كهذين منكوب عظيم يتهادى تحت عبء عظمته.

أرى المشهد في صيغة مصغَّرة، كلّ شيء متناهٍ في الصغر ومفصّل بجنون، كما في واحد من تلك «الماكيتات» التي يحب مصمّمو المسرح أن يتلاعبوا

---

77 في الميثولوجيا اليونانية، هو ملك مسينا والقائد الأعلى للقوات اليونانية في حرب طروادة.

78 القائد الروماني الأسطوري الذي يُعتقَد أنه عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، بطل التراجيديا الشيكسبيرية بالاسم نفسه.

بها. هأنذا عالقٌ هناك، في زي جنرال من ثيفا[79]، فاغر الفم، أخرس كسمكة، والطاقم حولي في توقّف تام، مرتاعين ويحملقون، مثل متجمهرين عند موقع حادث شنيع. منذ رُفِعَتْ السّتارة وكلّ شيء كان ينحرف عن مساره باطّراد. المسرح كان حارًّا، وأحسست وأنا في درعي وبِزّتي بأنّي في قماط وليد. غبّش العرقُ رؤيتي وبدا أنّي أنطق جُمَلي عبر كِعَامٍ مبلّل. صرختُ: «مَنْ ذا يكونُ، إذن، إن لم يكن إيّايَ، أمفِتريون؟[80]»- لَهِيَ الآن في نظري أقوى جملة في المسرح الدراميّ كلّه- وفجأةً انتقل كلّ شيء إلى سطح آخر وكنت هناك ولست هناك في آن. كان الأمر أشبه بالحالة التي يصفها الناجون من نوبة قلبيّة. بدا أنّي على المسرح وفي الوقت نفسه أنظر إليّ في الأسفل من مكان ما فوق الخشبة. لا شيء في المسرح يعدل على نحو مريع إثارةَ اللحظة التي يَجِفّ فيها ممثّل. رأسي كان يدور ويخبط مثل سير ماكينة جامحة مقطوع. لم أنسَ جُمَلي- في الواقع، استطعت أن أراها بوضوح أمامي، كأنّها مكتوبة على بطاقة ملقّن- لم أستطع أن أفوه بها فحسب. بينما اختنقتُ وتعرّقتُ وقف زميلي الشابّ الذي يلعب دور ميركوري[81]، من كان يفترض به وقد تمثّل في صورة خادم أمفتريون (سوسيا) أن يوبّخني بوحشيّة مهينة على ضياع هويّتي، وقف مذهولًا خلف فرجات الأَبْلَكَاش، ناظرًا إليّ بعينين مذعورتين رأيتُ فيهما ذاتي منعكسة في صورتين، أمفِتريونـ(ين) اثنين صغيرين، جاحظين، كلاهما مصاب بالخرس. قُبالتي، في أجنحة المسرح، كانت زوجتي-على-الخشبة (أَلْكميني[82]) تحاول أن تلقّنني ما أقول، تقرأ من النصّ وباهتياج

---

79 ثيفا (طِيبة): مدينة يونانيّة.

80 راجع الهامش رقم 22.

81 إله التجارة وحامي التجار عند قدماء الرومان.

82 زوجة أمفتريون وأمّ البطل الأسطوري هرقل. حملت به من كبير الآلهة جوبيتر (مكافئه اليوناني: زيوس) إذ أغواها متمثّلا في هيئة زوجها.

تحرّك فمها بالجُمَل. كانت فتاة جميلة، أينعَ ممّا تتيحه الطبيعة؛ كنّا منذ بدء البروفات قد ارتبطنا وراء الكواليس بعلاقة عابرة ملتبسة، والآن إذ تلوّت هناك في نصف العتمة الملقي بظلاله، فمها يعمل بصمت مثل صِمَام كائن مائيّ، خجلت لها أكثر ممّا خجلت لنفسي، هذه الطفلة التي كانت في ذلك الأصيل نفسه قد استلقت بين ذراعيّ ذارفةً دموع نشوة كاذبة، ووددتُ لو أعبر المسرح بسرعة وأضع بحنان إصبعًا زاجرة على شفتيها وأخبرها بأنّ الأمر كان على ما يرام، بأنّ الأمور كلَّها كانت على ما يرام. في النهاية، وقد قرأَتْ في وجهي، أظنّ، شيئًا ممّا كنت أفكّر فيه، تركَتْ نصّ المسرحيّة يسقط إلى جانبها ونهضَتْ ونظرَتْ إليَّ بمزيج من الشفقةِ التي لا يمكن إخفاؤها، ونفادِ الصبر، والاحتقار. كانت اللحظة مناسبة بغرابةٍ تثير الضحك للمرحلة التي كنّا قد بلغناها في ما يسمّى علاقتنا الغراميّة- كلانا صامت، عاجز عن الكلام، ويواجه الآخر بيأس أبكم- حتى إنّي على الرغم ممّا أنا فيه من كرب كدتّ أضحك. عوض ذلك، بجهد، وبحنان أكثر ممّا كنت قد استطعت أن أُرِيَها حتّى في أشدّ حبائل الهوى تَمَكُّنًا، أومأتُ برأسي، اعتذارًا وامتنانًا متأسِّفًا، وصرفتُ بصري. في الأثناء، في قاعة المسرح خلفي كان الجوّ مثل وتر كمان قد شُدَّ إلى أقصى حدّ. الكثير كان يسعل. واحدٌ ضَحِكَ ضحكةً مكتومة. لمحتُ وجهَ ليديا الأبيضَ المخطوفَ وهي تنظر إليَّ من الصفّ الأماميّ رافعةً رأسها. وأتذكّر قولي لنفسي: ربّي لك الحمد أنّ كاس ليست هنا. استدرتُ وبخطى جنائزيّة، كأنّي أُخَوِّض في ألواح الخشبة نفسها، انسحبتُ انسحابًا مُزَعْزَعًا وقاتمًا، على صلصلة درعي وصرصرته الهزليّة. كانت الستارة تُسْدَل الآن، استطعت أن أحسّ بها نازلةً فوق رأسي، ثقيلةً ومتينةً مثل بوّابة حصن منزلقة. تعالت من الحضور الآن صيحات الاستهجان، وتناثر تصفيقٌ

متعاطفٌ بحماسٍ قليلٍ هنا وهناك. في عتمة الكواليس أحسستُ بشخوص تركض جيئةً وذهابًا. أحد الممثّلين خلفي نطق اسمي بهمس مسرحيّ غاضب. وإذ لم يتبقَّ سوى ياردة أو اثنتين فقدتُّ أعصابي تمامًا وحاولت أن أنفذ بجلدي فوقعتُ عمليًّا في أجنحة المسرح، فيما ارتجّ المشهد حولي على وقع ضحك الآلهة القاتم الكبير.

كان يجدر بي أن أجد دوْرًا أخرى، فتتهكّمَ بي تهكُّمًا يُخَلِّصني من داء أنانيّتي. كانت ستمسك بعنقي مسكةَ مصارع لاقّةً ذراعها من الخلف حول رقبتي- يمكنها أن تكون عنيفةً، يمكن دورا- وتمسح ثدييها المطّاطيّين على ظهري وتضحك، كاشفةً أسنانها ولِثَاتها ولسان مزمارها بسليلته الزهريّة المرتعشة، فأُشفَى. كيف لي أن أُرِيَ وجهيَ للناسِ، ناسِي، بعد أن سقط القناع بهذه الدراماتيكيّة؟ لذا فررتُ، ليس بعيدًا، ودفنتُ رأسي هنا خجلًا.

قبل هروبي التمستُ المساعدة في اكتشاف ما قد تكونه طبيعةُ مرضي على وجه التحديد، ولو أنّ سعيي كان من باب الفضول، أعتقد، أكثر منه أملًا في الشفاء. في نادي شراب في آخر ليلة منقوعة في «الجن» قابلتُ ممثّلًا مسرحيًّا كان قد عانى انهيارًا مماثلًا على خشبة المسرح قبل بضع سنوات. طار السُّكْر بلبّه الآن، وكان عليّ أن أُمْضِيَ ساعة مروّعة من الاستماع إليه وهو يحكي حكايته الحزينة، بالكثير من الشتائم والتكرار المملّ. ثمّ صحا دفعة واحدة، بتلك الطريقة المربكة التي يستطيعها السكارى البائسون أحيانًا، وقال أنّي يجب أن أرى هذا الرجل- قالها هكذا، بصوت صقيل رنّان أسكتَ الطاولاتِ المجاورة: كليف، يجب أن ترى صاحبي!- وكتب على ظهر قاعدة كرتونيّة لكأس بيرة عنوانَ معالجٍ كان، كما أكّد لي، ناقرًا إصبعًا على جانب أنفه، روحَ التكتّم الخالصة. نسيتُ الأمرَ برمّته، حتى مرّ أسبوع أو اثنان

فوجدت قاعدة البيرة في جيبي، وبحثتُ عن رقم الهاتف، وألفيتُني ذات مساء أبريليّ خامد عند بابٍ بلا علامة تميّزه لمنزلٍ من الطوب الأحمر بلا صفات تسترعي النظر في ضاحية محاطة بالأشجار، شاعرًا بتّوتر لا يمكن شرحه، قلبي قد تسارعت نبضاته وراحتاي تندّتا، كما لو كنت على وشك أن أصعد المسرح كي أقدّم أصعب دور لعبته في حياتي، وهو ما كانت عليه الحال، أعتقد، إذ الدّور الذي يجب أن ألعبَه كان ذاتي، ولا نصّ تدرّبتُ عليه ولا جُمَل حفظتُها.

المعالج، من كان اسمه لويس، أو لوي- لم أكتشف قطّ أهو اسمه الأول أم هو اسم العائلة- كان شابًّا أقرب إلى المشيب بعينين ملتاعتين، بنيّتين غامقتين، وجميلتين جدًّا. صافحني مصافحةَ حانوتيٍّ وصعد بي الدّرجَ المفروشَ الذي جعلني أفكّر في نُزُل أمّي وأودعني غرفةَ انتظارٍ كريهة الرائحة بعض الشيء وضيّقة تطلّ خلال ستائر شفّافة على باحة بصناديق قمامة وقطّة وحيدة. مرّ ربع ساعة. كان في المنزل المجاور مأتم، جوّ انتظار مشحون كما في نبوءة محدّدة بحوادث مرعبة توشك أن تقع. ولا نأمة حرّكَت الصمت. تخيّلت لويس مقفلًا الباب على محادثة صامتة فظيعة بينه وبين بائس منكوب أسوء حالًا ممّا كنت بكثير، ورأيتُني دجّالًا، ومِلْتُ إلى أن أهرب. لكنّه ما لبث أن أتى ودعاني إلى غرفة استشارته في الطابق الأول- مكتب بلون النحاس الأحمر، كرسيّان مريحان بمسندين لكليهما، وسجّادة بيجية- وانطلقت من فوري في هَذَر واعتراف هستيريّ بشعوري بأنّي دجّال كبير. رفع يدًا ناعمة، خالية من الشعر وابتسم، مغمضًا عينيه لوقت قصير، وهزّ رأسه. لعلّه كان نوعَ الأشياء التي اعتاد سماعَها من كلّ مرضاه الجدد. لم أستطع السكوت، رغم ذلك، وقلتُ أنّي حقيقةً لم أدرِ لِمَ كنت هناك، وكنت فَزِعًا حين وافق،

وقلت أنّه هو أيضًا لم يكن يدري. لم أكن قد أدركت أنّه كان يتظرّف. «لم لا تحاول أن تخبرني»، قال بلطف، «ثم ربما سيدري كلانا». تعمّق حذري، إذ شككتُ أنّه قد عرف من كنتُ، وما كان خطبي، فما مرّ سوى أسبوع أو اثنين منذ انرَشَّ عاري، كالقيء، على صفحات الجرائد. ارتأيت أنّه قد يكون سلوكًا سيِّئًا من جانبه، من منظور مهنيّ- أخلاقيّات سيّئة، فعلًا- أن يسلِّم بأيّ معلومات جُمِعَتْ خارج هذه الغرفة. على أيّة حال، ما دام الأمر يتعلّق بساعتنا هذه معًا فـليس هناك خارجٌ. غرفة المعالِج، حيث حتّى الصمت مختلف، هي عالمٌ بحدّ ذاتها. يقينًا، لم تكن تجاربي مع كاس ذات نفع هنا. في الواقع، لم تخطر كاس على بالي بالمرّة. مصائب المرء فريدةٌ على الدوام.

قعدنا على الكرسيّين، متواجِهَين، والمكتب إلى جانبنا مثل حَكَمٍ يَقِظ. ليس عندي إلا ذكرى أشدّ ماتكون ضبابيّةً عن الأشياء التي قلتُها له. مرّتْ لحظات صمت محرجة ومتكرّرة. مرّةً، وكم ضايقني الأمر، مع أنّه متوقَّع، اغرورقت عيناي بالدموع. لم يُضِفْ إلّا القليل، أعني إسهامَه بالكلام، لكنّ حضوره كان يمتلك فصاحة جليّة وإنْ ملغزة. شيئان قالهما لي أتذكّرهما بوضوح. كنتُ قد شكوتُ إليه أنّي لم أكن سعيدًا، وسارعتُ إلى الضحك والقول بأنّي افترضتُ أنّه كان على وشك أن يسألني لم ظننتُ أنّه ينبغي أن أكون سعيدًا، لكنّي فوجئت به يهزّ رأسه، ويلتفت وينظر عبر المشربيّة خلف المكتب إلى أغصان شجرة كستناء في الخارج كانت قد بدأت تورق، وقال أنّه لا، على العكس، رأى بأنّ السّرورَ هو الحالة الطبيعيّة للكائِنات البشريّة. ثم واصل مُنقِّحًا عبارتَه، مُنبِّهًا إلى أنّنا بالطبع لا ندري دائمًا ما هو الطبيعيّ أو الأفضل لنا، لكنّي لم أكد أصغي إلى ما يقول، فلقد أذهلتني الفكرة حتى ألجمتني، تمامًا، وانتهت الجلسة مبكّرا ذلك اليوم.

الشيء الآخر الذي أتذكّره كان قولَه أنّي بدوتُ له مغلوبًا- تلك كانت الكلمة التي استخدمها. رأيتُ هذا الوصف وليدَ توهّم، وعليه حتى مسحة ميلودراميّة، وقلت له ذلك. لكنّه أصرّ على رأيه، بإصراره أعني أنّه لم يجادل أو يعارض، إنّما قعد صامتًا فحسب، يشاهدني بنظرة هادئة حذرة، وبعد لحظة تأمّل كان عليّ أن أوافقه، وقلت، أجل، مغلوب، ذاك كان بالضبط كيف شعرت. «لكن ما الشيء الذي غلبني؟» تابعت، بتلهّف أكثر ممّا هو بتوسّل. «ذاك ما أودّ أن أعرفه». لا حاجة إلى القول بأنّه لم يقدّم إجابة. لم أعد إلى زيارته من جديد بعد ذلك، لا لأنّي كنت خائبَ الأمل، أو غاضبًا لأنّه لم يستطع مساعدتي، لكن ببساطة لأنّه بدا أن لا شيء عندي لأقوله أكثر مما قلته. أحسبه قد شعر بهذا أيضا، لأنّي عندما ودّعته ذلك اليوم صافحني بضغطةِ يدٍ أدفأ من العادة، وابتسامته كانت مثقلة بالأسى الكئيب؛ كانت ابتسامةَ أبٍ يرى ابنه المهموم يخطو خارجًا إلى العالم ليتحمّل مسؤوليّة نفسه. أفكّر فيه بحنين، بما يكاد أن يكون إحساسَ فقد. ربما أنّه قد ساعدني، دون أن أدرك ذلك. الصمت في غرفته تلك كان مثل بلسم. كتبتُ إلى كاس وأخبرتها عنه. كان نوعًا من اعتراف، خلف قناع دعابة ساخرة رديء؛ نوعًا من اعتذار، كذلك، إذ تبوّأتُ مكاني بخجل في الدرجات الدنيا من المجلس الأعلى الذي كانت خبيرةً به أمدًا طويلا. لم تردّ على رسالتي. كنتُ قد وقّعتها باسم: المغلوب.

ما أنا وهذه الفتاة ، هذه الـ(لِلي)؟ إنّها تنهش عقلي، الذي لا يشغله، أدري، سوى القليل. أشعر بشعور مرزبان عنّين أهدَتْ إليه حاشيتُه من جديد محظيّةً أخرى فوق حاجته. وجودها يجعل المنزل يبدو مكتظًّا على نحو لا يطاق. لقد أخلّت بتوازن الأشياء. امرأتي الشبحيّة وطفلها الأكثر شبحيّةً كانا كفايتي دون هذه الفتاة المحسوسة جدًّا لتلاحق أفعالي. أمشي حول وجودها محاذرًا متقاربَ الخطى خشيةَ أن ينفجر في وجهي عند أيّة لحظة. في يوم عملها الأوّل بدوام كامل في خدمتي غسلَتْ نصفَ أرضيّة المطبخ، أخرجَتْ كلّ شيء من الثلاجة وأعادته إليها من جديد، وفعلَت شيئًا بمرحاض الطابق السفليّ فلم يعد بالإمكان شطفُه كما يجب. بعد هذه الأشغال الشاقّة خبا حماسها لأعمال المنزل. يمكن أن أتخلّص منها، بالطبع، يمكن أن أخبر كويرك بأنّي لا أحتاج إليها، بأنّي أستطيع العناية بالمنزل بنفسي، لكنّ شيئا يمنعني. أكنتُ بلا وعي منّي أتوق إلى الرفقة؟ ليس أنّ لِلي، تحديدًا، حلوةُ الرفقة. فهي تطوف البيت حاردةً كأنّها رهنُ إقامة جبريّة. لماذا تبقى، إذا كانت مستاءةً إلى هذا الحدّ؟ أدفع لها مبلغًا زهيدًا، لا يكاد يزيد عن مصروف جيب، فما من مكسب لها، أو لكويرك. وعلى أيّة حال، لماذا فرضها عليّ في المقام الأول؟ ربما يشعر بالذنب على السنوات التي أهمل خلالها المنزل، على الرغم من أنّي أشكّ في أن يكون الذنب واحدًا من الأحاسيس الثقيلة التي تحت وطأة الشعور بها يتحرّك كويرك. تبقى إلى وقت متأخّر في المساء، مسترخيةً على كرسيّ بمسندين في الصالون تقرأ مجلّات صقيلة الورق، أو متأمّلةً وذقن على قبضة يد إلى جوار نافذة، تتابع القلّة المارّة

بالميدان بنظرة غير مرتقبة. مع الشفق يأتي كويرك ليُقِلَّها، يتمايل إلى الباب على درّاجته ويَلُوح في المدخل بمشبكي بنطاله، مهمومًا ورقيقَ الحال مثل قرابةٍ فقيرة. ألحظ اليد الثقيلة التي يضعها على كتفها والطريقة التي تحاول بها بفتور أن تلوي كتفها متخلّصة من مسكته. لا أدري إلى أين يذهبان نهاية اليوم، يشقّان معًا طريقَهما إلى الليل دون غاية، دون اتّجاه محدّد كما يبدو. أشاهد الوهج المتقطّع لنور درّاجة كويرك الخلفيّ يتضاءل في العتمة. أيّةَ حياة يعيشانها بعيدًا عن هنا؟ عندما سألت لِلي يومًا عن أمّها أضحتْ ملامحها فارغة. «ماتت»، قالت ببرود، وأشاحت بوجهها.

هي دائمًا مَلُولَة؛ الملل أسلوبها، وسيلتها. تُسْلِم نفسَها إلى التبطّل بصورة تكاد تكون حسيّةً. شهوانيّةُ كسل. في منتصف أدائها مهمّة معتادة- كنس الأرض، تلميع زجاج نافذة- تتراخى بالتدريج إلى نقطة توقّف، ذراعاها تهويان ضعيفتين، خدّها يميل واهنًا ناحية كتفها، شفتاها تصيران متدلّيتين ومنتفختين. في لحظات السكون ونسيان النفس تلك تكتسب هالة غريبة، تشعّ بضرب من إشعاع سلبيّ، نور ظلاميّ. تذكّرني بكاس، طبعًا؛ في كل بنت أرى ابنتي. هما مختلفتان أشدَّ الاختلاف، بكلّ الأشكال تقريبًا، هذه القذرة الشاحبة وابنتي المندفعة، ولكن يوجد شيء أساسيّ تشتركان فيه معًا. فما عساه يكون؟ هناك اللمحة المخيّبَة الموهَنة نفسها، رقّة العين البطيئة نفسها، والتركيز بجهد متجهّم، حتى إنّ كاس في سنّ للي كانت تهاجمني كلما حاولت أن أقنعها أو أرهبها كي تخرج من أحد أمزجتها المكتئبة. لكن لا بدّ ممّا هو أكثر من ذلك، لا بدّ من شيء أعمق من نظرة، يجعلني أتسامح مع هذا الانتهاك لعزلتي.

لا أستطيع التفكير في الكيفيّة التي تملأ بها لِلي يومَها. أجدني مشدودًا

إلى مراقبة تحرّكاتها. سأتوقّف وأنصت، لا أتنفّس، في ضرب من ترقّب قلق، بالطريقة ذاتها التي كنتُ في أيّامي المبكّرة هنا أنتظر أن يظهر أشباحي. ستصمت لساعات، لا حسّ، ثم فجأة، لحظةَ أرخيتُ تيقُّظي، سينبعث دويّ موسيقا ممزِّق من مذياعها الترانزستور- إنّه يصحبها إلى كلّ مكان كأنّه طرف صناعيّ- أو ينفتح باب غرفة نوم وينصفق مُغْلَقًا، متبوعًا بقرقعة كعبيها على الدّرج، مثل صوت منظِّف نوافذ يسقط من درجات سلّمه. سأصادفها تتدرّب على خطوات رقصها، تهتزّ وتتنقّل على الإيقاع الحادّ في سمّاعات أذنيها وتغنّي اللحن بطبقة عالية بصوت أَنْفيّ مثل وَطّ خفاش. حين تراني أراقبها ستنزع السمّاعات من أذنيها وتتنحّى جانبًا، موجّهةً نظرةً خلفيّةً فظّةً إلى منطقة ركبتيّ، كما لو كنتُ قد استغللتُها استغلالًا جائرًا. تُفتّش المنزل مثلما اعتدتّ أن أفعل هنا عندما كنتُ صغيرًا. لقد طافَتْ بالعليّة- آمل أنها لم تلتقِ أبي- ودخلَتْ غرفتي، أيضًا، أشكّ. ما الأسرار التي تحسب أنّها ستكشف عنها؟ لا مزيد من الضفادع المحفوظة في البرطمانات لتجدها. ذخيرة الصور قد ذهبت كذلك، رُمِيَتْ ذات يوم في نوبة قرف من الذات مفاجئة- أظنني قد شُفِيتُ أخيرًا من شهوة الجنس؛ الأعراض تزول الآن قطعًا بشكل جميل.

إنّها تنهض بأشياء. بدأَتْ دفتر قصاصات في واحد من سجلّات حسابات أمّي القديمة المجلّدة بالقماش، تلصق صور محبوبيها من نجوم «البوب» على أعمدة الأرقام المكتوبة بقلم رصاص وتستخدم صمغًا صنعته بنفسِها من الدقيق والماء؛ كان عليّ بعدُ أن أستدعي كويرك كي يسلّك حوض المطبخ. أحسبه ضربها بسبب ذلك، إذ جاءت في اليوم التالي وكدمة صفراء وزرقاء غاضبة على عظم وجنتها. لا أدري هل كان ينبغي لي أن أتحدّث إليه

في هذا الخصوص. لكنّ المؤكّدَ أنّي لن أحكي له قصصًا عنها مجدّدًا. حاولَت اجتناب نظري يومًا أو اثنين، ثُمّ أمسِ، صوت ارتطام يهزّ الأركان، مثل ذاك الذي لقطعة أثاث ثقيلة تهوي على الأرض، جعلني أهبّ من كرسي وأقفز الدّرج كأرنب بريّ ثلاثَ عتبات في القفزة الواحدة، متوقِّعًا كارثةً ما. وجدتُّها واقفةً في منتصف غرفة أمّي ويداها خلف ظهرها تطحن بإصبع صندلَها في حفرة متخيّلة في المشمّع. «أيّ صوت؟» قالت، ناظرة إليّ نظرةَ براءة مجروحة. وفي الواقع، لم أجد خطأً في الغرفة، على الرغم من نفحة غبار خشب قديم نفّاذة، وتشوّش ضوء الشمس عند النافذة بالهباء. إذا استمرّ الوضع على هذا المنوال ستهدّ المكان على رؤوسنا.

يبدو أنّها لا تأكل شيئا سوى رقائق البطاطا وألواح الشوكولا. وهذه الأخيرة تأتي في تشكيلة محيّرة من المذاقات والحشوات. أجد أغلفتها ملقاةً في كلّ أرجاء المنزل. ممزّقة وملويّة مثل قطع شظيّة، وأقرأها، متعجّبًا من ابتكاريّة صنّاع الحلويات. لكن الشوكولا لا تبدو شوكولا على الإطلاق، مزيج من موادّ كيميائيّة بمقاطع صوتيّة متعدّدة عصيّة على النطق. كيف فاتني كلّ هذا، موسيقا الأدغال، الطعام الزائف المبهرج، الأحذية الغليظة، التنانير الضيّقة بلون الأسيد، تسريحات الشعر، مكياج مصّاصي الدماء، الأرواج المزرقّة، وطلاء الأظفار اللامع والثقيل كدم متخثّر؟ ألم تكن كاس قطّ كهذا وهي مراهقة؟ لا أستطيع أن أتذكّر مراهقتَها. لا بدّ أنّها انتقلَت مباشرة من الطفولة العاصفة إلى المرأة الشابّة التي هي الآن، ولا شيء بين المرحلتين. لقد طمسْتُ الفصل الثاني، بطاقم مستشاريه ومعالجيه ومنوِّميه المغناطيسيّين، دَجَاجِلَةٌ كلُّهم، في رأيي المتحيّز. مرّتْ عبر خدماتهم مثل مسرنمة تمشي الهوينا على صفائح السقف وميزابه، فوق متناول الأيدي

الملحّة الممتدّة من نوافذ العليّة كي تقيّدَها. على الرغم من كلّ شيء، من الشكوك، والخيبة، والحنق حتى- لِمَ لمْ تكن فتاةً عاديّةً؟- فلطالما أُعْجِبْتُ بيني وبين نفسي بحدّتها، باندفاعها، بالاستهلاك الذي لا يَنِي لمخزون ذاتها. مرّت بي لحظات على المسرح، نادرة للأسف، أحسستُ حينها في أعصابي شيئًا من إلحاحها المتكرّر الذي لا يقاوَم على المخاطرة باستقرار الذات.

مع مرور الأيّام لحظتُ تغيُّرًا في اللامبالاة المتبلّدة التي عاملتني بها لِلي في البداية. لقد شرعَتْ حتّى في محاولة بدائيّة لما قد يسمّى في ظروف أخرى تواصلًا. أي أنّها تطرح أسئلة قصيرة أملًا في إجابات طويلة. بماذا قد أخبرها؟ لمّا أتقنْ لغةَ «لِلِي-لاند». يبدو أنّها بحَثَتْ عنّي في مرجع في مكتبة البلدة. أنا منبهر؛ فتاة بذوق لِلي ومواقفها لا تغامر باستخفاف وسط رفوف الكتب. عندما اعترفَت بهذه البحوث احمرّتْ خجلًا- شيء بديع، رؤية لِلي تحمرّ خجلًا- ثم غضبَتْ من نفسها، وقطّبت بشراسة وعضّت شفتها، وردّت شعرها إلى الوراء بحركة عنيفة، كأنّما صفعَت نفسها. تعجّبَتْ من عدد المسرحيّات التي شاركتُ فيها؛ أخبرتُها بأنّي شيخ كبير، وأنّي بدأت التمثيل صغيرًا، شيء من سخافة متودّدة جعلها تلوي زاوية فمها. سألتني هل كانت الجوائز التي يذكر كتاب *Who's Who*[83] أنّي حصلت عليها قد احتوَتْ مبالغ ماليّة، وخاب أملها حين قلت لها مع الأسف لا، مجرّد تماثيل صغيرة عديمة النفع. مع ذلك، بدأَتْ بوضوح تعتبرني شخصًا ذا مكانة اجتماعيّة على الأقل. اهتمامها بإمكانيّة معرفة شخص مشهور خفّفَ منه شكُّها في أن يختارِ أيُّ أحدٍ له من الشهرة نصيب أن يأتي إلى هذه المزبلة، بهذا الوصف كانت تشير دائمًا إلى مسقط رأسها، ورأسي. سألتُها هل ذهبَتْ قطُّ إلى المسرح

---

83 إصدار سنوي متجدد يضم بيانات سيرية مفهرسة لأعلام البلد ومشاهيره في جميع مناحي الحياة. أقدم نسخه وأشهرها هي النسخة البريطانية التي لم تزل تصدر منذ العام 1849.

فخزّرَتْ عينيها بشكل دفاعيّ.

قالت: «أنا أذهب إلى السينما».

«وأنا كذلك، يا لِلِي»، قلتُ، «وأنا كذلك».

تستهويها أفلام الإثارة، والرعب. وماذا عن الأفلام الرومانسيّة؟ سألتُها، فنخرَتْ هازئةً وقلّدَتْ حركة إقحام إصبعين في أسفل حلقها. إنّها طفلة متعطّشة للدم. سردَتْ بتفصيل يجلب النّعاس حبكةَ فِلْمها المفضّل، فلم إثارة وتشويق اسمه *Bloodline*[84] «سُلالة». ومع أنّي ربما قد شاهدتّه، وضوء الشاشة منكسر في دموعي، ذات أصيل من آصالي السريّة في السينما- لا بدّ أنّي قد رأيت كلّ الأفلام التي عُرِضَتْ في تلك الأشهر الثلاثة أو الأربعة- فلم أستطع متابعة سردها، لأنّ القصّة كانت معقّدة على نحو مزدحم تعقيدَ تراجيديا انتقام، ولو أنّ ناتج جثثها أعلى بكثير. في النهاية تغرق البطلة.

شعرَت لِلِي بخيبة أمل كبيرة، أستطيع أن أرى ذلك، لأنّي لم أمثّل في فلم سينمائي. أخبرتها عن انتصاراتي وجولاتي، عن هاملتـ(ي) في إيلسينور، وماكبثـ(ي) في بوخارست، عن أوديبـ(ي) الشهير في سيجيستا- أوه، أجل، كنت سأمسي نجمًا عالميًّا، لو لم أكن في صميم القلب خائفًا من العالم الكبير وراء هذه السواحل الآمنة- لكن ما الذي يعنيه أيٌّ من هذا لها مقارنةً بدور بطولة على الشاشة الفضيّة؟ أريتُها المشية المائلة التي ابتكرتُها لريتشارد(ي) الثالث في ستراتفورد- أونتاريو، واعتدتّ أن أكون فخورًا بها للغاية، لكنّها تراها هزليّة؛ تقول أنّي أبدو أَشْبهَ بأحدب نوتردام. أظنّها تجدني في العموم مضحكًا جدًّا، وِضْعاتي، رائي- راء الممثّل- المفخّمة، كلّ حركاتي وخلجاتي الصغيرة، أكثر إضحاكا من أن تُبَدَّد على الضحك فحسب. ضبطتّها

---

84 فلم أمريكي، 1979، من إخراج ترنس يونغ وبطولة أودري هيبورن وبِن غازارا.

تشاهدني، بعينين مترقّبتين مفتوحتين على اتّساعهما، منتظرةً أن أؤدّي بلاهةً جديدةً رائعة. دَرَجَتْ كاس على أن تنظر إليَّ مثل ذلك حين كانت صغيرة. ربما كان يجدر بي أن أذهب في الكوميديا أكثر. لربما صرتُ—

*

حسنًا. لقد اكتشفتُ اكتشافًا خطيرًا. لا أكاد أدري رأيي فيه، أو ما أنا فاعلٌ بشأنه. ينبغي أن أكون غاضبًا لكنّي لست غاضبًا، مع الاعتراف بأنّي أشعر بشيء من الحمق. لربما مرّت دهور قبل أن أكتشفه لولا أنّي قررت لِهَوًى في النفس أن أتبع كويرك حين لمحته في البلدة اليوم. طالما كنت مفتونًا بتتبّع الناس. أعني أنّي أطاردهم خلسةً، أنتقيهم كيفما اتّفق في الشارع وأصير ظلَّهم، أو أنّي اعتدتُّ مطاردتَهم، أيًّا يكن، قبل أن أصبح ما تسمّيه الجرائد، أما زالوا يلاحقون أخباري، ناسكًا. هي رذيلة غير مؤذية، والاستمتاع بها يسير- يملك البشر إحساسًا ضئيلًا بذواتهم بوصفها موضوعات تأمّل في العالم الموجود خارج رؤوسهم، ونادرًا ما سيلحظون اهتمام شخص غريب بهم. لا أدري ما الشيء الذي آمل أن أجده، محدِّقًا بتوقٍ كهذا إلى حيوات أخرى. اعتدتّ أن أخبر نفسي بأنّي كنت أجمع مادّةً- مشية، وقفة، طريقة حمل جريدة أو اعتمار قبّعة- شيئًا من أشياء الحياة الحقيقيّة أستطيع أن أنقله خامًا إلى خشبة المسرح فأضيفَ إليه وأُضفيَ على أيّما شخصيّة صادف أن أجسّدها آنذاك لمسةً من لبوس الحقيقة. لكن هذا ليس هدفي، حقيقة ليس هو، أو ليس هو بالكامل. وفضلًا عن ذلك، لا يوجد شيء اسمه لبوس الحقيقة. لا تسئ فهمي. لست «توم (البصباص)[85]»، منحنيًا وعرقه الحارّ يرشح وعينه ترفّ مصمَّغةً إلى ثقب مفتاح. ليس ذاك النوع من الإشباع

---

85 توم البصباص أو الموصوص: اسم يطلق على كل من يسترق النظر إلى الناس في خلواتهم، أو من يشبع رغبته الجنسية باختلاس النظر إلى أعضائهم أو ممارساتهم الحميمة.

ما أسعى وراءه. في أوّل زواجنا أنا وليديا عشنا في شقّة غائرة في الطابق الثالث من منزل متداعٍ ضمن صفّ منازل من العهد الجورجيّ، والحمّام على بعد عتبات قصيرة صعودًا، وعبر نافذته العالية الصغيرة، إذا أتلعتُ عنقي، أستطيع أن أرى خافضًا بصري غرفة نوم شقّة في المنزل المجاور، حيث في معظم الصباحات، ولا سيّما حين يكون الطقس معتدلًا، ألمح فتاة عارية تتجهّز ليومها. شاهدتّها هناك كلّ صباح خلال فصلي ربيع وصيف كاملين، ركبتي على مقعد المرحاض تهتزّ مضغوطةً ورقبتي السلحفاتيّة تمتدّ مشدودةً؛ لعلّي كنت راعيًا أثينيًّا وهي حوريّة في تبرّجها. لم تكن على وجه التحديد جميلةً: صهباءُ، ثخينةُ الخصر، وبمظهر شاحب عليل. لكنّها فتنتني. لم تكن واعيةً بكونها مراقَبَة، ولذا كانت- ماذا سأقول؟ - حُرّةً. لم أشهد قطّ براءةَ لفتةٍ كهذه. كلّ حركاتها- تسريح شعرها، سحب بنطالها، شبك مشبك خلف ظهرها- تنطوي على اقتصاد فاق مجرّدَ البراعة الملموسة. كان هذا ضربًا من الفنّ، بدائيًّا ومتطوّرًا للغاية في آن. لا شيء كان مُهدَرًا، لا رفعة يد، ولا ميلة عِطْف؛ لا شيء كان للاستعراض. ودون أن تدري، في استغراق كامل في الذات، حقّقَتْ مطلعَ كلّ يوم في غرفتها المتواضعة النموذجَ الأمثلَ للحسن والرقّة. جمال حركاتها البسيط والرزين كان، وكم آلم الممثّل فيّ أن يعترف، عصيًّا على التقليد: حتى لو أمضيتُ حياةً كاملةً أتدرّب لما استطعت أن آمل في أن أطمح إلى الأناقة التلقائيّة في أبسط لفتات هذه الفتاة. كلّه كان يعتمد، بالطبع، على أن لا تفكير مرتبط بالذي كانت تفعله، لا إدراك. لو أنّها لمحت عيني التّهمة في نافذة الحمّام لمحة واحدة، وأنا أشاهدها، لاندفعتْ مذعورةً كي تواريَ عُرْيَها بكلِّ رشاقةِ كرسيٍّ قابلٍ للطيِّ يُطْوَى، أو أسوء، لانزلقتْ إلى زيف استعراضٍ واعٍ بالذات. بريئةً من كونها مشاهَدةً، كانت عاريةً؛

واعيةً بعيني عليها، كانت ستتحوّل إلى متعرِّية. أشدُّ ما فيها إبهارًا، أظنّ، كان افتقارَها إلى التعبير. وجهها كان فارغًا تمامًا، قناع بلا ملامح تقريبًا، حتى إنّي لو كنت قد صادفتها في الشارع- أنا واثق بأنّي قد فعلت لا بدّ، كثيرًا- لما عرفتُها.

إنّ هذا النسيان، هذا الفقد للحضور البشريّ، هو ما أجده فاتنًا. في مشاهدة شخص غير مدرك لكونه مُشَاهَدًا يلحظ المرء حالة كينونة فوقَ، أو غيرَ، ما نظنّ أنّه الإنسان؛ إنّه أن تشاهد، مهما استعَصَتْ سبل النّظر، الذاتَ ذاتَها وقد كُشِفَ عنها القناع. الأشخاص الذين اخترت تعقُّبَهم في الشوارع لم يكونوا قطّ من ذوي الخلقة العجيبة، أو الكُسحان، أو الأقزام، أو البُتْر، أو المنكودين بعَرَج، أو حَوَل، أو وحْمة؛ ولئن اخترتُ مسكينًا مبتلًى مثلهم، فليست بلواه سببَ انجذابي إليه لكن لأنّ ما فيه كان رتيبًا وشائعًا جدًّا. على طاولة أصنافي، لا الجمال يؤهّل ولا القبح يقصي. في الحقيقة، الجمال والقبح ليسا صنفين صالحين للاستعمال هنا- نظرتي الباحثة لا تخضع لأيّ مقاييس جماليّة. أنا مختصّ، بتجرّد مختصّ، مثل جرّاح، مثلًا، يتساوى في عينه التشخيصيّة نهدا فتاة متبرعمان وحلمتا شيخ متهدّلتان، يلقاهما بالاكتراث نفسه، واللامبالاة نفسها. ولا أنا ممّن يزعج نفسه بالعميان، كما قد يُتَوَقَّع من مطارد سريٍّ بمثل خوفي، وحذري من الانتباه إليّ أو الارتياب فيّ. فعلى الرغم من نظرة الأعمى المسدلة والفارغة فإنّه دائمًا أوخى للحذر من المبصر- أشدّ تيقُّظًا حتى، يمكن القول- غير قادر على أن يريح وعيه بالذات لحظةً وهي تفاوض طريقه التيقة خلال هذا العالم المتوعِّد، والمتعدِّد الزوايا.

من طرائدي المفضّلة كان المتبطّلون، المتشرّدون والسكارى المترنّحون، طالما نحتنا منهم مجتمعًا مزدهرًا. أعرفهم كلّهم. الرفيق السمين بقبّعته

ثلاثيّة الألوان المحيكة باليد، الرجل الذي كان يشبه درويشًا معذَّبا وكانت يده اليسرى ممدودةً أبدًا بطاس شحاذة، المتسكّع على أقلّ من مهله بقدميه الحافيتين القشريّتين، النسوة الغجريّات الهائجات، السكِّيرة المتفوّهون ببذاءات، ومقاطع من الشعر اللاتينيّ. هذا هو مسرح الشوارع الحقيقيّ، وهم ممثّلوه المتجوّلون. كانت فتنتي في المسافة بين ما كانوا عليه الآن و ما لا بدّ قد كانوه ذات يوم. حاولت أن أتخيّلهم وِلْدانًا في الأحضان، أو حُبَاةً على أرض شقّة ضاجّة أو كوخٍ معزول، تحرسهم أعينٌ مُحِبَّة، وتحملهم أيدٍ حَنُونَة. لأنّه كان عليهم أن يمرّوا مرّةً بالطفولة، في ماضٍ لا بدّ أنّه يبدو الآن لهم بعيدًا ومشرقًا على نحو مستحيل كأنّه فجرُ العالم.

فضّلت المنبوذين لأنّهم، بكونهم منبوذين، بصرف النظر عن تأثيرهم الجوهريّ صنفًا، لم يكونوا عرضة للإفلات منّي فجأة بالاختفاء في «بوتيك» أنيق، أو بالانعطاف عند بوّابة حديقة ريفية، باحثين بتجهّم عن مفتاح. امتلكنا حريّة الشوارع، أنا وَهُمْ، وساعاتٍ كنتُ أتبعهم- ممثّلٌ، ولا سيّما في سنواته المبكّرة، يملك الكثير من الوقت في جعبته- على طول الأرصفة الحالمة، خلال تنسيق الحدائق العامّة اللئيم بعض الشيء، وقد تعالت أصواتُ العصر بصخب أطفال المدارس المُخْلَى سبيلهم، وخطوطُ السماء العريضة فوقنا أمست زرقاء كقوقعة بلح بحر، وحركةُ المرور المسائيّة ابتدأت، مطلقةً القطعانَ خلال الغسق، منكوزةً وثاغية. ومع المتعة الخاصّة التي أحصل عليها من هذه الهواية المختلَسة تأتي كآبة محدّدة، بسبب ما أفكّر في أنّه «مبدأ الريبة». كما ترى، ما دمت فقط أشاهدهم دون معرفة منهم فإنّي بمعنى ما على اتّصال حميم بهم، إنّهم بمعنى ما مِلْكِي، أمّا إن كان لهم أن يصيروا حاسِّين بي متتبِّعًا خطاهم فإنّ ما يثير اهتمامي بهم- افتقارَهم

إلى الإدراك، حريّتَهم من الوعي بالذات، طمأنينتَهم الذاهلة الرائعة- سيزول على الفور. قد أرى، لكن لن يمكنني أن ألمس.

ذات نهار واجهني واحدٌ منهم. كانت صدمةً. كان سكّيرًا، رجلًا قويًّا، عنيفًا، في مثل سنّي، بفكّ محمرّ خشن والعينين المرزوءتين لقدّيسٍ يسعى نحو الشهادة. كان يومًا باردًا في مارس، ولكنّي بقيت ملتصقًا به. آثَرَ أرصفةَ المرفأ، لم أدرِ لماذا، إذ إنّ ريحًا قارصةً كانت قد هبّت من النهر. تواريتُ خلفه وياقتي مرفوعة، بينما مشى في مرح متعثّر، أذيال معطفه تموج وياقة قميصه مفتوحة- هل يطوّرون بصورة ما مناعةً ضدّ البرد؟ كان جيب معطفه يُؤْوِي قارورة سمينة كبيرة، ملفوفة في كيس ورقيّ بنيّ، عنقها مكشوف. عند كل اثنتي عشرة خطوة تقريبًا يتوقّف وبحركة مسرحيّة يخرج القارورة، ما زالت في كيسها، ويجرع جرعة طويلة، متهزهزًا على كعبيه. وفيما يجرع كان حلقه يمرِّر تشنّجاتِ جماع. هذا العَبّ الجبّار المتكرّر ليس له تأثير ملحوظ عليه ما خلا ربما أن أضفى على خطوته الواسعة ارتباكًا لحظيًّا متعثّرًا. ظللنا نتمشّى على هذه الحال نصفَ ساعة، أسفل جانب من الأرصفة وأعلى الآخر- بدا أنّ إيقاعه كان مرسومًا في ذهنه- وكنت مستعدًّا لأفترق عنه، إذ كان واضحًا أنّه لم يكن ليصل إلى أيّ مكان، فإذا به قد حاد جانبًا عند أحد الجسور إلى طريق المشاة، وحين عجلت لألحق به وجدتُّ نفسي في مواجهته. كان قد استدار وتوقّف، وكانت وقفته مصحوبة بيد ضاغطة على حاجز الجسر بثبات، رأسٍ مرفوعٍ وفمٍ متهيِّئ بصرامة، ناظرًا إلي بنظرة متحدّية. أحسست برِعدة ذُعر- شعرت بمثل شعور تلميذ مدرسة صغير بوغت بمقلب- ونظرت حولي بسرعة بحثًا عن مهرب. لكن على الرغم من أنّ الطريق كان واسعًا، وكان من السهل أن أفرَّ منه، فإنّي لم أفعل. واصل التحديق إليّ بعينيه

المقروحتين، والمستجوبَتين بإلحاح. لا أدري ماذا توقّع منّي. افتضحتُ، إنّها الكلمة الوحيدة، أن تعترضك طريدةٌ بهذا الشكل، لكنّي جزئيًّا كنت أشعر بالحماس، أيضًا، وجزئيًّا- مع أنّ الكلمة ستبدو غريبة- بالإطراء، كما قد يُشبِع كبرياءَ شخصٍ أن يحظى بانتباهة حيوان متوحّش من البريّة. هبّة ريح جعلت ياقة معطفه تفرقع مثل عَلَم وهزّ هو نفسه هزّةً مقشعرّة. ارتجفتُ من البرد. كان العابرون يلمحوننا بفضول واستنكار، متشكّكين في طبيعة التجارة التي تخيّلوا أنّا كنّا متورّطين فيها. تلمّست داخل جيبي ووجدتُّ ورقةً نقديّة وعرضتُها عليه. نظر إلى المال بدهشة وحتّى، ظننتُ، بمسحةِ استياء. أصررتُ، بل ذهبت أبعد من ذلك فضغطت الورقة في يده المبقّعة والحارّة. بات سلوكه متنازلًا على نحو إيجابيّ؛ كانت له الملامح الكبيرة نصف المبتسمة، ونصف المندهشة لخصمٍ سمحتُ لنفسي بالوقوع بِخُرْقٍ في براثن سلطته. لعلّي قلتُ شيئًا، لكن ماذا كان بوسعي أن أقول؟ خطوت متجاوزًا إيّاه بسرعة وعجلت في المشي، عبر الجسر، دون أن أجرؤ على الالتفات. خلت أنّي سمعته يقول شيئًا، ينادي شيئًا، لكن مع ذلك لم ألتفت. كانت نبضات قلبي تتسارع. على الجانب الآخر من الجسر بطّأت خَطْوي. أستطيع أن أخبرك، كنتُ أرتجف ارتجافًا مريعًا. على الرغم من هيئة الرجل الشرسة فإن اللقاء قد حمل في طيّاته شيئًا حميمًا بشكل يبعث على الغثيان جعل عين بصيرتي تلحّ على أن تنصرف عنه. القواعد قد كُسِرت، حَدٌّ قد تُعُدِّي عليه، وحرمةٌ قد انْتُهِكت. لقد أُجْبِرَتُ على أن أمرَّ بلحظة بشريّة، والآن كنت مشوَّش الذهن، ولم أدرِ فيمَ أفكّر. شظايا نيّرة غريبة لاحتمالات ضائعة وَمَضَتْ في عقلي. ندمت على أنّي لم أسأل الرجل عن اسمه. ندمت على أنّي لم أخبره باسمي. تساءلت، بوخزة روّعتني، هل سأصادفه لو مرّةً من جديد.

لكن ماذا تخيّلتُ أن أفعل، إن هو اعترض بجرأة طريقي على أيّ جسر آخر، في أيّ يوم آخر، وتحدّاني؟

على أيّة حال، كما كنت أقول، كنت اليوم في البلدة في هاتف عموميّ، أُكَلِّم ليديا، حين لمحتُ كويرك خارجًا من مكتب المحاماة حيث يعمل- على أنّ الكلمة، أنا متأكّد، قويّة بزيادة على وصف ما يعمله في ما يتعلّق بكسب العيش. كان يحمل مجموعة مظاريف مصنوعة من ورق مانيلّا تحت ذراعه، ويظهرعلى وجهه البعدُ المتجهِّم لمن يؤدّي واجبًا. «ها هو كويرك»، قلت في السمّاعة، في هفوة من هفوات كلامي غير ذات الصّلة التي كانت ليديا تجدها مثيرةً للغضب. كانت المرّة الأولى التي تحدّثنا فيها منذ قطعتُ خطَّ الهاتف في المنزل، وكان الشعور غريبًا. كانت ثَمَّ المسافةُ ما بيننا- لعلّها كانت تتحدّث من الجانب المظلم من القمر- لكنّ الأوضحَ كان الإحساس الثابت الذي أحسسته بأنّها لم تكن هي التي على الخطّ حقيقةً، إنّما تسجيل، أو حتى محاكاة آليّة لصوتها. هل غُصْتُ بعيدًا في نفسي إلى حدّ أن تبدو أصوات الأحياء لي صنيعةَ آلة؟ كانت «الكابينة» منتنة برائحة بول وأعقاب سجائر مسحوقة، وكانت الشمس حارّةً على الزجاج. كنت قد اتصلّت كي أسأل عن كاس وأين كانت. على الرغم من أنّي يجب أن أفكّر في كاس بوصفها امرأة ناضجة – هي الآن في الثانية أو الثالثة والعشرين من العمر؟ الروزنامة لا تبدو واضحة، من حيث أقف الآن- جزء من راحة بالي يعتمد دائمًا على معرفة، وإن على التقريب، أين تكون. راحة بالي، حلوة تلك الكلمة. آخر ما عرفته عنها أنّها كانت تنجز بحثًا من طبيعة غير محدّدة ومن دون شكٍّ ملغزة- حتى لا أقول رعناء- في منحدر يصعب نطق اسمه من منحدرات

البلدان المنخفضة[86]؛ الآن، يبدو، هي في إيطاليا. «تلقّيت مكالمةً غريبةً منها»، كانت ليديا تقول، كأنّ مكالمةً من كاس ستكون أيَّ شيءٍ إلّا غريبة. سألتُ هل كانت على ما يرام. هكذا اعتاد أحدنا أن يسأل الآخر في الأيّام الخوالي، بارتعاشٍ قلق، غير قابل للتهدئة: هل هي على ما يرام؟ صمت ليديا القصير على الخطّ كان المعادِلَ لهزّة كتفين. للحظة لم ننبس بكلمة، ثم بدأتُ أَصِفُ قَفْزَ كويرك الغريبَ بقدميه الصغيرتين- كيف أنّ حركتَه مُنَمْنَمَة، على رَجُلٍ بحجمه وثقل رأسه- فغضبتْ ليديا، وغَلُظ صوتُها.

«لماذا تفعل هذا بي؟» كادت أن تُعْوِل.

«أفعل ماذا؟» سألتها، وفي الحال، دون كلمة أخرى، قفلَتْ الخطَّ في وجهي. وضعتُ المزيد من القطع النقديّة وشرعت في طلب الرقم مجدّدًا، ثم توقّفتُ؛ ماذا كان سيقال أكثرَ مما قيل؟ ماذا كان هناك ليقالَ من الأساس؟

لم يكن كويرك قد رآني خلف زجاج «الكابينة» القذر، وقد انحنيتُ على السّماعة مثل رجلٍ يداري وجع ضرس، وقرّرتُ أن أتبعه.لكن لا ينبغي أن أقول قرّرت. فأنا لم أطارد أحدًا قطّ خلسة عن وعي كامل. بالأحرى، سأجد نفسي قبلُ على الطريق، شاردَ الذهن، كما كان الحال، نصفُ تفكيري في شيء آخر، لكنّ نظري مثبّتٌ على... على ضحيّتي، كنت على وشك أن أقول. كان صباحًا من نسيم دافئ وضياء ثقيل. كان كويرك يمشي على طول الجانب الظليل من الشارع وأوشكتُ مرّة أن أفقده، عندما غطس برأسه في مكتب البريد، لكن لم أكن لأضيع ظهره المنحني العريض وحذاءه الرماديّ الواطي الذي لحق به وجوربه الأبيض المتّسخ. تلكّأتُ عند نافذة صيدليّة في الجهة المقابلة، أنتظره. ما أصعبَ، من خبرتي الطويلة في تتبّع الناس، أن تركّز على

---

86 أو الأراضي المنخفضة، مصطلح تاريخي يشير إلى المنطقة الساحلية المنخفضة في شمال غرب أوروبا. تضم الآن ثلاث دول: هولندا ، بلجيكا، لوكسمبورغ، وأجزاء من فرنسا وألمانيا.

انعكاسٍ في نافذة محلّ دون أن تسمح للسلع المعروضة بأن تشتّت انتباهك، مهما بدت أقلَّ جاذبية من العالم الملمَّع العابر المنعكس على سطح الزجاج الذي تقف هذه المعروضات خلفه بقلق. ملتهيًا بملصقات دعائيّة لمرطّبات شمس عليها صور جميلات يتشمّسن، ثمّ على الأخصّ بتشكيل خجول من كمّاشات فولاذيّة لامعة مصمّمة، أعتقد، لخِصَاء العجول، كدتُّ أُفوِّت عودةَ ظهور كويرك. تحرّكَ، لا يحمل الآن شيئًا، بخطى مسرعة وانعطف عند زاوية متّجهًا إلى أرصفة المرفأ. قطعت الطريق مستعجلًا فانحرف صبيٌّ توصيلٍ بدرّاجته وكال لي الشتائم، لكنّي حين استدرت حول الزاوية لم أجد أثرًا لكويرك. وقفت ومسحت المكان بنظرة مدقّقة، بحثًا عن علامة تدلّ عليه وسط نوارس حائمة، ثلاثة قوارب صيد بالجاروفة، وتمثال برونزيّ يشير بإلحاح غامض إلى البحر. عندما يختفي مطارَد بطريقة كهذه تزداد غرابة الأشياء العاديّة، تنفتح في العالم فجوة مُنذِرة، مثل شقّ السماء الزرقاء الذي لمحه الصينيّ في الحكاية القديمة مساءً بين التلّ والمدينة السحريّة التي يُفترَض بأنّها تقف عليه. ثم فطنت إلى الحانة، محشورةً في زاوية بين محلّ أسماك وبوّابةِ باحةِ ورشةٍ لإصلاح السيارات.

كان مَبْنًى على الطراز القديم، الورنيش على الباب بُنيّ بلون النيكوتين وعتبتا النافذة ممشوطتان ومجدولتان كي توهما بتجزّع خشبي، والنافذة مظلّلة بلون بنيّ داكن غير مُنْفِذ للأشعة ينتهي إلى زركشة دقيقة بطول ست بوصات في الأعلى. كان في المكان بصورة ما شيءٌ من كويرك. دخلت مِتعثّرًا في العتبة البالية. كان المكان خاليًا، المشرب مُهمَل. في مَرْمَدةٍ على الطاولة سيجارةٌ منسيّةٌ كانت تُدخِّن نفسَها بسرعة خفيّة، باعثةً عمودًا مستقيمًا قصيرًا من دخان أزرق. على رفٍّ غمغم راديو قديم. وراء روائح

الحانة المعتادة شممتُ نفحةً من مزيج زيت محرّك وماء أجاج آتيةً من المبنيين الملاصقين من كلّ جانب. سمعت من مكان ما في الخلفيّة المعتمة مرحاضًا يُشطَف وبابًا متهالكًا يُفتَح بصعوبة، ثم طلع كويرك وهو يمشي متثاقلًا إلى الأمام ويربط حزامه ويمرّر إصبعًا سريعة أسفل سحّاب بنطاله. التفتُّ جانبًا على عجل، لكنّي لم أكن محتاجًا إلى أن أفعل، لأنه لم يُلقِ حتّى نظرةً ناحيتي، إنّما مشى متجاوزًا إيّاي وخارجًا من الباب بمظهر الناسي ذاتَه، مخزِّرًا عينيه في وجه الضوء.

لم أزل أتساءل من يا ترى من مديري العالم السريّين ترك سيجارته تحترق على المشرب.

خلال الدقيقة التي كنت أنفقتُها في الحانة كان الصباح قد غام. ركام من سحب قزعيّة مهدّبة بالفضّة قد عُلِّقتْ فوق البحر، تتحرّك نحو اليابسة متوعّدةً. كان كويرك قد عبر إلى الرصيف الخشبيّ وكان يتخبّط في مشيته، مثل رجل حَسَرتْ طَرْفَ عينيه الدّموع. أم تراه كان ثملًا، أتساءل؟ الأكيد أنّه لم يُطِل المُكْثَ في الحانة إلى حدٍّ أن يُسْكِرَ نفسَه. لكن بينما تبعته لم أكفّ عن التفكير في أنّه كان مثقلًا بالعجز، في كرب عظيم. وفجأة استولت عليّ بعنف ذكرى حلم حلمته ذات ليلة قريبة، وكنت، حتى اللحظةِ، قد نسيتُه. في الحلم كنت جلّادًا، مُعَذِّبًا محترفًا بخبرة طويلة، متفنّنًا في إيقاع الألم، أتى إليّ الناس- طغاة، صائدو جواسيس، زعماء عصابات- ليوظّفوا خدماتي الفريدة، لمّا كانت جهودهم الذاتيّة وتلك التي لأكثرِ أتباعِهم حماسًا قد باءت كلّها بالفشل. ضحيّتي الحاليّة كانت رجلًا ذا حضورٍ طاغٍ، وثقةٍ وعزيمةٍ عظيمتين، ضخمًا، ملتحيًا، من نوعيّة الأبطال ذوي المكانة الرفيعة الذين اعتدتُ أن يُسْنَدَ إليّ لعب أدوارهم في السنوات الأخيرة من رحلتي في

التمثيل،إذ رُئي أنّي قد اكتسبتُ فخامةَ وِقفة وشّاها المشيب. لا أدري من يفترض به أن يكون، ولا عرفته في الحلم؛ يبدو أنّه كان من أصول المهنة ألّا أعرفَ هويّةَ من دُعِيت لأمارس عليه فنون إقناعي أو جرائمَه المفترضة. كانت تفاصيل أساليبي غامضة؛ لم أستخدم أيّةَ أدوات، لا ملاقط أو مهاميز أو حدائد مُحمّاة، كنت أنا نفسي أداةَ التعذيب. أمسك ضحيّتي وأنهيها ببطء حتى تنثني عظامها وتنهار أعضاؤها الداخليّة. كنت لا أقاوَم، ولا أحتمَل؛ الجميع استسلموا، عاجلًا أو آجلًا، تحت خدماتي الفظيعة. الجميع، يعني الجميع، ما عدا هذا البطلَ الملتحي، الذي كان يهزمني ببساطةٍ بعدمِ إعارتي انتباهًا كافيًا، بعدم الاعتراف بي. أوه، كان في ألم مبرّح، أجل، كنت أُلْحِق به أشدَّ صنوف العذاب، تحفًا من الألم جَعَلَتْه يتلوّى ويرتعد ويصرّ بأسنانه، لكن بدا الأمر كما لو كان هو من يُعذِّب نفسَه، كأنّ معاناته كانت وليدةَ ذاته، وأنّ ذاتَه لا أنا هي الحقيقةُ بمقاومتِه، أن يقاوم إرادتَه وحماستَه وقوّتَه التي لا تلين. ربما لم أكن جزءًا من العمليّة على الإطلاق. استطعت أن أحسّ بحرارة جلده، أن أشمّ نتنَ عذابه. كان يعاني بعيدًا عني، رافعًا رأسه إلى سقف الزنزانة المسودّ بالدخان، حيث تردّد ضوء متقطّع؛ صاحَ، وأنَّ؛ قَطَر العرقُ من لحيته، ونَزَفَتْ مقلتاه. لم يحسّ الشخص الذي كنتُه في الحلم قطّ بمثل قوّة هذه الألفة الإيروتيكيّة التي تربط المعذَّبَ بمعذِّبِه، لكنّي لم أكن قطّ محجوبًا مثلَ هذا الحجابِ عن ألم ضحيّتي. لم أكن هناك- ببساطة، في نظره لم أكن هناك، ولذا، رغم الحِدّة، رغم الولع، يمكن القول، ولعي بأن أكون حاضرًا في قلب عذاباته، فلقد كنتُ بصورةٍ ما غائبًا في نظر ذاتي كذلك، غائبًا، أعني أن أقول، عن ذاتي.

عالقًا كما كنتُ في محاولة استعادة هذا الحلم، بكل وحشيّته وروعته

الغامضة، كدتّ أن أفقد كويرك للمرة الثانية، حين فقط وقد شارفنا طرف البلدة غيّر اتّجاهَه وغاص في زُقاق. كان المجاز ضيّقًا، بين جدران مرتفعة مُبَيَّضَة بماء الكلس تطلّ النباتات الخضراء وأشجار الزينة من أعاليها. عرفت إلى أين أخذنا المجاز. تركت لكويرك أن يسبقني بمسافة، لعلّه، إذا التفتَ ولم يكن من مكان لأخبِّئَ نفسي، لا يتعرّفني من بعد كهذا. كان قد أسرع في مشيه، وظلّ يرمق السماء، التي كان وعيدها يزداد على نحو مطّرد. كلب رابض ببوّابة حديقة خلفيّة نَبَحَه فردّ عليه بركلة غير موفّقة. انحدر الزقاق والتفّ وأفضى إلى ما يشبه تعريشة، بشجرتي زَانٍ نخيلتين وحوض لسقاية الخيل مبقَّع بالأُشْنَات ومضخّة ماء خضراء قديمة، توقّف عندها كويرك وحرّك المقبض وقلب الحوض وجعل الماء يَنْضَخُّ في كوب يده واستقى. توقّفت، أيضًا، وشاهدته وسمعتُ طَشَاشَ الماء النازل على الجانب الحجريّ من الحوض. والحفيفَ الهامسَ لنسيمٍ هفا في الأشجار فوقنا. لم أحذر الآن أن يراني، حتّى إن التفَتَ وعرفني فلن يغيّر هذا في ظنّي من الأمر شيئًا، سنمضي في ما كنّا فيه من قبل، هو يتقدّم الطريق، وأنا أتبعه بحماسة لا تكلّ، لكن لماذا، أو بأيّ وجه، لم أُحِرْ جوابًا. مع ذلك لم يلتفت، وبعد لحظة تأمّل صامت، مستندًا هناك في الكآبة المخضرّة تحت الأشجار، انطلق من جديد. تقدّمت ووقفت حيث وقف وانحنيت حيث انحنى، وحرّكت مقبض المضخّة وكوّبت كلتا يديَّ واستقيت من ذلك العنصر الغريب الذي كان له مذاق التربة والفولاذ. من فوقي تحاورت الأشجار ما بينها بهمس مشؤوم. لربما كنت قسّا متطوّفًا يتوقّف عند غيضة مقدّسة. ثم فجأة هطل المطر، سمعت هسهستَه خلفي والتفتُّ في الوقت المناسب لأراه قادمًا بسرعة على طول الزقاق مثل ستارة طارت مع الريح، ثم كان على وجهي، بُلَالَة زجاجيّة

باردة عنيفة. شرع كويرك يهرول وهو يخربش بيديه كي يرفع ياقة معطفه. سمعته يشتم. أسرعت خلفه. لم أمانع التبلّل؛ ففي وابل المطر دائمًا شيء بهيج. قطرات كبيرة ضربت ورق الزّان ورقصَتْ على الطريق. ثمّ كانت في الهواء قرقعةٌ ثم بعد هنيهة دوّى الرعد، كأنّ شيئًا كان يتهدّم بضخامة. والآن كويرك، مطأطئًا، شعره القليل قد سُوِّيَ برأسه، كان يقطع آخرَ المجاز ركضًا أو شِبْهَ ركض، رافعًا خطاه وسط البرك المتشكّلة مثل طائر أخرق كبير. طلعنا على الميدان. وكانت دزينةٌ من الخطى ليس أكثرَ هي كلّ ما بيني وبين كويرك. ذهب إلى مكان قريب تحت حائط الدّير، وأكمل طريقه متشبّثا بطيَّتَي صدرِ معطفه مُغْلَقَتين عند نَحْره. توقّف عند المنزل، وفتح الباب بمفتاح، انسلّ داخلًا إلى الردهة، واختفى.

لم أكن متفاجئًا. أحسبني عرفت من البداية أين كان قصدُنا. بدا الأكثرَ طبيعيّةً أن قادني، كما كان ينبغي له، إلى البيت. وقفتُ أنتفض مبتلًّا، على غير يقينٍ مِن الآتي. كان المطر ينهمر على أشجار الكرز؛ وفكّرت كم كانت صبورةً، وباسلة. للحظةٍ رأيت مشهدَ عالَمٍ يَنساط دون شكوى عذابًا لا يَخِفّ؛ قوّستُ رأسي؛ جَلَدَ المطرُ ظهري. ثمّ شيئًا فشيئًا تصاعد الصوت المكتوم لحوافر خيل ورائي، فرفعت رأسي وإذا بفتى على حصان أبيض-وأسود صغير يَخِبّ غيرَ مُسرَج عبر الميدان نحوي. في البداية لم أكد أستبين فرسًا وخيّالا، سميكةً كانت شبكةُ المطر بيننا. ربما كان (فون[87])، أو (قنطور[88]). لكن لا، كان فتى، على حصان صغير. وكان يرتدي قميصًا رياضيًّا قذرًا وبنطالًا قصيرًا، ولا حذاء أو جوارب. مَطِيَّتُه كانت كائنًا مسكينًا منهكًا بمتنٍ مُنْحنٍ وبطنٍ مُنتفخ؛ وإذ طقطق بحوافر حصانه نحوي أدار بحذر نظرةَ قياسٍ

---

87 أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان.

88 كائن أسطوري نصفه رجل ونصفه فرس.

جانبيّةً إلى جهتي. على الرغم من المطر الغزير فإنّ الفتى لم يكد يبدو عليه أثرُ بللٍ بالمرّة، كما لو كان محميًّا داخل صدفة زجاجيّة لامرئيّة. عندما صارا بموازاتي تقريبًا جرّ الفتى إليه الحبلَ الذي كان العنانَ فتباطأَتْ حركةُ الحيوان إلى مشيٍ متمهّل. أردتُّ أن أتحدّث لكن شعرت بصورة ما بأنّ الحديث لا يَحسُن بي، وعلى أيّة حال لم أستطع التفكير في قول شيء. ابتسم لي الفتى، أو ربما كانت كَشْرَةً، تعبّر عمّاذا، لم أستطع أن أخمّن. كان وجهه شاحبًا وشعره أصهب. لَحَظتُ حزامَه، حزام قديم كالذي اعتدتُّ أن ألبسه عندما كنت في سنّه، مصنوع من مطّاط مخطّط بالأبيض والأحمر وإبزيم من معدن فضيّ اللون على شكل ثعبان. ظننته سيقول شيئًا لكنّه لم يقل، راح يَبْسِم فحسب، أو يَكْشِر، ثم فرقع بلسانه ونخس بكعبه خاصرةَ الحصان وواصلا السير من جديد، إلى داخل الزقاق الذي كنت قد طلعت منه. لحقتهما. كان المطر يتوقّف. استطعت أن أشمّ رائحة الحصان، كأنّها رائحة خيش مبلّل. ثمّ عند البوّابة الجانبيّة لحديقة المنزل توقّفا بشدّة، والتفت الفتى ونظر إليّ نظرة جامدة ساكنة، مثبّتا يدًا من ورائه على صُلب الحصان. ما الذي مرّ بيننا هناك، أيّة إلماحة صامتة؟ كنت متعطّشًا إلى علامة. بعد لحظة ولّى الفتى وجهَه إلى الأمام وشدّ اللجام، فاستأنف الحصان الصغير المسير، كأنّه شُغِّل آليًّا، وذهبا، أسفل انعطافة الزقاق، وغابا الآن عن نظري. لن أنساهما، ذلك الفتى، وحصانه الأرقط الهَرِم، يَخِبّان هناك، في مطر الصيف.

فحصتُ البوّابة. إنّها ما أظنّه كان يُسمّى مدخلًا خصوصيًّا، شيء خشبيّ، قديم جدّا الآن، داكن ومنخور إلى أجذال متفتّتة من الأعلى والأسفل، مُرَكَّب في الجدار المبَيَّض على حلقتين صدئتين كبيرتين ومثبّت برتاج صدئ. كثيرًا ما دخلت وأنا صبيّ من هذه البوّابة في رجوعي إلى البيت

من المدرسة. حاولت في الرّتاج. في البداية رفضت الشّفَةُ أن ترتفع، غير أنّي أصررت وأخيرًا دارت الأسطوانة- سميكةً كإبهامي- في لفّاتها بصوت كالزعيق. خلف البوّابة نَمَتْ أكثر ممّا ينبغي مجموعة نباتات متسلّقة تُرِكت على سجيّتها وشجيرات علّيق قديمة، وكان عليّ أن أضغط بقوة كي أفسح لنفسي مجالًا يمكن العبور خلاله. توقّف المطر تمامًا الآن واستطاعت شمسٌ يعتريها الخجل أن تضيء. دفعتُ البوّابة خلفي ووقفت لحظة أتبيّن المكان. بعض أجزاء الحديقة قد نما إلى مستوى الكتف. شجيرات الورد كانت معلّقة في تشابكات مُندّاة، وكُتَلُ نجيلٍ زاحفٍ تصاعد منها البخار؛ أوراق الحمّاض البريّ المرصّع بقطرات المطر كانت عريضةً كجواريف. أخرجت الرطوبة الحلازين، كانت في العشب وفي شجيرات الورد، تتمايل على السعفات الشائكة الطويلة. اتّجهت إلى المنزل، برزت خلفيّته المهمَلةُ في ما يبدو يأسًا فوق هذا المشهد من تمرّد النبات. القُرّاص شَاكَني، نسيج العناكب وقد سُلِكَتْ في خيوطه لآلئُ التّداوة أَسْدَل نفسَه فوق وجهي. تجمّع الصِّبا كلُّه في نتن الحشائش المطورة الحادِّ والبالغِ مداه. كانت الشمس تستجمع قواها، التصق قميصي دافئًا دفءَ رطوبةٍ بظهري. شعرت كأنّي بطلٌ من ملحمة قديمة، أتى أخيرًا، في نهاية سَعْيه، مجرّدًا من خوذته، سَئِمًا ونِضْوَ سفر، إلى فضاء غابة مخيف. شاهدني المنزل بأعين فارغة غير مدركة أقترب، ولم يمنحني دليلًا واحدًا على الحياة. دخلت الباحة. قطع صدئة من أشياء المطبخ كانت مبعثرة، لوح غسيل وعصّارة ثياب، ثلّاجة قديمة عَرَضتْ أجزاءها الداخلية البيضاء على نحو مخيف، مقلاة قد التحمتْ بِقَاعِها قطعةٌ متفحّمة من شواءٍ مُمْعنٍ في القدم. ألقيتُ على كلّ هذا نظرةَ غريبٍ مُرْتَقِب، كأنّي كنتُ قبلُ لم أرَ منه شيئا.

الآن، خلال الجزء الأعلى من نافذة السرداب ذات القضبان، لمحتُ لمحةً من كويرك، أو من رأسه على الأقلّ، منصرفًا عنّي، برُبْع جانب وجهه. كانت لمحةً غريبة، الرأس المستدير الكبير مرتاحًا هناك خلف القضبان في الطابق الأرضيّ، كما لو كان مدفونًا إلى الرقبة في أرض حَبْس. في البداية لم أستطع أن أستبين ما كان يفعله. كان يحني رأسه إلى الأمام قليلًا ثم يرفعه من جديد، وكان يبدو أنّه يتحدّث بطريقة هادئة، غير حازمة، كأنّه كان يلقي محاضرة، أو يردّد جُمَلًا ليحفظها. ثم خطوت إلى الأمام كي أرى بشكل أفضل ورأيته قاعدًا إلى طاولة، وطبقُ طعامٍ بين يديه، كان يشتغل على الطبق بمنهجيّةٍ بشوكة وسكّين. كانت الشمس تحرق قفاي الآن، وجلدي يتألّم من الشوك ووَخْزِ القرّاص، وبدا الظلام العميق الوفير الذي قعد فيه كويرك باردًا على نحو رائع ومغريًا. عبرت إلى الباب الخلفيّ. كان يشبه خفيرًا عريضَ المنكبين واقفًا في كُشْكِه، طويلٌ وضيّق، بطبقات متعدّدة من تصبيغ دهانٍ أسود ولوحين صغيرين من الزجاج الشبكيّ موضوعين في أعلاه حتى بدا أنّهما يبرقان بالشكّ والتهديد. وضعتُ يدي على المقبض، فانفتح الباب على الفور أمامي، صامتًا بسلاسة، بسهولة طَيّعة. اجتزت العتبة بحذر، متلهّفًا وقلقًا، مثل زوجة ذي اللحية الزرقاء[89]. وعلى الفور، كما لو كان بإرادته، انغلق الباب خلفي بآهةٍ خافتة. كنت في المطبخ. ربما لم أكن هنا قطّ. أو ربما كنت، لكن في بُعْدٍ آخر. كلّمني عن الاستيحاش! كلّ شيء كان منحرفًا. كان الأمر مثل الدخول من خلف الكواليس ورؤية إعدادات المسرح بالمقلوب، كلّ أجزائه معروفة لكنّها ليست حيث ينبغي أن تكون. أين كانت الآن علامات طباشيري، خريطة تحرّكاتي المحجوبة؟ استولى عليّ حماس بارد

89 اللحية الزرقاء: حكاية من التراث الفرنسي عن رجل ثري قبيح اعتاد قتل زوجاته، وكيف حاولت زوجته الأخيرة ألّا تلقى مصير سابقاتها.

غريب، النوع الذي يجيء في الأحلام، مُقعِدٌ ولا يقاوَم في آن. لو كان لي فقط أن أقترب خلسة من كامل الحياة كاقترابي هذا وأراها كلّها من منظور مختلف! الباب إلى حجرة السرداب كان مغلقًا؛ من خلف الباب كان يمكن بخفوت سماعُ اشتغال كويرك على طعامه، صَلصَلةً وصَرصَرة. خطوت برفق في الممرّ المُفْضِي إلى الرّدهة الأمامية. فما لبث وميضٌ في المشمّع أن نقلني في اللحظة نفسها، مرتجفَ القلبِ، إلى طريق ريفيّ في مكان ما، في أبريل، من زمان بعيد، في مساء، بمطر، ونسائم، وطيور مندفعة، وثُلْمَة زرقة رائعة في السماء البعيدة تلمع على الطريق المسفلتة السوداء. هنا الرّدهة الأماميّة، وسرخسُها يحتضرُ في أصيصٍ نحاسيّ، ولوحٌ زجاجيٌّ منكسرٌ في اللِّجاف[90]، ودرّاجةُ كويرك المتشبّهةُ أكثر فأكثر بالبشر تستند إلى المشجب. هنا الدّرج، بشعاعةِ ضياءٍ مُثقَلَةٍ تتدلّى في سقوطٍ معلّقٍ من نافذةٍ على البسطة فوق. وقفتُ أُنصِتُ وبدا أنّ الصمتَ يُنصِتُ لي. اتّجهت إلى الدّرج، وأنا أحسّ باللزوجة المقرفة بعض الشيء لسياج الدرابزين تحت يدي، عارضًا عليّ مودّته المريبة. ذهبت إلى غرفة أمّي، وقعدت على جانب سرير أمّي. وجدت في المكان رائحةً ذاوية، ليست مزعجة، كأنّ شيئًا ناضجًا كان قد تعفّن هنا وتحوّل إلى غبار. البياضات كانت مائلة، وسادة حملت تجويفًا على شكل رأس. نظرتُ عبر النافذة إلى التلال الزرقاء البعيدة تأتلق في الهواء المغسول بالمطر. فبقيتُ لحظةً أطول، مُرْهِفًا سمعي لأصوات النهار الخافتة، التي ربما كانت جَلَبة معركة بعيدة، لا أفكّر، ليس تمامًا، لكن أُلمس فكرةَ الفكرةِ، كما يلمس شخصٌ الحوافَّ الطنّانةَ الطريّةَ لجُرح.

كانت كاس طيبّةً مع أمّي. طالما أدهشني هذا. كان بينهما شيء، مشارَكَة،

---

90 نافذة فوق باب أو فوق نافذة أخرى (التعريب لصاحب المورد منير البعلبكي رحمه الله). جاء في اللسان أنّ اللجاف هو «ما أشرف على الغار من صخر أو غير ذلك... وربما جُعِل ذلك فوق الباب».

أغضبني أن وجدتُ نفسي مستبعَدًا منها. كانتا متشابهتين، بطريقتيهما. ما كان في أمّي شرودَ ذهنٍ تحوّل في كاس إلى غياب، ضياع. هكذا تمارس مسيرةُ الأجيال سحرَها الأسود، راسمةً تفصيلاتها، تعقيداتها، مُحوِّلةً سِمَةً إلى بَلِيَّة. كانت كاس تقعد هناك مع أمّي المحتضرة على مشارف الموت، يبدو أنّها لا تأبه بالرائحة، ولا بالقذارات، ولا بحصن الصمت المنيع. تحادثتا بصمت. مرّة وجدتها نائمة ورأسها على صدر أمّي. لم أوقظها. شاهدتني أمّي من فوق الفتاة النائمة بعداوة شديدة. مؤرَّقَةً على الدوام كانت كاس، أسوء من أرقي. كان النوم في نظرها تجربةَ موت. حتى في طفولتها كانت تظلّ ساهرة حتى بواكير الصباح، خائفة من أن تستسلم للنوم، مقتنعة بأنّها لو فعلت لما استيقظت من جديد. أنظر إلى غرفتها فأجدها مستلقيةً بعينين كبيرتين وجامدتين في العتمة. ذات ليلة عندما كنتُ—

انفتح الباب من الخارج وأدخل كويرك رأسَه. حين رآني عَلَتْ تفّاحَةُ آدمِهِ وهبطَتْ. «حسبتُ أنّي سمعت أحدًا ما، حسنًا إذن»، قال، وترك طرفَ لسانٍ رماديًّا يسعى كحيّةٍ من زاويةٍ في فمه إلى الأخرى.

نزلتُ إلى الرّدهة وقعدت على الأريكة ويداي في حجري. أمكنني أن أسمع كويرك يتحرّك قرب الدّرج. قمت ومشيت إلى المطبخ وانحنيت على المجلى وصببت كأس ماء وشربته ببطء، جرعةً طويلةً فجرعة، مرتعشًا بعض الشيء إذ انحدر السائل عبر الشجرة المغصِّنة في صدري. نظرت نظرة خاطفة داخل الملحق. على الطاولة بقايا غداء كويرك. يا لبواعث الأسى في كسرة خبز. سمعته يعبر الرّدهة ويقف في المدخل خلفي.

«أنت تعيش هنا»، قلتُ، «أليس كذلك؟»

التفتُّ إليه، فابتسم ابتسامة عريضة.



أتوقّف، كما يجدر بمؤرّخ إخباريّ، كي أسجّل قُرْبَ وقوع حدث عظيم. ستنكسف الشمس. كسوفٌ كليٌّ متوقَّع، لكن ليس للجميع، الإسكندنافيّون لن يحصلوا على نظرة، ومثلهم سكّان الجانب المقابل من الأرض[91]. وحتى ضمن النطاق الضيّق الذي ستَمَسُّه عباءة القمر توجد اختلافات ملحوظة. في هذه المنطقة يُتَوقَّع بأن نحظى باحتجاب حوالي خمسة وتسعين في المئة من قُرْص الشمس. أمّا الآخرون، مع ذلك، ولا سيّما المتسوّلون في شوارع بنارِس[92] فموعودون بوليمة: سيستمتعون بقرابة دقيقتين ونصف من ليلٍ في عزّ الظهيرة، الكسوف الأطول ليُشْهَدَ في أيّة بقعة من المعمورة. أستغرب الافتقار إلى الدقّة في هذه التنبّؤات. اليوم، إذ ثَمَّ ساعات تعمل على تذبذبات ذرّة واحدة، قد يتوقّع المرء بالتأكيد أفضلَ من حوالي خمسة وتسعين في المئة، أو قرابة دقيقتين ونصف- لم لا تقاس هذه الأشياء بالنانوثانية. غير أنّ الناس متلهّفون. يقال إنّ عشرات الآلاف الآن يشدّون الرحال إلى سواحل الجنوب الصخريّة، حيث عليها سيقع الظلُّ الكامل. ليتني أستطيع أن أشاركهم الحماس؛ ينبغي لي أن أحبّ الإيمان بشيء، أو على الأقلّ بتوقّع شيء، حتى لو كان فرصة اقتران سماويّ فحسب. أراهم، بالطبع، وَفْدَ حجّاج عظيم من حكاية قديمة، يمشون مجهدين بالعصيّ والأجراس أسفل طرق مغبرّة، وجوه قديمة يضيئها التوق والأمل. وأنا، أنا المستهزئ، أتسكّع في سترة وبنطال ضيّقين في نافذة الطابق العلوي من نُزُلٍ تكسو نصفَه الأخشاب، أبصق بكسل بذورَ رمّان على رؤوسهم المحنيّة آنَ يعبرون أسفلَ منيّ. يتوقون إلى

---

91 المقصود بهم هنا سكان أستراليا ونيوزيلندا.

92 مدينة هنديّة مقدّسة تقع على ضفاف نهر الكانغ.

علامة، ضوء في السماء، ظلمة حقّ، لتخبرهم أنّ الأشياء مقصودة، أن كلّ ما يحدث ليس محض صدفة عمياء. ما الذي لن ينفقوه رجاءَ لمحة من أشباحي؟ الآن، هناك علامة، هناك نذير، بماذا، ما زلت لا أدري، على الرغم من أنّ لديّ شكوكي.

*

كنتُ على حقّ، كانا هنا طيلة الوقت، كلاهما، كويرك والفتاة. أشعر بالحيرة أكثر من النقمة. كيف تمكَّنَا من ذلك دون أن أنتبه؟ مسكونًا، كنت متيقّظًا على الدوام أرقب أشباحًا، كيف إذن غَفَلتُ عن اثنين من الأحياء؟ لكن ربما لم يعد الأحياء نوعي، ربما لم أعد أدركهم كما كنت مرّةً من قبل. كويرك بالطبع مُحْرَجٌ من انكشاف أمره، لكنّي أستطيع أن أرى من منظره أنّه مبتهجٌ، أيضًا، ابتهاجًا أَسْيانَ نوعًا ما. عندما واجهته في المطبخ نظر مباشرةً إلى عينيّ، مبتسمًا لم يزل، وقال أنّه كان قد اعتبره من حوافز العمل ناظرًا للبيت أنّه ينبغي أن يُسْمَح له ولابنته بالعيش في المبنى. كنت متفاجئًا من صفاقة الوجه هذه إلى حدّ أنّي لم أستطع التفكير في أيّ شيء أقوله ردًّا عليه. واصل القول بأنّه استمرّ في لعبة التظاهر رغبةً في ألّا يُقْلِقَ راحتي؛ في ظروف أخرى، كنت سأضحك. لم يطرح حتى فكرة الانتقال. انصرف وهو يتمشّى، منتعشَ الروح، يُصفّر خلال أسنانه، وبعد قليل ظهر عند الباب على درّاجته كالعادة، وشَرَدَ هو ولِلِي في حمرة الشفق تمامًا كما كانا يفعلان كلّ مساء. لاحقًا، حين كنت في السرير، سمعتهما يعودان خِلسةً. هذه لا بدّ هي الأصوات التي بتّ أسمعها كلّ ليلة منذ أتيت إلى هنا، وفشلتُ في تأويلها. كيف تغدو الأشياء سهلةً، ومملّة، ومخيِّبة عندما تُشْرَح؛ ربما سيتقدّم أشباحي أيضًا خطوةً للأمام، ينحنون ويتكلّفون الابتسام، وسيتاح

لي أن أرى المرايا والدخان.

لا أدري كيف يُمضي هذان الاثنان- كويرك ولِلي، أقصدُ- كيف يمضيان الساعات بين مغادرتهما في الشفق وعودتهما في الظلام. تذهب لِلي إلى السينما، أظنّ، أو إلى الديسكو- هناك نادٍ في مكان ما بالقرب، نصفَ الليل أحسّ بإيقاع خفيف يطبّل خلال الهواء- أمّا كويرك فيغشى الحانة؛ يمكنني أن أراه، بكأس بيرته وسيجارته، يمازح الساقية، أو «يبصبص» بكآبة في الحلوات عاريات الصدور في جريدةِ شخصٍ آخرَ مُلقاة. سألته أين في هذا المنزل ينامان هو ولِلي فهزّ كتفيه وقال بغموض متعمَّد أنّهما يضطجعان حيثما تيسّر. أعتقد أنّ الفتاة هي من يستخدم سرير أمّي أحيانًا. لا أدري ما رأيي في هذا. لم ينكشَفْ بعدُ، بيني وبين لِلي، أنّي أعرف سرَّها، شيء ما يمنعني من أن أذكرَه، حَساسية مُبهَمة. لا توجد آداب سلوك لحالةٍ مثل هذه. ومع أنّ كويرك لا بدّ قد أخبرها بأنّي على علم بشأنهما فمن أجل دَوْرِها تستمرّ فقط كما كان من قبل، بالجوّ نفسه من الامتعاضِ العامّ والنفورِ الضّجِر.

أكثر ما استرعى انتباهي هو التحوّل الذي صنعه اكتشافي بالمنزل، أو على الأقلّ بموقفي تجاهه. ذاك الشعور بالاغتراب المشدوه الذي اعتراني أمسِ حين تبعتُ كويرك إلى المطبخ ما زال يلحّ عليّ. خطوتُ خلال المرآة إلى عالم آخر حيث كلّ شيء هو كما كان بالضبط وفي الوقت نفسه قد تحوّل تمامًا. إنّه شعور مربك، لكنّه خليقٌ بأن يُحْتَفَى به، كما اكتشفت- فبَعْدُ، هذا هو بالضبط الموقف المخَلْخَل تجاه الأشياء الذي أمّلتُ لكنّي فشلتُ في أن أحافظ عليه بجهودي الخاصّة. لذا حقيقةً، كويرك وفتاته قدّما لي خدمة، وأفترض أنّه يجدر بي أن أكون شاكرًا. صحيح، كان يمكن أن أتمنّى شركاءَ عزلةٍ أحفزَ للذهن. يتملّكني الشعور بأنّي ينبغي أن أؤكّد حقوقي. أوّلًا

سأتوقف عن الدفع لِلِيْ لِقاءَ خدماتها المنزليّة، كما هي الآن، وكما تُؤدّى بنفسٍ ثقيلة. كويرك أيضًا يجب أن يُطلَب منه أن يشغل منصبًا ضروريًّا. يمكن أن يكون كبيرَ الخدم. لطالما أردتّ كبيرَ خدم، على الرغم من أنّي لا أدري تمامًا ما الواجبات المنوطة بشخصيّةٍ كهذه. أسلّي نفسي بتخيّله، حَمَامِيَّ الصدرِ في سِترة «فراك[93]» وبنطال مخطّط. يَصِّر حول المكان بقدمي حمامةٍ مُنَمْنَمَتين. أشكّ في أنّه يستطيع الطبخ؛ إنّه بشهادة الطبق الذي تُرِك على طاولة الملحق رجلُ بَيْضٍ-و-سجق تحديدًا. الأمر، كما أرى، سيتطلّب بعض التأمّل. وخَشِيتُ أن يقودني التفكير فيه إلى فَرْطِ عُزْلة!

ألهمني اكتشافي نظرةً جديدةً لا إلى المنزل فحسب، بل إلى ضَيْفَي المنزلِ، كذلك. أحسّ بأنّي أراهما، أيضًا، للمرّة الأولى. لقد باتا محطَّ الاهتمام بصورة لست واثقًا بأنّي أحبّها، وقطعًا لم أتوقّعْها. كانا كأنّهما قد قاما من مقعديهما وسارا على مهل إلى خشبة المسرح، في أثناء عرض المسرحيّة، مقاطِعَين إيّاي في قلبِ مناجاةِ ذاتٍ محمومةٍ ولو أنّها استبطانيّةٌ ربما أكثر من اللازِم، ولكي أنقذ العرض يجب أن أجد وسيلةً ما لإدماجهما في الحبكة، رغم هيئتهما غير المحترفة تمامًا وغير الحيويّة وغير المبالية. إنّه نوع الأشياء التي يراها الممثّل في كوابيسه، غير أنّي هادئ على نحو غريب. طبعًا، بالضرورة سيكون لدى ابن عائلة تدير نُزُلًا حسٌّ ضعيف بالملكيّة الخاصّة، لكنّ الأمرَ أبعدُ من ذلك. أنا محتار، مثل حيرتي حين أحاول أن أحدِّد ما الذي في كاس أجده في لِلِي. إنّها فتاة غريبة. عندما نزلت هذا الصباح، كانت باقةٌ من البنفسج البريّ قد وضعت في برطمان مربّى إلى جانب مكاني على طاولة المطبخ. كان الندى لم يزل على البتلات، والسيقان كانت مجعّدَةً مكانَ ما أَمْسَكَتْ بها. عند أيّة

---

93 سترة ضيقة طويلة تبلغ الركبتين.

ساعة تراها استيقظتْ كي تخرج وتقطف الأزهار؟ لأنّي أفترض أنّها هي من جلبها، وليس كويرك، من لا يمكن أن أراه خارجًا على أطراف أصابعه إلى حقول الصبح النديّة ليقطف باقة زهر، لا من أجل خاطري ولا خاطر أيّ أحد آخر. كيف لفتاة مثل لِلِي أن تعرف أين تجد البنفسج البريّ؟ لكن عليَّ أن أذكّر نفسي وأتوقّف عن هذه التعميمات التي قد وقعتُ فيها بسهولة. إنّها ليست فتاةً مثلَ لِلِي هذه التي أعاملها- إنّها لِلِي ذاتها، فريدة وغامضة، بكلّ عاديّتها. من يدري أيَّ أشواقٍ تضطرم في صدرها الضئيل؟

أتفحّصها الآن بحدّةِ غُوْلٍ تقريبًا. إنّها لأحجية حيّة أُوْكِلَ إليّ حلُّها. أشاهدها تطلي أظفارها. تؤدّي المهمة بتركيز صارم، ماسحةً وملِّسَةً فرشاتَها الصغيرة، بعنايةِ رسّامِ مُنَمْنَمَات من العصور الوسطى. غالبًا عندما تنتهي ستبقي يديها ممدودتين أمامها ولسوف، وقد انتبهَتْ إلى خطأ في التنفيذ، أو خلل في التلميع، تُغضّن أنفَها منزعجةً وتحضر زجاجة المزيل وتمسح كلَّ نقطة طلاء قد فرغَت منها وتبدأ كلَّ شيء من جديد. تعطي الاهتمام نفسه لأصابع قدميها. لها قدما لَيْمُور، نحيلتان، طويلتان، مثل قدمي ليديا، مجسَّأتان تقريبًا على طول الحافّتين الخارجيّتين. الإصبع الصغرى في كل قدم منعطفة وداخلة تحت جارتها مثل عروة كوز. تحطّ على طرف الكرسيّ الكبير ذي الذراعين ومسند الرأس في الصالون وساقها مرفوعة وذقنها مضغوط على ركبتها ولفّات شعرها الدهنيّ متدلّيات على وجهها؛ للغرفة رائحة تشبه رائحة ورشة دهانٍ بالرشّ. أتساءل هل كانت داريةً بنظرتي المتجوّلة بكسل في الأماكن المطحلبة، الظليلة تحت تنانيرها المرفوعة. أحيانًا أُضبطها ناظرةً إليّ بنظرة مثقلة الجفنين لا أستطيع أن أسمح لنفسي بأن تظنَّها نظرةَ اشتهاء. أتذكّر ذلك البنفسج، وأتأمّل بتوتّر طفيف الزرقة الحليبيّة لمأبضيها،

في كليهما تشقّقان رفيعان متوازيان، شعرها الأسود الخشن الذي يبدو دائما في حاجة إلى أن يغسَل، والخطوط العريضة للوح كتفها، مثل أجنحة صغيرة مقزَّمَة، مطبوعة على الأجزاء الضيّقة من فستانها الصيفيّ. إنّها، لقد عرفت، ابنةُ خمسة عشر ربيعًا.

مارس الأشباحُ سحرَهم المتأصِّلَ عليها. تسترخي في الأماكن التي يظهرون فيها، وَسْطَهم تمامًا، محظيّة قَذِرة وفي غاية الواقعيّة كذلك، تتصفّح مجلّاتها، وتترشّف كُوْلَاها بأصوات مخنوقة كأصوات سباحة تحت الماء بقصبة تنفّس. هل تراها تحسّ بحضورهم؟ أمسِ رفعَتْ ناظريها بسرعة من قصّتها المصوّرة، عابسةً، كأنما أحسّت بلمسة شبحيّة على كتفها. ثم حدّقت إليّ بارتياب، ذقن مدسوس تحت نحرها وحاجبان مسحوبان إلى الأسفل بسوداويّة، وطالبتْ بأن تعرف علامَ كنتُ أبتسم. أَكُنْتُ أبتسم؟ تظنّني عجوزًا أبله مغرمًا؛ هي محقّة. أتساءل هل المرأة الشبح، من جانبها، ترى الفتاة الحيّة؟ هل أنا على حق بالشعور بأنّي ألمح في ملامح المرأة الشبحيّة الآن إحساسًا متزايدًا بالحيرة، ببعض الفزع حتّى؟ أيمكن أن تكون غَيْرَى؟ أنتظر اللحظة التي ستحتلّ فيها هي ولِلي المكانَ نفسه، لحظةَ تهبط عليها مثل ملاك البشارة، مثل الإلهة نفسها، وتضيئها ببركة حضورها الخارق الخاطف.

أملك الآن هنا في هذا المنزلِ المُحَوَّلِ في نظري فكرةً عن الكيفيّة التي لا بدّ أنّه يبدو بها في نظر كاس، وهي تتحرّك دائمًا وسط غرباء مألوفين، غير متيّقنةٍ ما هو حقيقيّ وما هو ليس حقيقيًّا، غير قادرة تمامًا على تمييزِ الممكنِ تمامًا تمييزُه، تتحدّث إليها أصواتٌ نابعةٌ من الهواء. حضور الأحياء في المنزل سلب منه في نظري جمودًا جوهريًّا. آل كويرك جعلا منّي شبحًا كذلك- أشكّ في أنّي لن أستطيع المشي خلال الجدران.

هل لدى ابنتي، أتساءل، هذا الإحساس الثابت بالخفّة، بالقابليّة للتطاير، بطبقةٍ من العدم رقيقةٍ وواقية توجد دائمًا بين القدم والأرض؟ لكن في كل مكان حولي مادّة،أشياء ملموسة بصورة بارزة، العالم القديم المعروف نفسه، قاسٍ وكثيف ودافئ الملمس. في ليلة قريبة مَضَتْ، بدل أن يأخذ كويرك الفتاةَ معه كالعادة، أوقف درّاجته في المدخل وجاء إلى المطبخ وبجرأة أحضر كرسيًّا إلى الطاولة وقعد. حلَّ تَوقُّفٌ لحظيٌّ فيما انتظر أن يرى ردّة فعلي. لم أفعل شيئًا، بالطبع، قعدت فقط، ولعبنا الورق، ثلاثتنا. لست جيّدًا في لعبة الورق، لم أكن قطّ. قعدت وقطّبت بوحشيّة في وجه ورق لعبي، مندفعًا نحو الشَدَّةِ المتناقصة حين يبدو أنّه مطلوبٌ منّي، لا أدري حتى أيَّ نقش أو قيمة ينبغي أن أتطلّع إلى سحبها. يلعب كويرك باحتراز أخرق، ممسكًا بالورق قريبًا من وجهه وناظرًا من فوقه بحذاقة إليّ وإلى لِلي، عينٌ مغمضةٌ والأخرى نصف مغمضة. ويخسر، أيضًا، رغم ذلك. لِلي هي التي تربح. تتحوّل في حماس اللعبة، تصبح طفلةً أخرى، تهتف حين تختار الورقة الصحيحة وتضحك بصوت عالٍ وشرّير، وتئنّ متذمِّرةً إذا حدث العكس وتدير عينيها وتخبط جبينها بفتور على الطاولة متظاهرةً باليأس. فإذا ما رَكَّبَت الأوراق الرابحة ضربت بالورق مولولةً وَلْوَالَ هنديٍّ أحمرَ منتصر. نحن أبطأ من أن نُجاريَها، أنا وكويرك، إذ نتلعثم ونتنهّد على أوراقنا الميؤوس منها. تصرخ على كويرك بأن يستعجل، هازّةً رأسها بقرف، وحين أكون على وجه الخصوص بطيئًا تلكمني في مُسْتَدَقِّ الظهر، أو على نحو موجع في العضُد، بقبضتها المدبّبة الصغيرة القاسية. وبينما تنتظر الورقة المطلوبة الأخيرة تدخل في حالة صمت، مثبّتةً عينها على الشَّدَّة، يقظةً كثعلبة. تسمّي (الثلاثة *three*) «تراي» وما أعرف أنّه (الولد *knave*) هو عندها «جاك». نلعب على ضوء الشمعة، نزولًا عند

إصرار لِلِي؛ تقول إنّه رومانسيّ، ناطقةً الكلمة بصوت مرتعش عميق- «جداً روماونسي»- بطريقة أشكّ في أنّها تقصد بها السخرية منّي. ثم تجعل عينها حولاء وتدع فمها يرتخي كما في نظرة أبله. الطقس لم يزل دافئًا، نترك النوافذ مفتوحة على الليل الواسع الناعم المسحور. تدخل العثّات وتطير طيرانها اللولبيّ المنتظم السكران حول لهب الشمعة، وغبار أجنحتها يسقط في بركة الظلّ المرتعشة السوداء كالسّخام حيث تقف الشمعة. الليلةَ عندما انتهت اللعبة وكانت لِلِي تجمع الورق وقعد كويرك يحدّق إلى الفراغ سمعتُ بومة في الظلام، وفكّرت في كاس، وتساءلت أين تراها قد تكون في تلك اللحظة، وماذا تعمل، مينيرفايَ[94]. تفكّرٌ محفوفٌ بالمخاطر. حتى في الذّرَى الأنعم لليلة صيف يمكن للعقل أن يستحضر الأهوال.

كنت على حقّ من جديد، لِلِي تنام في غرفة أمّي، نظرت إلى داخل الغرفة باكرًا هذا الصباح وكانت هناك، في ضياء الفجر الدّخانيّ، جاثمةً في كومة في زاوية من السرير الكبير، تَغِطّ غطيطًا. لم تستيقظ حتى عندما أتيت إلى جانب السرير وقرّبت وجهي من وجهها. يا له منظرًا غريبًا، الإنسان النائم. كانت رائحتها نومًا وعرقَ شباب وذلك العطرَ الحلوَ الرخيصَ المثيرَ للغثيان الذي تُغطّس نفسها فيه. لو استثنينا الرائحة والغطيط لربما كانت هي كاس. نهارات بكاملها لا تبرح ابنتي سريرَها، متجاهلةً كلَّ التوسّلات، وكلَّ الملامات. أمشي على أطراف أصابعي داخل غرفتها وأرفع طرف الملاءة وتكون هناك، مثل شيء تسلّل إلى الفراش من البريّة، صارخةَ الشحوب وشعثاءَ الشّعر، ترقد على جنبها متصلّبةً وتحدّق إلى اللاشيء، بُرْجمةٌ مضغوطةٌ على سِنّين أماميّين بارزين. ثمّ في منتصف الليل تسحب نفسها

---

94 مينيرفا: إلهة الحكمة والفنون عند الرومان. والبومة طائرها الأثير.

أخيرًا وتنزل وتقعد وركبتاها على صدرها قبالة التلفاز والصوت مكتوم، تشاهد الصور الوامضة بتحديقة نهمة مثبّتة، كأنّها رموز هيروغليفية وهي تعاني لفكّ شفرتها.

على امتداد جلساتنا الليليّة للعب الورق كان كويرك يروي لي قصّة حياته، كما هي: أدرات الأمّ حانةً، وجَففها الأب وفَلّسها، وأُرْسِل كويرك الابن ليعمل في سنّ الرابعة عشرة ساعيًا في مكتب محاماة، وبقي هناك منذ ذلك الحين؛ زوجة، طفلة؛ لاحقًا، زوجة ميتة، أرمل. يروي كلّ هذا في جوٍّ من الدهشة، هازًّا رأسه، كأنّ هذه الأشياء كانت قد حدثَتْ لشخص آخر، شخص كان قد سمع عنه، أو قرأ عنه في الجرائد. خسر منزل العائلة عبر حيلة قانونية من نوعٍ ما، لم يقل أهو كان وراءها أم غيرُه، ولم ألحّ على التفاصيل. من جيب داخليّ أخرج قصاصة جريدة مصفرّة ومتكرمشة تعلن عن بيع منزل في المزاد. «منزلنا»، قال، وهو يومئ برأسه. «راح بثمن زهيد». القصاصة دافئة لكونها قريبة من صدره بطابعه الأنثوي؛ أعيد إليه الورقة، بشيء من الاشمئزاز، بين إبهام وسبّابة، فيتفحّصها لحظةً، مُحْدِثًا تلك الطقطقةَ في خدّه، ثم يُودِعها في جيبه ويُحوّل تركيزه إلى اللعب من جديد.

يبدو أنّه يرى المستقبل احتمالًا مستبعدًا، مثل فوزٍ باليانصيب، أو وعدٍ بالخلود. كم يظنّ أني سأسمح له بأن يعيش هنا، أتساءل؟ أعجب من اتّزانه. أمّه قد عرفت أمّي، يقول. يتذكّر جيّدًا هذا المنزل حين كان النزلاء هنا، يزعم أنّ أمّه كانت تُحضره معها في بعض الزيارات. يقول أنّه يتذكّرني، كذلك. أجد كلَّ هذا مقلقًا على نحو غامض. يشبه أن تُخْبَرَ بأشياء غير لائقة كانت قد مُوْرِسَتْ على أحدهم وهو نائم أو تحت التخدير. رَمَيْتُ في بحر ذاكرتي شبكةَ صيد وسحبتها عبر قاعِهِ ثم سحبتها وأخيرًا أكرمتني الأعماق

بصورة ربما تكون صورتَه، لا كما كان آنذاك لكن، على نحو مضحك، كما هو الآن، وقد نهض في زيّ مدرسيّ متفتّق عند الأزرار، وحطّت قلنسوةٌ على رأسه المستدير الكبير، (تُويدلْدم) وأنا بزيّي المتطابق (تويدلْدي)[95]. أُرْسِلَنا إلى الحديقة لنلعب، بينما تقعد أمّي وأمّه في الصالون تتهامسان على شاي وكعك. نقف في صمت كئيب، أنا والطفل-الرجل كويرك، كلانا منصرف بوجهه عن الآخر ويركل حفرًا في العشب برأس حذائه المدرسيّ. حتى ضياءُ الشمس يبدو سَيِئًا. يدوس كويرك بزّاقةً ويسحقها، مخلِّفا على العشب لطخة طويلة كمِخَاط. كنت سأكْبُرُه ببضع سنين، لكنّا نبدو في السنّ نفسها. من الجيب الخلفيّ لبنطاله القصير يخرج صورة، تعرض فتاة سمينة بقبّعة جَرَسيّة الشكل وفستان «فلابر[96]» من الحرير تسترخي على كرسّي مطبخٍ فاتحةً ساقيها، ودون اكتراث تُدْخِل خيارةً في فرجها؛ يقول يمكنني الاحتفاظ بها، إن أردتُّ، لقد قَرِف من رؤيتها. طليعةُ رعدٍ تتشكّل في السماء فوق الحديقة. نقف وقد حنى كلانا رأسَه، محدّقين إلى صورة الفتاة. أستطيع سماعَه يتنفّس. «قحبة»، يقول، «ماذا؟». رشّة مطر سمينة أولى تسقط على الصورة. يَسْوَدُّ النهار مثل كدمة.

أهو كويرك من أتذكّره أم آخرُ غيرُه، مثلًا ذلك الصبيّ الذي كان حبّي الأول؟ هل أشرتُ إليه؟ لا أستطيع أن أتذكّر اسمه. أقام في منزلنا ذات صيف مع أمّه. كانا من إنجلترا، أو من ويلز، ربما: أتذكّر بعض الغرابة في اللّكنة. لا بدّ أن الأمّ كانت في مصيبة رهيبة، هاربة من ديون، ربما، أو زوج

---

95 تويدلْدم وتويدلْدِي: شخصيّتان خياليّتان كلاسيكيّتان وردتا في الأصل في أنشودة أطفال إنجليزية ثم استثمرهما لويس كارول (1832 – 1898) صاحب «أليس في بلاد العجائب» في عدد من قصصه، وصار يكنى بهما عن كل اثنين يلبسان ملابس متطابقة أو يتصرفان بالطريقة نفسها.

96 إشارة إلى زيّ بل إلى أسلوب حياة انتشر في الأوساط النسائية الشابّة في الغرب في العقد الثاني من القرن العشرين يتّسم بالتحرّر وعدم مراعاة العرف في اللباس والمسلك.

متوحّش. كانت تقضي أيّامًا كاملةً في السرير، لا تصدر صوتًا، حتى لم تعد أمّي تطيق المزيد من الترقّب، فصعَدَتْ إليها بذريعةِ فنجان شاي، أو مزهريّة ورد من الحديقة. كنتُ في سنّ الصبيّ، في التاسعة، أظنّ، ليس أكثر من عشر سنوات، قطعًا. لم يكن وسيمًا، أو جذّابًا بصورة محدّدة. كان ذا شعر خفيف ضارب إلى الحمرة، ونمش وعينين خابيتين، ويدين كبيرتين، أتذكّر، وركبتين خنزيريّتين، خشنتين، كبيرتين. لقد عشقته؛ أستلقي على السرير في الليل وأفكّر فيه، مبتكرًا مغامرات نتّحد فيها ضدّ اللصوص وعصابات الهنود الحمر. حبّي له كان خالصًا من كلّ علائق الجنس، بالطبع، ومَرّ دون أن أعترف به؛ لم أكن حتى لأعرف تسميتَه بالحبّ، كنت سأُصْدَم من الكلمة. ولا عرفتُ أَكَانَ هو قد عرف بشعوري نحوه، ولا عرفتُ ما قد يُكِنّه من شعور نحوي، إن شعر بأيّ شيء. ذات نهار، عندما كنّا نتمشّى في البلدة معًا- كنت دائما أطفح بالفخر إذ أُرَى في صحبته، ظانًّا بأنّ كلّ أحد كان يلمحنا ويُعْجَب بنا- ربطتُ ذراعي في ذراعه بكلّ أريحيّة، فتصلّب وتجهّم، وأشاح بوجهه، وبعد خطوة أو اثنتين، محافظًا بعناية على مظهر المنشغل، سحب ذراعه برفق من ذراعي. في ليلته الأخيرة تسلّلت إلى الأسفل، في حمّى أسًى سبقَتْ رحيله، ووقفت خارج باب الغرفة التي شارَكَها أمَّه وحاولت أن أسمعه نائمًا يتنفّس أو، أفضل من ذلك، يَقْظَانَ مستلقيًا، يفكّر فيَّ، كما قد يكون الحال، وعلى الفور، سمعتُ من الداخل، ممّا أثار بهجتي ورعبي، صوتَ نشيج مكتوم خشن، وبصوت أجشّ همستُ باسمه، وبعد لحظة انفتح الباب قَدْرَ بوصةً ولم يكن هو وراءه، إنّما ظهر وجه أمّه ملطّخًا بالدموع ومبقّعًا في فتحة الباب الصغيرة. لم تنبس بشيء، نظرت إليّ فقط، مبتدئةً في فنّ الأسى، ومنحتني آهةً ضحلةً كالحة، ودون كلمة انسحبَتْ وأغلقَت

الباب. صباح اليوم التالي غادرا باكرًا، ولم يأتِ ليقول وداعًا. وقفتُ عند نافذتي ورأيتهما يجاهدان عبورَ الميدان بحقائبهما، وحتى عندما غابا عن الأنظار كنت لم أزل أستطيع أن أراه، قدماه الكبيرتان في صندل رخيص، كتفاه المستديرتان، رأسه من الخلف بلفّة شعره الشاحب.

نعطي ظهرنا للضياء، للبزّاقة المسحوقة، للصورة الخليعة، ونعود إلى المنزل، وتومض عقودٌ خلفنا.

«هل رأيتَ شبحًا هنا قَطّ؟» سألني كويرك. «كان يقال إنّ هذا المكان مسكون».

نظرت إليه. كان مستغرقًا في ورق لَعِبِه.

«مسكون؟» قلتُ «بماذا؟»

هزّ كتفيه.

«قصص قديمة فقط»، قال. «شعوذات بالية».

«أي نوع من القصص؟»

أراح ظهره على كرسيّه، الذي زعق زعقةً، وخزّر عينيه إلى زاوية الظلمة البعيدة وراء نور الشمعة. الآن باتت لِلي تنظر إليه أيضًا، فمها مفتوح بعض الشيء بشكل مائل؛ أتمنّى لو أنّها لا تفعل هذه الحركة، تجعلها تبدو متخلّفة.

«لا أتذكّر»، قال كويرك. «شيءٌ عن طفل».

«طفل».

«مات. الأمُّ، أيضًا. ربما واحدة من النزيلات اللواتي أقمن هنا...» نظر إليّ وأشار إلى الفتاة وجعل جفنًا يرفّ.

«إنّه يقصد»، قالت لِلي بتأكيد ساخر موجّهةً الحديث إليّ، «نزيلةً صارت حُبلى، أنا، بالطبع، لا أدري من أين يأتي الصغار».

تجاهلها كويرك.

«دائمًا تحدث أحداث عجيبة، في منزل قديم، كهذا» قال بلطف.

«سألعب السبعة».

الحياة، الحياة دائمًا مُفاجَأة. بمجرّد ما تظنُّ أنّك قادرٌ عليها، وأنّك تعلّمت دَوْرَك إلى درجة الكمال، سيَعِنُّ لواحدةٍ من الطاقم أن تبدأ في الارتجال، فإذا بالمسرحيّة الملعونة كلّها تتحوّل إلى فوضى. طلعت علينا ليديا اليوم، دون سابق إشعار. «حسنًا، كيف لي أن أخبرك بأنّي قادمة»، قالت محتدَّةً، «وقد فصلتَ كما يبدو الهاتفَ عن الحائط؟». عندما وصلَتْ كنتُ قاعدًا في وَكْري، أخربش. هل وصفتُ هذه الحجرة الصغيرة، مخبئي وملاذي؟ إنّها في ظهر المنزل، تصعد إليها ثلاثَ عتبات خرسانيّة مرتفعة، وتعبر بابًا أخضرَ الطلاء، مقوّسًا بعضَ الشيء، يعطي بُعْدًا رَهْبَانيًّا غريبًا. أعتقد بأنّها بُنيتْ بعدما فُرِغ من المنزل، لتكون *chambre de bonne* (غرفة خادمة)، على الرغم من أنّه لو كانت أيّة خادمة قد خطرتْ في ذهن البنّاء فلا بُدَّ أنّها قد كانت قَزَمًا. فليس إلّا في منتصف الغرفة يوجد مكان للوقوف منتصبًا، لأنّ السقف ينحدر بشدّة، إلى حدّ أن يلتقي بالأرضيّة تقريبًا عند جانب واحد. يشبه ذلك أن تكون في خيمة، أو في عليّة منزل دُمًى كبير. عندي طاولة خيزرانيّة صغيرة للكتابة ومقعد قَشّيّ جئت به من الملحق. عند مرفقي، في الجدار النهائي المقابل للباب، نافذة مربّعة صغيرة تطل على زاوية مشمسة من الحديقة. في الخارج أسفل النافذة تمامًا، لفيف من النباتات الغرنوقيّة القديمة، التي تُلقي أزهارُها عندما تكون الشمس بزاوية محدّدة لونًا زهريًّا خفيفًا على صفحات مفكّرتي. في الصباحات أتسلّق إلى هنا كأنّي أدخل إلى حجرة غوص وأغلق على نفسي بعيدًا عن آل كويرك، وأتفكّر، وأحلم، وأتذكّر، وبين الفَيْنة والفَيْنة أدوّن جملةً أو اثنتين، خاطرًا شاردًا،

حلمًا. تظهر على أسلوب هذه المذكّرات مسحة خطابيّة مميّزة، لا مفرّ من ذلك، بالنظر إلى التدريب الذي تلقّيتُه ممثّلًا، لكن كثيرًا ما أجدني أنطق الكلمات بصوت عالٍ وأنا أكتبها، كما لو كنت أُسْمِعُها إلى أذنٍ متعاطفة ومألوفة. منذ اكتشفت أنّ آل كويرك يعيشون في المنزل صرتُ أنفق المزيد والمزيد من وقتي هنا. أنا سعيد، الأسعد، على الأقلّ، في هذه الحجرة المغلقة، معلَّقًا في بحر ذاتي الذي لا مَدَّ فيه.

زوجتي عظيمة بصور عديدة. كانت حصنًا منيعًا ضدّ أيّ من السهام والقنابل التي قد يلقيها العالم الخارجيّ على مُجمَّع حياتينا معًا. ليتك رأيت النقّاد ليلة العرض الافتتاحيّ وقد انكمشوا حين رأوها تنزل عليهم مُسلّحةً بسيجارة وكأس نبيذ. على الرغم من ذلك فإنّها لا تكون أحسنَ ما تكون في محنة عاطفيّة. دلّلها أبوها كثيرًا، أعتقد، فأثمر ذلك الدّلال امرأةً لم تقفد قطّ تطلّعَها إلى أنّ شخصا سيكون حاضرًا على الدوام كي يتولّى مسؤوليّةَ، مثلًا، الاحتمالاتِ غيرِ المتوقّعة للزواج وويلاته التي لا مناص منها. لا أنّها ليست مهيّأةً للخوض في مشاكل كهذه بنفسها؛ كما أقول، هي رائعة أكثر منّي حين يتعلّق الأمر بالمسائل العمليّة. كلّ ما هنالك أنّها تملك إيمان الملكات الراسخ بأنّها ينبغي ألّا تُكرَه على البذل من مخزون قوّتها، الذي تحافظ عليه كما لو كان للصالح العامّ، من أجل اليوم الذي ستظهر فيه أزمةٌ حقيقيّةٌ، وستُدَعى لتندفع بكلّ قوة في جوشن وخوذة مريّشة، وكلّ الرايات خفّاقة. عندما سمعتُ صوتها اليوم من مكان بعيد وراء بابي الأخضر الصغير شعرت بلحظة هلع، كما لو كنتُ هاربًا من العدالة مختبئًا خلف جدار وهميّ وهي رئيس الشرطة السريّة. كانت تلبس مشدَّ ساقين أسودَ وثوبًا إلى الرّدف، فضفاضًا أحمر فاتحًا، منحها مظهرًا سمينًا بشعًا وغير لائق. حين تغضب تعلو

في صوتها نبرة دامعة متهدّجة عالية.

«أين كنت بِربِّك؟» قالت حالَمَا رأتني. «ماذا يجري؟ من هذه الفتاة؟»

لِلي، حافية، في لباسها غير المناسب، كانت تقف بترهُّل على مسافة خلفها في الرّدهة، تمضغ كرة لُبان وتبدي مظهرًا متجهّمًا. الهلع الذي كان قد انتابني قبل دقيقة استُبْدِل به الآن هدوءٌ بارد. لديّ موهبة، إن كانت موهبة، في أن أُخمد في نفسي على الفور أيّةَ حمّى في الدّم أو في الدماغ. هناك، أعني كانت هناك، ليالٍ حين كنت أنكمش في أجنحة المسرح، مرتعدًا، منتظرًا إشارة دخولي، حتى إذا ما خطوتُ بعد لحظة فقط إلى الأمام برزتُ رابطَ الجأش، مُرْعِدًا بجُمَلي دون أثرٍ من سهوٍ أو ارتجاف. إحساس عائم يغمرني في لحظات كهذه، كأنّي كنت أُعْوَّمُ على وَسَط طليق كثيف، بحر ميت من المشاعر. من خارج هذه الحالة من الانفصال السارِّ تقريبًا نظرتُ الآن إلى ليديا بنظرة متسائلةٍ لطيفة. انتبهتُ إلى أنّ قلمي الحبر ما زال في يدي، منتصبًا مثل مسدّس. كدتّ أضحك. وقفتْ ليديا رافعةً رأسها إلى أحد الجانبين، وِقْفةَ طائرِ سُمْنة مروَّع، محدِّقةً إليّ، وجهها جامد في ما يشبه فُغْرةَ تشكُّكٍ متحيّر.

«تلك لِلي»، قلتُ بلطف. «مدبّرة المنزل».

بدا ذلك بعيد الاحتمال حتى لي.

«مدبّرة الـماذا؟» صاحت ليديا، صيحةَ طائر. «هل جُننتَ تمامًا؟»

«لِلي»، هتفتُ، «هذه السيدة كليف». لم تقل لِلي شيئًا، ولم تتحرّك خطوة، سوى أنّها غيّرتْ وقفتها المترهّلة من ورك إلى الأخرى، ما زالت تمضغ علكتها بإيقاع متواتر. واصلتْ ليديا النظر إليّ بذلك الانطباع الغاضب المتفاجئ الكبير، مائلة الآن إلى الوراء قليلًا كما لو كانت تتفادى إمكانيّة لكمة مسدّدة بوحشيّة.

«انظرْ إليك، إلى حالك»، قالت، متعجّبةً. «هل تلك لحية؟»

«لِلي تعتني بي»، قلتُ. «بالمنزل، أعني. أتتْ في أنسب وقت. كنتُ على وشك أن أسأل الراهبات عبر الشارع أن يُعِرنَني يتيمتين إن كان لديهنّ ربما يتيمتان زائدتان». هذه المرّة ضحكتُ، صوت غير مألوف. «لكنتُ ألبستهما بناطيل قصيرة وباروكات كولونياليّة»، قلتُ «جوستين(ي) وجولييت(ي)». مرّةً لعبتُ دور المركيز دو ساد[97]، بعصابة رأس وقميص مكشكش مفتوح إلى السرّة؛ لقد أُعجِبتُ بنفسي في هذا الدور.

شيء بائس ومجروح ظهر على ملامح ليديا وبدا للحظة أنّها قد تجهش بالبكاء. عوض ذلك زفرَتْ زفرةً ثقيلةً خرجَتْ من منخريها وزمّت شفتيها حتى غدتا خطًّا متجهّمًا. وشغّلَت كعبها ومشت مختالةً إلى الصالون. التقَتْ عينا لِلي بعينيّ ولم تستطع كبح ابتسامة صغيرة، لمع منها سنا نابٍ علويّ.

«شاي، يا لِلِيْ»، قلتُ برفق، «للسيّدة كليف ولي».

عندما تبعتها إلى الصالون كانت ليديا تقف عند النافذة كما وقفَتْ في ذلك اليوم الأوّل الذي كنّا قد أتينا فيه إلى هنا، وظهرها إلى الغرفة وذراع ملفوفة بشدة على صدرها، تدخّن سيجارة بنفثات عنيفة قصيرة.

«ماذا تفعل، يا ألكس؟» قالت بصوت مرتعش. لم تلتفت. أكره حين تحاول التمثيل، إنه مخجِل. لا تكلِّمُني بالاسم إلا حين تؤدّي عرضًا كاذبًا. تركتُ هنيهةً تنقضي.

«سيسرّكِ أن تسمعي»، قلتُ بصوت بهيج، «أنّ المنزل مشهورٌ بأنّه مسكون، هل ترين، أنا لستُ مجنونًا، في آخر الأمر. كويرك يقول إنّ طفلًا ما—»

---

97 الفيلسوف والكاتب الفرنسي المعروف (1740 - 1814). «جوستين» و «جولييت» من أشهر أعماله الروائيّة.

«توقَّفْ»، قالت، رافعةً يدًا. «لا أريد أن أسمع». هززتُ كتفيّ. التفتَتْ إلى الغرفة وألقَتْ عليها نظرة غامضة بعبوس. «هذا المكان قذر»، همسَتْ. «ماذا تفعل تلك الفتاة ؟»

«لا أدفع لها الكثير»، قلتُ، «في الحقيقة، من وقت قريب لم أدفع لها بالمرّة».

أمِّلتُ أن تسألني لماذا، فتعطيَني فرصةً كي أطلعَها على الأنباء الدقيقة بخصوص ضَيْفِي المنزل المتطفِّلَين، لكنّها تنهّدت من جديد، بذلك العبوسِ المنشغلِ نفسِه، وهزّت رأسها. «لستُ مهتمّة بترتيباتك المنزليّة هنا»، قالت بازدراء كبير لكنّه غير مقتنع. نظرَتْ إلى السيجارة في يدها كأنّها لم تنتبه إلى وجودها قبل هذه اللحظة. ازداد صوتها غلاظة بتوتّر مسموع الأنفاس. «أفهم من ذلك أنّك قد تَرَكْتَني ولن تعود»، قالت على عجل، ما زالت تحملق مغضَبَةً إلى السيجارة بعينين لامعتين.

مثّلَتُ أنّي أفكّر بتركيز شديد.

«الآن، أعلى بحرِ ال(أنَبِيْست[98]) كان سطركِ هذا، تظنّين، أم على الأنْدرِ، والأنْفرِ بحرِ ال(أمْفِيبراك[99])؟ أسأل من اهتمامٍ مهنّي. يجدر بكِ أن تكوني شاعرة». كان ذلك القلم اللعين لم يزل في يدي. وضعته على رفِّ الموقد، مُركِّزًا، حتى لا أنسى لاحقًا أين كنت قد وضعته؛ بتُّ شارد الذهن جدًّا في ما يتعلّق بالأشياء الحميمة الصغيرة. استطعت أن أرى ليديا في المرآة

---

98 بحر شعري في الإنجليزيّة يقوم على تفعيلة تحوي ثلاثة مقاطع: غير منبور-غير منبور-منبور. يشير بذلك إلى قول ليديا في المترجَم أعلاه: "I take it you have left me and will not be coming back". (أفهم من ذلك أنك قد تركتني ولن تعود)

99 بحر شعري في الإنجليزية يقوم على تفعيلة تحوي ثلاثة مقاطع: غير منبور-منبور-غير منبور. يشير بذلك إلى قول ليديا في المترجَم أعلاه: "I take it you have left me and will not be coming back". (أفهم من ذلك أنك قد تركتني ولن تعود)

فوق رفّ الموقد، تحدّق إلى قفاي. «أنا قانع بالعيش هنا، في الوقت الراهن»، قلت، بنبرة محسوبة، ملتفتًا إليها. «كما ترين، إنه يقدّم لي طريقة للعيش دون أن أعيش».

«بالطبع»، قالت. «لَطَالما كنتَ مولعًا بالموت».

«يقول سبينوزا[100]—»

«أوه، سحقًا لسبينوزا»، قالت، لكن بقليلِ قوّةٍ، بتعبٍ تقريبًا.

بحَثَتْ بلمح عينيها سريعًا عن مَرْمَدة، ولمّا لم تجد واحدة هزّت كتفيها وأسقطَتْ بوصة رماد على السجّاد، حيث حطّ بنعومة ولم يتفتّتْ. سألتُ هل سمعَتْ من كاس مجدّدًا. نَفَتْ بهزَّةٍ من رأسها، لكنّي استطعتُ أن أرى أنّها كانت تكذب. «أين هي، تحديدًا؟» سألتُها. ومرّةً أخرى هزّةُ الرأسِ اللعينةُ تلك، كما لو كانت طفلةً ترفض أن تَنُمَّ على صديق كان شقيًّا في الحضانة. قارَبتُ الأمر من زاوية أخرى. «ما المفاجأة التي قلتِ أنّها تحملها لي؟»

«قالت لي ألّا أخبرَك بأيّ شيء».

«أوه، هل فعلَتْ».

أحد الأشياء، الأشياء القليلة جدًّا، التي تعلّمتها، أو أدركتُها، عن نفسي منذ قَدِمتُ إلى هنا أنّي دائمًا في بحثٍ عن شيءٍ أو أحدٍ لأنتقم منه. لا أدري ما الذي قد أسعى إلى الثأر له، أو ما الشكل الذي سيأخذه ثأري، بالضبط. أنا مثل أمّي تنتظر من العالم أن يعتذر لها من الأخطاء المجهولة التي اعتقدَتْ أنّه قد ارتكبها بحقّها. مثلها لا أستطيع تخليص نفسي من القناعة بأنّ هنالك بالفعل لومًا ليُقسَمَ، ونتيجةً لتُحسَم. أنا راضٍ بأن أنتظر، بأن آخذ الأشياء على مهل، بأن أتحيّن فرصتي، لكنّي على ثقة بأنّي سآخذ بثأري، بطريقةٍ ما، في

---

100 الفيلسوف الهولندي الشهير (1632 – 1677)

وقتٍ ما. ربما حين يحين ذلك الوقت سأعرف ما الإهانة أو المظلمة الأصليّة التي أُلْحِقَتْ بي. أيُّ فوضى فيّ؛ إنّي حقًّا لغريبٌ عن ذاتي.

في المطبخ صوَّتَ انفجار مباغت متنافر التّغمات من راديو لِلِي، أُخْمِدَ في الحال.

كانت ليديا تنظر إليّ الآن نظرة جانبيّة، منتظرةً أن ترى خطوتي القادمة. أحيانًا، في لحظة مثل هذه مثلًا، أسمح لنفسي بأن تتسلّى بفكرة أنّ ليديا مع كلّ قوّتها خائفةٌ بعضَ الشيءِ منّي. أعترف بأنّي أحبّ أن أبقيها متحفّزة. لا يمكن التنبّؤ بي. ربما أنّها تفكّر حقًّا في أنّي مجنون، وأنّي قد أؤذيها. خلفها في النافذة كانت الحديقة مزيجًا فردوسيًّا متضاربًا من الخضرة البهيجة والزرقة البتروليّة اللامعة. وفرةُ منتصف الصيف مفاجأة لا تنقطع. «تريد العودةَ إلى الوطن»، قالت، «لكنّها لا تستطيع، في الوقت الحاليّ». هذا ضربٌ على الوتر الخطأ لمحاولة تهدئة، رفضتُ حتى الإقرار به. في الوقت الحالي، فعلًا.

«إنّها تثق بكِ، أليس كذلك؟» قلتُ. «لم تكن قطّ تفعل».

هذا صحيح؛ مهما قد يكون بيني وبين ابنتي من اختلافات، فلقد كنّا دائمًا قريبين بما يكفي ليقرأ أحدنا ما يدور في خاطر الآخر- وكنّا دائمًا، دائمًا نحن الاثنين ضدّ المسكينة ليديا.

سمعتُ قدمي لِلِي الحافيتين تضربان الأرض على طول الممرّ من المطبخ، والآن دخَلَتْ حاملةً صينيّة من الصفيح عليها إبريق شاي وفنجانان غير متماثِلين، وطبقٌ كُوِّمتْ فوقه كيفما اتّفق شرائحُ خبزٍ بالزبدة متعرّجةٌ سميكة. لحظتُ ليديا وقد استرعى نظرها الوسخ القشريّ على قدمي الفتاة المجسَّأتين والمشطّبتين في ظهري كعبيها الأحمرين والمتغضّنين. لِلِي، عاضّةً

شفتَها السّفلى من أحد الجانبين، تجنّبَتْ النظر إليّ بحرص، ووضعَت الصينيّة على المصطَلَى، منحنيةً من الخصر ومظهرةً بتعمّد فخذيها من الخلف، شاحبين كبطن سمكة، إلى حدّ مؤخرتها الهزيلة. «هل أصبّه؟»، قالت من تحت شعرها المتدلّي بصوت مختنق بطرب مكبوت.

أتتْ ليديا بسرعة من النافذة. «سأفعل ذلك».

«كما يحلو لكِ»، قالت لِلي، واعتدلت قائمة، غيرَ ناظرةٍ لم تزل إلى أيٍّ منّا، ومشَتْ، شادّةً وركيها.

كي تصبّ الشاي أُجْبِرَتْ ليديا على أن تقعد على بساط المصطلى، مائلةً بانحراف وساقاها منسدلتان معًا بزاوية صعبة إلى جانب واحد، ممّا أعطاها منظرَ، ليس بغير الجذّاب، حوريّةٍ على شاطئ.

«ما سنّ تلك الطفلة؟» قالت، عابسةً في وجه الشاي الذي له لون خشب السّاج وهو يُقرقر في الفنجانين.

«سبع عشرة، كما تدّعي».

نخرَتْ ليديا.

«أقرب إلى الخامسة عشرة»، قالت، «أو حتى أقلّ». كان شيء ما في الطريقة البائسة الخرقاء التي قعدَت بها سرّع نبضات رقّاص الإيقاع في دمي. «كان من الأفضل أن تأخذ حذرَك».

«إنّها فعليًّا يتيمة»، قلتُ. «هل ترين أنّه يحسن بي أن أقدّم لكويرك عرضًا لِقاءَها؟ أنا واثق بأنّ الأمر لن يكلّف أكثر من رأسٍ مُقلَّصٍ وكيسٍ من الودع وتكون لي- لنا، أقصد. ما قولك؟»

جلبَتْ إليها ساقيها بحركة رشيقة على نحو مفاجئ، وسريعة وقامت على ركبتيها وقدّمت لي الفنجان. كانت قريبة جدًّا منّي. جاثيةً تكاد تكون

بين ركبتيّ. متناولًا الفنجان، سمحتُ لأصابعي بأن تمسّ أصابعها. فجمدتْ مكانَها، تحديقتها الساكنة مثبّتة على أصابعنا.

«والبنت التي لديك»، قالت بهدوء.

رشفتُ رشفةً من الفنجان. يجب بالفعل أن أعلّم لِلِي فنّ تحضير الشاي. أنا واثق بأنّها تستخدم أكياس الشاي، على الرغم من أنّي أخبرتها بألّا تتسامح في استخدامها، أشياء مقرِفة. جثت ليديا دون حراك بين يديّ، كما يجثو متسوّل على ركبتيه، ورأسها مُدَلّى.

« كانت لديّ»، قلتُ. «ثمّ كَبِرتْ. المرأة لا يمكن أن تكون بنتًا».

«تحتاج إلى المساعدة، تدري».

«ومتى قطّ لم تَحْتَجْ إليها؟»

تنهّدَتْ، وحوّلَتْ ثقلها من ركبة إلى الأخرى. وعلى أساس الظنّ بأنّها ربما توشك أن تعانقني وضعتُ فنجاني بسرعة وقمت ومشيت متجاوزًا إيّاها إلى النافذة- متجنّبًا دودة الرماد الرماديّة الكريهة على نحو غريب التي كانت قد خلّفتها على السجّاد- ووقفتُ حيث كانت قد وقفَتْ، متأمّلًا الحديقة المضاءة بالشمس. في أيّامِ صيفٍ بعينها صفةٌ نوعيّةٌ قديمة، الأيّام التي تأتي على أواخر يوليو خصوصًا، حين يكون الموسم قد بلغ ذروته وبدأ على نحو لا يُدرَك في التراجع، وحين يثخن ضياء الشمس، وتغدو السماءُ أكبرَ وأعلى وأزرقُها أغمقَ من ذي قبل. في أيّام كهذه، ينفخ الخريف نداءات بوقه الأولى، إلّا أنّ الصيف ما زال يعتقد براحة بال أنّه لن ينتهي. في ذلك السِكون الحالم، مثل السكون في الأبعاد اللازورديّة لتجهيزات مسرح، تبدو كلّ مواسم الصيف، رجوعًا إلى الطفولة، حاضرةً؛ إلى الطفولة، وما وراء الطفولة، إلى تلك الحقول الوادعة حيث تندمج الذاكرة في الخيال. سيهبّ

نسيمٌ، خاطرةٌ من خواطر الطقس نصف المتشكّلة، وشيء في زاوية رؤيتك سيخفق خفقةً واحدة، بكسل، ويعود إلى سكونه من جديد. أصوات ناعمة مشوَّشة تختلط في الهواء، كأنها أصوات مرح صاخب بعيد. هناك أصوات نحل، وأصوات طيور، والأزيز المزعج لجرّارة بعيدة. وستشمّ شذًا، تعرفه لكنك لا تستطيع تعيينَه، وسيذكّرك بمكان آخر، بمرج، وخشخاش إلى جانب طريق متربة، وشخص ينعطف ليلتقيك... أدركتُ، هناك عند النافذة، بأنّ شيئًا كان قد تغيّر، بأنّي كنتُ قد عبرت إلى مكان آخر. في البدء كنتُ أنا، ثم أنا والأشباح، ثم أنا وكويرك وبنت كويرك، والآن- لم أدرِ ما الآن، سوى أنّ هذا الآنَ كان جديدًا. استطعت أن أسمع ليديا خلفي تقوم على ركبتيها، تنخر قليلًا من التعب.

«الأمر أنّي، يا عزيزتي» قلتُ، «ليس بي طاقةٌ، الآن فقط، لأقلق بشأن أيّ أحد».

ضحكَتْ ضحكةً صغيرةً قاسية.

«ومتى قطّ كانت بك طاقة؟»

قطّة بلون برّاقة كانت تخوض في الحديقة، ضاربة العشب الطويل بإيماءات كفّيها القاهرة الماهرة. الحياة في كلّ مكان، حتى في الحجارة، بطيئة، سِريَّة، طويلة النَّفَس. انصرفتُ عن النافذة. طالما كرهت هذه الغرفة، هذا الصالون النموذجيّ، فيه لمسة من منزل القسّ بظلاله البنيّة وأثاثه المتكتّل وهوائه الساكن المروَّع. كثير من الناس لم يكونوا سعداء هنا. كانت ليديا تقعد الآن في الكرسي القديم ذي الذراعين عند الموقد ويداها المضمومتان مشبّكتين بين ركبتيها، تحدّق بصمت إلى حامل الحطب. لحظةَ أدرتُ ظهري كانت قد زادت سنوات؛ في لحظة أخرى سترميها عن عاتقها من جديد. هو

شيء تفعله. تلك الكتب المحترقة كانت لم تزل في الموقد. رماد، رماد في كلّ مكان. أتَتْ لِلِي وتوقّفَتْ عند الباب، آخذةً قياس الجوِّ باهتمام. «أنا والسيّدة كليف نودّ أن نتبنّاك»، قلتُ لها، مستجمعًا ابتسامةً مبتهجةً كبيرة. «نريد أن نأخذك بعيدًا عن كلّ هذا ونمنحك منزلًا أنسب ونُحوِّلك إلى أميرة صغيرة، ما رأيك في ذلك؟»

نقلَت لِلِي نظرَها منّي إلى ليديا وإليّ من جديد وابتسمَت بارتياب، ثم تقدّمَت بسرعة وحملَت الصينيّة. وبينما كانت تغادر غمزتُ لها فعضّتْ شفتها مرّة أخرى وتكلّفَت الابتسام مرّة أخرى وغطسَت برأسها إلى خارج الغرفة. قعدَت ليديا في كرسيها لحظةً ساكنة، تحدّق إلى حامل الحطب، ثم تحرّكَتْ، وسحبَت يديها وصفّقَت بهما على ركبتيها وقامت سريعًا بخفّةِ من وصل إلى قرارٍ كبير.

«أظنّ أنّ أفضل ما نستطيع فعلَه—» شرعت في الكلام، ثم لم تلبث أن بدأت في النحيب. دموع سريعة جرت أسفل خدّيها، ممتلئة ولامعة كقطرات غليسرين. وقفَتْ ونظَرتْ خلالها لثانية، مصعوقةً بالمفاجأة، ثم أصدرَتْ صوتًا كعويل الأطفال، نصفُ غضبٌ ونصفُ أسى، ورفعت يديها بعجزٍ قبالةَ وجهها وأصابعها ممدودة وعجّلت بتخبّط لتخرج من الغرفة. تلك البوصة من رماد السيجارة كانت لم تزل حيث سقطَت، لم تزل سليمة.

وجدتّها في الرّدهة، جاثمة على الأريكة القديمة هناك، تمسح باهتياج وجهها الملطّخ بالدموع بأسفل راحتي يديها كلتيهما، مثل قطّة تنظّف شعرات شاربيها. أنا لست جيّدًا في مواساة الآخرين. كم مرّة في حياتنا معًا كنت قد وقفتُ مثل هذا الموقف، أشاهدها تذوب في الحزن، كما قد يشاهد طفلٌ ملءَ كيسٍ من هُرَيراتٍ يغرقن في بركة. أعلم أنّي كنت محنةً لها، بطريقة

أو بأخرى- في الواقع بطرق عديدة. الحقيقة أنّي لم أفهمها قطّ، ما تريده، ما تتوقّعه. عندما كنّا معًا أوّلَ مرّة اعتادت اتّهامي بأنّي أعاملها كطفلة، وصحيح أنّي أحببت أن أنظر إلى شؤون كلّ يوم بعين أبويّة، من حسابات المنزل إلى دورتها الشهريّة- الأشخاص الذين لديهم نصيب كبير من النهار ليتصرّفوا به يميلون إلى أن يكونوا فضوليّين، وهو شيء انتبهتُ إليه في وسطي المهنيّ- مع أنّي أقول دفاعًا عن نفسي أنّي ظننت أنّ هذا هو المطلوب منّي، عندما تحوَّلَتْ من رعاية أبيها إلى رعايتي. ثمّ ذات يوم في أحد شجاراتنا أظهرَتْ عليّ وجهًا مَلْوِيًّا بصورة مرعبة وصرخَتْ بأنّها ليست أمّي! كان هذا شيئًا جديدًا، ماذا كنتُ لأفعل بشأنه؟ كنتُ محتارًا. انتظرتُ حتى هدأَتْ ثمّ سألتُها ما الذي عَنَتْهُ، لكنّ ذلك لم يزد على أن أرسلها إلى نوبة غضب أخرى، فأسقطتُّ الموضوع من الحسبان، على الرغم من أنّي استمررت في التفكير فيه زمنًا طويلًا. في البداية كنتُ قد حسِبتُ أنّها كانت تتّهمني بالمطالبة بأن أُدَلَّل وأُرْعَى كما تُدلِّل أمٌّ صبيَّها وترعاه، لكنّي نبذتُ تلك الفكرة، وفي النهاية قدّرتُ أنّ قصدَها كان أنّي كنت أتصرّف تجاهَها كما كنتُ تجاهَ أمّي الحقيقيّة، يعني، بتبرُّمٍ، بامتعاض، بامتناع ساخر صَموت- التنهّد، الضحكة الصغيرة، العينان الموجّهتان إلى أعلى- بالطريقة التي أعرف أنّها من أكثر الطرق إغاظة للذين يفترض أنّهم قريبون مني. خاطرةُ لحظةٍ أرتني، بالطبع، أنّ الذي كانت قد صرخَتْ به في وجهي لم يعدُ أن يكون ببساطة شكلًا آخر من التأكيد على أنّي كنت أعاملها كطفلة، لأنّ ذلك، إذ لم تحاول قطّ أن تشير إليه، كان بالضبط كيف كنتُ قد عاملتُ أمّي. ما أعقدَ، ما يسمّى، العلاقاتِ البشريّة!

«حبيبتي»، قلتُ الآن، بصوت ينبض بانعدام الصدق، «أنا آسف».

إحدى مفارقات شجاراتنا أنّها تقريبًا بصورة ثابتة لا تبدأ في أخذ

بعد جديّ حتى نصل مرحلةً أحاول فيها أوّلًا أن أقدّم اعتذارًا. كأنّ غريزة بدائيّة لسيطرة أنثويّة مكبوتة تُسْتَثَار في ليديا بلمحة الضعف هذه من جانبي. الآن انقضّت عليّ دفعة واحدة. كانت الأشياء القديمة كلّها، تدرّبنا عليها طويلًا حتى غدت مبتذلة، في نظري، بالتأكيد، إن لم يكن في نظرها. سأقول شيئًا واحدًا، إنّها شاملة. تنطلق من طفولتي، وتشقّ طريقها بسرعة عبر شبابي ورجولتي المبكّرة، وتتباطأ بمرارة محبّة عند سنواتنا الأولى معًا، وتمرّ مرورًا مستطرِدًا على تمثيلي، في الحياتين المهنية والخاصّة كلتيهما- «أنت لم تنزل عن خشبة المسرح قطّ، نحن جمهورك فقط»- ثم تعرّج على علاقتي بكاس وتشمّر فعلًا عن ساعديها. على فكرة، هي ليست شرسة أو قاسية شراستَها أو قسوتَها المعهودتين؛ لقد لطّفَت السنين حِدَّتَها. الذي لم يتغيّر هو صورتي التي تعرضها. في نسختها، أنا مخطئٌ في كلّ شيء. أمّي حلوة الطبع، مُستَغَلَّةُ الطيبة، حمّالة أسيّة، تَذمُّرها من أبي ثمّ منّي هو ببساطة التماس لإظهار حبّ أو مودّة، صرخة مكتومة لقلب جريح. أبي، بالمقابل، طاغية سريّ، باختياره كَتَمَ صوت ذاته، حَقود، محتقِن، من كان موته بالذات فعلَ ضغينة وانتقام ضدّ المرأة التي كانت قد محضته الودّ والحنان. عندما أذكّرها، بنبرة ليست أكثر من اعتراض لطيف، بأنّ أبي قد مات وشبع موتًا قبل أن تلتقيَني، تُنحّي الحقيقةَ جانبًا بإشارة محتقرة؛ فهي تعرف ما تعرفه. في هذه الصورة المقلوبة لعائلتي- الثالوث الأقدس هو لقبها الذي أطلقته علينا على سبيل التهكّم- أنا أيضا بالطبع واقفٌ على رأسي. هل عشتُ طفولة حائرة وحيدة، مصدومًا بالفقد المبكر لأبي وعرضة بعدئذ للطلبات العاطفيّة العصيّة على التحقيق لأمّي المخذولة؟ لا، لا: كنتُ الأمير الصغير، الممطور بالحبّ، بالمديح، بالهدايا، الذي شهد سريعًا رحيل أبيه وقضى بقيّةَ حياة

أمّه المترمّلة يلومها على الأشياء التي لم تستطع أن تكونها أو تفعلها. هل ضحّيت بأجمل سنوات حياتي الراشدة كادحًا في مسرح رخيص كي أنفق على زوجتي وطفلتها في الترف الذي كان أبٌ خَرِفٌ بلا مسؤوليّة قد عوّد ابنته المدلَّلَة عليه؟ في الواقع لا: كنت وحش الأنانيّة النموذجيّ الذي كان سيبيع شرف زوجته مقابلَ دور صغير في مسرحيّة. هل أحببت ابنتي، وحاولت أن أخلّصها من هواجسها الأشدّ سوداويّة، وأنقذها من انغماساتها الأسوء؟ ليس إيّاي: كانت سببَ متاعبي، وانزعاجي، عائقًا في طريق نجاحي المسرحي، مصدرَ إحراج وخجل أمام أصدقائي الأذكياء في عالم الادّعاء الهشّ الذي كنت أحاول أن أشق فيه طريقي إلى الشهرة. كما ترى: كلّه كان كذبة، دورًا كنت ألعبه، وكنت ألعب بشكل سيّئ، ذلك الدور. والآن كنت قد ارتكبت الأسوء على الإطلاق، انسحبتُ من المسرحيّة، تاركًا الطاقم ليواجه صيحات الجمهور وغضب الإدارة، في حين تراجع كلّ المموّلين.

كما أقول، لم تعد اللبؤةَ التي كانتها ذات يوم. في الأيّام الخوالي كانت ترعب حتى نفسَها بعنف استنكاراتها. كنّا نثور واحدُنا في وجه الآخر إلى وقت متأخّر من الليل، على ساحة معركة، مغطّاةٍ بالكريستال المهشّم ودائرةٍ بأدخنة السجائر وأبخرة الكحول، ونصحو في ضياء الصباح الشاحب، مرارة مالحة في فمينا وحلقانا ملتهبان من الشراب والصراخ، ويمدّ أحدنا يدَه إلى الآخر، بارتعاش، تحت الملاءات، ليست بنا جرأة لنحرّك رأسينا، ويسأل سؤالًا مرتعشًا عن الحال فيجيب الآخر بصوت خفيض أجشّ بكلام تطمينيّ، ثمّ نستلقي هناك، نعدّ جراحاتنا، متفاجئين من أنّ حربًا أخرى انتهت وكنّا لم نزل نتنفّس.

استطعت أن أسمع لِلي في المطبخ تتسمّع إلينا، محاولةً ألّا تصدرَ صوتًا.

أمر مثير لطفل، شجار حقيقي بين كبار. اعتادت كاس أن تحبّ سماعَنا إذا حمي الوطيس، ربما كان نظيرًا مريحًا لقعقعة الحرب في رأسها. الآن انتظرتُ وسرعان ما استرخَتْ ليديا، وانحنَتْ إلى الأمام بتعب وذراعاها مشبّكتان على ركبتيها ورأسها متدلٍّ، تنهّدات ناشجة عظيمة تجعلها ترتعد بين حين وآخر، ارتجافاتُ ما بعد فورة الغضب. تجمّعَتْ حولنا الظلال المصدومة مثل متجمهرين يقتربون بحذر من موقع انفجار لم تزل نارُه تُعثّن. على المشمَّع قربَ قدمي إشراقة مفاجئة تسلّلت وارتعشت. غريب، كيف ينجذب الألم إلى هذا الممرّ، إلى قلب هذا المنزل بشدّة رطوبته وفساد هوائه، بامتداد جداره البنيّ المصمَت من جانب وبروز الدّرج من الجانب الآخر. في الأصل، في أيّام أفخم، في زمن بعيد قبل زماننا، كان الممرّ يقود إلى أجنحة الخدم في الخلف، عند المنتصف على طوله لم يزل يوجد الهيكل لما كان بلا شك بابًا بَيْزيًّا[101] أخضر، أُزيل منذ أمد طويل. يقف الهواء هنا لا يتحرّك، لا يتغيّر لقرون، على ما يبدو؛ بيادق غامضة تسبح فيه، مثل سمك بطيء. هناك رائحة بنيّة كريهة سكنتني طفلًا؛ كانت مثل الرائحة التي صنعتُها عندما كوّبت يديّ على أنفي وفمي واستنشقت النّفَسَ نفْسَه داخلًا وخارجا. أمي هي التي وضعت الأريكة هنا، سحبتها بنفسها من الغرفة الأماميّة ذات يوم عندما كنتُ في المدرسة، نزوة أخرى من نزواتها. وقع النزلاء في غرامها على الفور، لم تكن تخلو قطّ من شخص يجلس عليها، هذا يتعهّد خيبةً في الحبّ، وذاك البداياتِ غيرِ المعترفِ بها لمرض سرطان. كاس أيضا كانت تحطّ هنا، وإبهامها في فمها وساقاها مطويّتان تحتها، خصوصًا بعد نوبة من نوباتها، عندما يؤذي الضوء عينيها ولا تريد شيئا سوى العزلة، والصمت، والظلال.

---

101 نسيج أخضر شبيه لما تُكسى به موائد البليارد.

الحقيقة أنّ ليديا كانت دائمًا ولم تزل تغار منّي ومن كاس. أوه أجل، لقد كانت تغار. كانت الحال كذلك من البداية. إلى أحضاني كانت كاس تهفو وهي طفلة تخطو خطواتها المتعثّرة الأولى، مهما كانت التملّقات الحلوة التي قد تعرضها أمُّها عليها، مهما كانت تودّدات التشجيع أو صيحات الثناء. حتى فيما بعد، حين أخذ عالمها يسودّ باطّراد، كنتُ أنا من تبحث عنه ابنتنا أوّلًا، كانت يدي متشبّثَها متجاوزةً كلَّ الأيدي الممدودة لإنقاذها من السقوط في هاوية ذاتها. عَيْنَيْ مَنْ التمسَتْ حين صحَتْ من نوبتها الأولى، رانيةً إلى الأعلى من الأرض بجانب سريرها والزبدُ الملعونُ لم يزل على فمها وتلك الهيئة على وجهها التي ظننّاها كانت ابتسامة غريبة لكنّها لم تكن غير تأثير العضلات المتقلّصة إذ ترتخي؟ إلى مَن ركضتْ، ضاحكةً من الرعب، حين عرفَتْ أنّ نوبةً على وشك أن تهجم عليها؟ لمن وصفَتْ رؤاها السمعيّة، الجروف الزجاجيّة المتشظّية والطيور الرهيبة المصنوعة من معدن وخِرَق التي حلّقت في عينيها؟ إلى من التفتَتْ ذات يوم عند مَزْهَرِ الزنابق في حديقة أحدهم وهمست في اندفاعة الاكتشاف المبتهجة بأنّ تلك، تلك كانت الرائحة، كرائحة لحمة متعفّنة حلوة شهيّة رائعة، التي غمرت الهواء حولها في الثواني التي سبقَت نوبةً؟ من كان الذي صحا أوّلًا حين ارتفعتْ تلك الصرخة خلال الليل، ذلك العويل النحيل العالي الطويل، كأنّ عَصَبًا يُسحَب ببطءٍ من غلافه؟

قعدتُ جنبَ ليديا على الأريكة، هابطًا بجسمي ببطء كما لو كانت نائمة وأنا لا أودّ إيقاظَها. كانت الإشراقة المفاجئة على المشمّع قد تحرّكت بخفاء بوصةً أو اثنتين. لا بدّ أن القمر في مساره يميل الآن أقربَ ما يمكنه إلى الشمس، مُولّيًا وجهَه شطرَ الضياء، مثل عثّة. نفحة ضعيفة من دخان

قَشَيٍّ تطايرتْ في الهواء، حقل محصود في مكان ما كان يحترق. كان في الصمت أزيز، كأنّ أوتار قيثارة مُسِحَت مسحًا ولم تُنقَر. شفتي العليا كانت رطبة على نحو مزعج. قبل زمن طويل، عندما كنت صغيرا، في يوم صيفيّ كهذا، ساكن وحارّ، مشيت عبر الحقول، آه، لأميال، على ما بدا، إلى مزرعة، لأشتري التفاح. أحضرت معي كيس تسوّق أمّي من القماش الزيتي؛ له رائحة دهنيّة بغيضة. انتعلت صندلًا، لدغتني ذبابة خيل في مشط القدم. كان بيت المزرعة مغطّى باللبلاب وله نوافذ كثيرة لامعة داكنة صغيرة. إنّه نوع الأماكن حيث في كتاب مغامرات صبيٍّ تجري أفعال الظلام على قدم وساق، وحيث يلبس المزارع صُدْرة وطِماقًا ويحمل مذراةً متوعِّدة. في الفناء كلب أبيض وأسود هَرَّ في وجهي ودار في دوائر متذلّلة، يكاد بطنه يحتكّ بالحصباء. بينما وقفتُ في الرواق المرصوف بصفائح الصخر أخذَتْ امرأة فظّة سمينة في مريلة مزهِّرة كيسي وذهبَتْ إلى أعماق المنزل المظلَّلة. كانت هناك أصصُ فخّار توزّعتْ فيها نبتاتُ إبرة الراعي كثيرةُ العُقَد وساعةٌ أثريّةٌ بدا أنّها تَتَردّد قبل كلّ تكّة. دفعت للمرأة شِلِنًا ولم تقل شيئًا، مشاهدةً إيّاي أذهب. الكلب في الفناء هرّ مجدّدًا ولعق شفتيه. الكيس كان ثقيلًا الآن، وظلّ يخبط ساقي. توقّفت في درب إلى جانب بركة كثيفة وشاهدت بقّ الماء المتزحلق؛ قوائمه الطويلة تركت في سطح الماء انبعاجات «بِيُوتَريّة[102]»؛ وتَحرَّك كما لو كان يُحرَّك بأسلاك. تخلّل ضياء الشمس الأشجار مثل دخان ذهبيّ ساخن. لماذا ذلك اليوم، تلك المزرعة، زوجة المزارع، التفاح، تلك الحشرات على تلك البركة- لماذا أيٌّ من هذا؟ لا شيء حدث، لا كُشِفَ لي عن كَشْفٍ عظيم، ولا أُعطيتُ بصيرة باهرةً، ولا فهمًا مفاجئًا، لكنّه كلّه

---

102 بيوتر: أُشابة معدنيّة أو سبيكة مكوّنها الأساسيّ القصدير. تصنع منها الأواني والشمعدانات وأطقم الشاي.

هناك، واضحٌ كأمس- أوضحُ!- كما لو كان شيئًا جليلًا، مفتاحًا، خريطةً، شفرةً، إجابةً عن سؤال لا أدري كيف أسأله.

«ما هو؟» قالت ليديا دون أن ترفع رأسها، ولثانية ظننتها قد كانت بطريقة ما تقرأ أفكاري. «ماذا حلّ بك، ما الخطب؟ ماذا»- بتعب- «ماذا حدث لك؟»

التفّاح كان أخضر مُبْيَضًّا شاحبًا وكل قضمة منه صَحِبتَها فرقعةٌ خشبيّةٌ مُرْضِيَة. أتذكّره؛ إلى هذا اليوم أتذكّره.

«يتملّكني الشعور»، قلتُ، «الاعتقاد، الذي لا أستطيع الفكاكَ منه، بأنّ شيئًا قد حدث، شيئًا فظيعًا، ولم أُعِرْهُ انتباهًا كافيًا، ولم أعطه الاهتمام الواجب، لأنّي لا أدري ما هو».

كانت صامتة، ثم ضحكت شِبْهَ ضحكة، وقامت ومسحت يديها بشدّة على عضُديها. كما لو كانت قد شعرت البرد، مُبقِيةً وجهَها مُشَاحًا عني.

«ربما أنّه حياتُك»، قالت. «وتلك كارثة بحدّ ذاتها، أليس كذلك؟»

*

المساء، وهي ما زالت هنا. على الأقلّ، لم أسمعها تغادر. لا أدري ما تخطّط له، لم يصدر صوتٌ منها، من أيّ أحد، لساعات. الأمر مقلق. ربما صادفَتْ كويرك، وهي معه الآن، تبثّه هومَها. يلائمه. أو قد تكون حصرَتْ البنتَ في زاوية، ربما تستجوبها، تريد أن تعرف هل كنت قد تحرّشتُ بها. وأنا أتوارى في مخبئي، منحنيًا على طاولتي الخيزرانيّة، شاعرًا بالغضب والقلق. لماذا يجب أن أكون المذنبَ دائمًا؟ لم أطلب منها أن تأتي إلى هنا، لم أدعُها. كلّ ما أردته أن أُترَك وشأني. يمقتون الفراغ، الآخرون. تجد ركنًا هادئًا حيث يمكنك أن تحطّ رحلَك بسلام، ثم ما هي إلا دقيقة وينطّون في

وجهك، محتشدين بقبّعات الحفل، ونافخين صفّارات الورق وملحّين عليك بأن تنهض وتشاركهم الاحتفال. لقد سئمتهم جميعًا. لن أخرج حتّى تخرج.



صباح اليوم التالي، وفي الجوّ كثير من الإثارة. السيرك، من بين كلّ الأشياء، قد أتى إلى البلدة. بعد ليلةٍ من نوم مضطرب أيقظني مبكّرًا تداخلُ أصوات خارج نافذتي، فنظرت خلال شقٍّ في الستائر لأجد دزينة من العربات أو أكثر مركونة بزوايا عشوائية في الميدان. الأحصنة قد تُرِكَتْ مفكوكةً، ورجال مفتولو العضلات متقوّسو السيقان في صُدَرٍ مخطّطة كانوا يعجّلون جيئة وذهوبًا، يجدلون حبالًا، ويرفعون أشياء، وينادي بعضهم بعضًا بنَبَحَات وجيزة حادّة؛ كأنّ العروض كانت قد بدأت وهم كانوا العرضَ الافتتاحي. وفي أثناء ما كنتُ أشاهد، راحت أعمدة الخيمة تُركَّب،وأُلقيَ على الأرض «تَرْبولينٌ» عظيمٌ وبُسِطَ بسرعة. حول الميدان، في نوافذ غرف النوم الأخرى، ستائر أخرى كانت ترتعش، وحتى الباب الأمامي الغريب فُتِح بحذر وظهر رأس معقوص أو وجه مغطّى برغوة صابون، مطلًّا من وراء الباب في دهشة دائخة.

«ماذا يجري؟» سألَتْ ليديا بنعاس من السرير خلفي، حيث كانت قد رفعت نفسها على مرفق، يدٌ مرفوعةٌ كي تحجب الضوء عن عينيها.

«إنّه السيرك»، قلت، وكان عليّ أن أضحك، رغم أنّ الضحكة خرجت أشبه بسُعْلَة.

في الحقيقة، كما اكتشفت لاحقًا، هو أكثر من سيرك، إنه ضربٌ من عرض متجوّل، بساحةِ رماية، وأكشاكٍ لقذف جوز الهند ولرمي الأطواق، وقفصٍ على عجلات يحوي عائلة قردةٍ جرباء، أرجوانيّة المؤخّرات تهذِر وتزقح وتحملق إلى المارّة بخباثة مضحكة. توجد حتّى قاعة مرايا: أنا ولِلِي كنّا

حاضرَين عندما كانت تُجهَّز. كانت ألواح الزجاج المموّجة الكبيرة تُخْرَج من أغلفتها وتُنْزَل من ظهر العربة، ولبضع لحظات مدوِّخةٍ تذبذبتْ فرقةُ أقزام مطّاطيّين وعمالقة شاحبين وارتعشتْ في توابيت الضياء عديمة العمق تلك. تظاهرَتْ لِيِي بالضجر من كلّ هذا، لكنّ خلفَ نظرتها الماكرة لمعانَ حماس طفوليّ لم تستطع كبْتَه. كنّا قد خرجنا لأخذ جولة استكشافيّة ريثما أعدّت ليديا الإفطار. أحسستُ بتلك الحالة من اليقظة الكاذبة التي تأتي من قلّة النوم والغذاء معًا. وفي الضياء الباكر كان كلّ شيء حولي واضحًا وضوحًا خياليًّا ومحدَّدًا بدقّة، مثل شظايا مِشْكَالٍ مهشَّم. على العتبات الخلفيّة لمقطورة مطليّة بالقرمزي والأزرق الكُحْليّ قعد رجلٌ، يشاهدنا. كان رثّ الملبس، هزيلًا بشعر أصهب ووجه ثعلبانيٍّ نحيل. ارتدى قميصًا أحمر فضفاضًا، وبنطالًا لا شكل له كان أكبرَ منه بكثير، هيئة بهلوانيّة، وكان في إحدى أذنيه حَلَقٌ ذهبيّ. بدا مألوفًا، مع أنّي لست على يقين بكوني قد رأيته من قبل. ذكّرني بشخص اعتدتّ مصادفته في الشوارع في الشتاء الماضي، بدايةَ وقتيَ السيّئ، بدا كذلك أنّ معرفتي به هو الآخر يعتريها الغموض، وبدا أنّه قطعًا قد عرفني، أو عرف عني، إذ في كلّ مرّة نتصادف، وهو أمر حدث بمعدّل تكرار مثير للقلق، كان يبتسم عاضًّا شفته ابتسامة متعجرفة بغيضة، يتظاهر بمحاولة إخفائها خلف يده، لحظةَ يمشي سريعًا بجانبي متجاوزًا إيّاي، بعينين مسدلتين بإصرار، كأنّه ظنّ أنّي قد أتصدّى له، قد أغرس نفسي في طريقه وأجبره على أن يتوقّف، أو أحاول أن أصفعه على أذِنه متى مرَّ بي. هو أيضًا كان شعره أصهب، ولبس نظّارة أومضت عدستاها سخريةً في وجهي، ومعطفًا من صوف خشن، وحذاء باليًا، وبنطالًا متطوِّيًا مثل آلة كونسرتينة. ظننت أنّه ربما قد يكون عضوًا في الرابطة،

ممثّل كومبارس يظنّ نفسه (كِيَنْ[103]) ويكرهني بسبب صيتي ونجاحاتي. بعد رؤيته كان يتملّكني شعورٌ بالانزعاج يمكث أيّامًا. فكّرت في مواجهته والإلحاح عليه بأن يخبرني ما الذي كان فيّ مصدرَ تسليةٍ له، أيَّ أسراري ظنّ أنّه كان قد اكتشفه، لكن كلّما هممتُ بالأمر وجدتُّه قد مضى، مسرعًا في الزحام، رأس منخفض وكتفان مهتزّتان، كما بدا لي، في طَرَبٍ خفيّ. رجل السيرك هذا كانت له نظرةُ المعرفةِ المتسلّيةُ نفسُها، على أنّه كان أكثرَ ثقة بنفسه وليس على ما يبدو مكترثًا بالمرّة بما قد أقوله أو أفعله. رغم ذلك، عندما اقتربنا منه وقف، مُبْرِزًا سيجارة لَفٍّ ومُربتًا على فخذيه المهزولتين كأنّه كان يبحث عن أعواد ثقاب، ودخل إلى العربة. لِلِي، رأيتُ، كانت قد لحَظَتْه أيضًا.

ألقينا نظرة على القِرَدة، أحدهم أرجع فمه إلى الخلف حتى بدا أنّه سيقلب نفسه بطنًا لظهر، أسد متهالك مستلقٍ دون حراك مثل تمثال أبي الهول بتعبيرِ سَأَمٍ لا يُسْبَرُ غَورُه، وجمل عربيّ مُرْوِح ومتغطرس معقولٌ إلى شجرة كرز، كان يمزّق أوراقها الدانية بشفاهه المطّاطيّة ويبصق على الأرض باحتقار. توقّفَتْ لِلِي لتشاهد في رهبة فرسًا كُميتًا يبول بغزارة. على الرغم من جوعي فلم أكن راغبًا في الرجوع إلى المنزل. لا أدري أيَّ الأمرين أجده أصعبَ عليّ مواجهةً، غضبَ ليديا أم مرحَها النزِقَ الذي هو نتيجة حتميّة له. بعد شجارنا أمس ظلّت عابسة طيلة المساء، لكنّها رضخَت لاحقًا، مثلما عَلِمتُ أنّها ستفعل. كنتُ قد جعلتها تصحبني إلى الحانة، من أجل، أعترفُ، أن أتيحَ لكويرك والفتاة مجالًا كي يهجعوا على راحتهم دون أن تدري، لأنّي لم أكن قد استجمعت من شجاعتي ما يكفي لأخبرها عن إقامتهما الدائمة.

---

103 إدموند كِيَنْ (1789 – 1833)، ممثل مسرحيّ إنجليزي. كان يعدّ أعظم ممثلي زمانه على الإطلاق.

شربنا الكثير من «الجِن»، وهَوَينا في الشبق- أجل، أجل، لقد وَلِهتُ على عربة الجنس، أخشى أنّي، بعدما ظننتُ أنّي برئت من كل ذاك الهياج. لكنّ كلينا كان حنونًا ومتسامحًا، وفي سويعات الفجر الملتمعة عَلِقتُ بدفئها الأليف مثل حيوان جِرابيّ بجراب أمّه، شعرت بأنّي أكملُ عقلًا ممّا قد شعرتُ منذ لا أستطيع أن أتذكّر متى. بحلول الصباح، مع ذلك، حلّت الشكوك. شيءٌ ما ليس صحيحًا تمامًا، شيءٌ ما مُخْزٍ حتّى بعضَ الشيء، في الطريقة التي تُحوِّل بها حنقَها بسهولة واضحة كهذه إلى شكلٍ آخرَ بالكاملِ من الشغف. ربما أكون بارد القلب ومتعنّتًا، لكن عندما تقال أشياء فظيعة أفهم أنّها على الأقل تعبير دقيق نسبيًا عن المشاعر الحقيقيّة، والقناعات الراسخة. على سبيل المثال، عندما ترشقني ليديا بسهام التّهم- أنّي زوج سيّئ وأبٌ مقصّر، أنّي وحشُ اعتبارِ الذات، أنّي على المسرح لا أستطيع أن أمثّل وفي الحياة لم أتوقّف قطّ عن التمثيل- أتأثّر بشدّة، وأتروّع، حتّى، رغم المظهر الخارجيّ الصَّلْدِ الذي أُعْنَى بالحفاظ عليه. ليس ذاك فحسب، بل إنّي أتفكّر في ذاتي، حتى في أتون المعركة، وأتساءل أهذه الأشياء ربما صحيحةٌ عنّي، وإن كانت صحيحةً كيف ينبغي لي أن أسعى محاولًا على الأقلّ أن أصلح أخطائي وأتدارك فشلي. زوجتي، على الجانب الآخر، بناءً على السرعة والشموليّة اللتين تُغيِّر بهما مزاجها، يبدو أنّها ترى تبادل إطلاق النار الكثيف هذا، الذي يخلّفني مخرَّقًا بثقوب تُصفّر خلالها ريحُ إدراك الذات دون عوائق، ليس أكثر من مُزاح خفيف، مداعبات عشّاق، أو حتى، مثل البارحة، شكل من مقدّمات الجماع. أين إحساسها بالواجب، أقصد بالواجب أن يعني المرء ما يقوله، وأن يلتزم، لأنّه قالَه، بمسؤوليّته تجاهه؟

بعد التلصّص على السيرك خلال الستائر لحظةً أطول- لم أكن على

يقين تامّ بأنه ليس حلمًا- عدتّ إلى السرير، وصحوتُ عمّا قريب، مرةً ثانية، على صوتها تُصفر. أجل، تُصفر. ألم أذكر أنّها لا تعاني من الخُمَار؟ بحارُ «جن-بلو» غاضبةٌ كانت تصطفق داخل رأسي، أمّا هي فكانت تقعد عارية ولامبالية على كرسيّ عند النافذة، تمكيج وجهها بمساعدة مرآة جيب وتصدر ذاك الصّفير النّشاز الذي تزعم أنّها غير واعية به، لقد كاد ذلك ينهي زواجنا قبل أن ينتهي شهر العسل. استلقيت لبعض الوقت وتظاهرت بأنّي لم أزل نائمًا، خائفًا من أن يكون مطلوبًا منّي أن أكون رائق المزاج، ومعانيًا من ذلك الخجل الفريد، يكاد يرقى إلى درجة الخزي، الذي أشعر به دائما بعد فورات العراك والتسوية تلك التي آمل ألّا تصبح من جديد سمةً متكرّرة في حياتنا معًا، إن كان لنا أن نحظى بحياة معا. إنّه في لحظات كهذه، مشحونة وملتبسة، أفهم ذاتي أقلَّ ما أفهمها، أبدو مزيجًا من الأوهام، الرغبات الكاذبة، الأفكار الخاطئة الحمقاء، كلّها مُخْرَسة ويمكن إدارتها بمخدّر طبيعي، (إندروفين) يبلسم العواطف لا الأعصاب. أمن الممكن أن أكون قد عشت حياتي كلّها في هذه الحالة؟ أمن الممكن أن أكون في ألم دون أن أتألّم؟ أيراني الناس فيكتشفون غرابة طفيفة في هيئتي، كما يلحظ أحدهم فكًّا متصلّبًا وعينًا مرتخية بعض الشيء لشخص قام مؤخّرا من كرسيّ طبيب الأسنان؟ لكن لا، ما فُعِلَ بي أعمق من طبّ الأسنان. أنا مريض قلب. ربما يوجد اسمٌ حتّى لما أشتكي منه. «سيّد كليف، نحنحة نحنحة، أخشى أنّه ما نسمّيه نحن الأطبّاءَ: الخدَار القلبي[104]، والتكهُّن بمسار المرض لا يبعث على التفاؤل».

متظاهرًا بالنوم لم أزل، رأيت خلال اللمعة الطاووسيّة للهُدْبِ السُّفلى أنّ ليديا، فرشاة المكياج معطّلة، كانت تنظر إلى انعكاسي في مرآتها بعين

---

104 فقدان الحسّ بالقلب. حالة طبيّة متخيّلة من ابتداع الراوي.

ساخرة، عارفة تمام المعرفة أنّي كنت مستيقظًا. لم أكن قادرًا قطّ على خداعها؛ قد تنطلي أساليبي المحتالة على الآخرين، لكن ليس على ليديا. جلستُ، فابتسمَت. لم أحبّ تلك الابتسامة، متواطئة، ماكرة، معبّرة عن مؤامرة الجسد البدائيّة تلك التي كنّا قد خُضنا غمارَها مجدّدًا في الليل. أعيد وأكرّر، كيف لها أن تستخفّ غايةَ الاستخفاف بالأشياء الفظيعة التي كان كلانا قد صرخها في وجه الآخر- قالت أنّي قد كسرتُ روحها، كما لو كانت فرسًا، فرددتُ بأنّها لو كانت فرسًا لكنت أرديتها قتيلةً بطلقة نار، شيء من هذا القبيل- قبل أن نهوي سكرانين في السرير، ثمّ، في أحضان أحدِنا الآخر.

«تبدو مريعًا»، قالت، بصوت أجشّ ومتسامح.

لم أُجِبْ. شيء غريب في ليديا، ذلك أنّ جسمها بالكاد قد تغيّر بمرور السنين. ثَخُنتْ بعض الشيء، بالطبع، والثِّقْلُ يترك آثاره التدريجيّة الحزينة، إلا أنّها في ما يتعلق بالأساسيّات لم تزل الأميرةَ المدلّلة بالقَدِّ غيرِ المتناسق على نحو مثير، المترهّلة قليلا، الفِضَّة الشاحبة، التي اعتدت ملاحقتها على طول الأرصفة قرب فندق الهالسِيَنْ ذلك الصيف قبل كل تلك السنوات. للحمها طراوة، عجينيّة القوام، تروق للـ«باشا» فيّ، موحيةً بالبرقع والسّراي. لا تخرج في الشمس، بعد شهر في أشدّ مناخات الجنوب حرارةً لن يُبْدِيَ جلدُها سوى لمعان عسليّ خفيف سيزول خلال أسبوع من عودتها إلى الشمال الرماديّ. في الأيام الأدفأ ستظلّ أجزاء منها- خاصرتاها، باطن ذراعيها، البشرة الناعمة لنحرها- تحتفظ ببرودة خزف صينيّ؛ اعتدت أن أحبّ عناقها في حمرةِ الشغف اللزجة، حاسًّا بها عليّ، بطولها، من رأسها إلى أخمص قدميها، ذلك السطح الكثيف البارد مُنقَّطًا بالقشعريرة. الآن أنظر إليها هناك في ضوء الصبح عند النافذة، كبيرة وعارية، ساق على ساق، الكتفان المنمّشتان

والشديان ذَوَا العروق الزرقاء، طيّات اللحم العميقة الثلاث تلك على كل جانب من خصرها الذي اعتدتّ أن أقرصه إلى أن ترتعش في ألم كسول، فيتحرّك الكلب القديم فيّ ويرفع خطمه المرتعش- أجل، أجل، أنا شخص رائع في الحديث عن الثبات على المبادئ. لم أكن هائمًا، رغم ذلك، إلى حدّ أن أفشل في ملاحظة حقيبة السفر الصغيرة لكن المجهّزة جيّدًا بشكل يسترعي الانتباه التي كانت ليديا، بما يكفي من بعد النظر، قد أحضرَتْها معها. أخشى أنّها تخطّط لإقامة طويلة.

لا أشباح اليوم، لم أحظ برؤيةٍ واحدة؛ هل أعلنوا بمقدم ليديا الرحيلَ إلى الأبد؟ أشعر دونهم بالقلق. شيء أسوأ قد يحلّ محلّهم.

عندما نزلنا أنا وليديا، كانت لِلي قد سبقتنا إلى المطبخ، قاعدة عند الطاولة ورأسٌ على يد، متسمّرة إلى قصّة مصوّرة وتتناول حبوب الإفطار بدقّةٍ آليّة. فَزِعَتْ ليديا من مرآها هناك، لكنّ فزعَها كان أكبر حين أطلّ كويرك بعد لحظة قادمًا من الرّدهة في حمالة بنطال وقميص دون معطف، برغيف وقارورة حليب في كيس مربوط. توقّف إذ رأى ليديا، وصرف نظره جانبًا. غشى الجميعَ السكونُ لحظةً متوتّرة، وحتى لِلي رفعت بصرها عن القصّة في يدها. ألحّت عليّ ضحكةٌ. «هذا»، قلتُ، «هذا هو السيّد كويرك، حبيبتي». كويرك على عجل مسح يدًا على فخذه وتقدّم، ومدّها للمصافحة، بابتسامة عريضة قلقة. زغب من شعر ضارب إلى الحمرة اندلق كثيفًا من فتحة ياقة قميصه، صدمني المشهد، بدا كما لو كان حَشوُه سيطلع، وأوشكت فعلًا أن أضحك. سمحَتْ ليديا ليدِها بأن تُصافَح وسحبَتها على الفور. «فطور؟» قال كويرك محفِّزا، عارضًا كيس المؤونة الشحيح. أطلقت عليّ ليديا لمحةً متسائلةً بتوعّد تظاهرتُ بأنّي لم أنتبه لها. هي شخص عمليّ، مع ذلك،

ودون أن تنبس بكلمة أخذَت الخبز والحليب وحملتهما إلى نَضَد المائدة، وملأت إبريقًا في المجلى ووضعته على عين الفرن، في حين نظر إليّ كويرك من خلف ظهرها وحاجباه مرفوعان وفمه مائل إلى أسفل، كما لو كنّا وَلَدَي شوارعَ ضُبطا على يد أحد البالغين وهما يدبّران مقلبًا.

لم أقاوم أن أتسلّى بكلّ هذا- المأزق الاجتماعي كان مضحكًا بصورة رائعة. لكن متعتي كانت قصيرة العمر، رغم ذلك. كويرك، لا شكّ وهو يرى ترتيبات عيشه في خطر، أعدَّ نفسه مباشرةً، على نحو مثير للاشمئزاز، لمهمّةِ استمالةِ ليديا. لقد نجح؛ طالما كانت صيدًا سهلًا للأوغاد ذوي المنطق المعسول والمقبول، كما يمكنني أن أشهد. بينما انشغلَتْ بتجهيز إفطارنا تبعَها حول المطبخ، معجِّلا لتقديم المساعدة كلّما بدا أنّها مطلوبة، مواصلًا في الأثناء تيّارَ حديثٍ تافه. تحدّث عن الجوّ البديع الذي كانت قد جلبته معها، قال أنّه كان قد تساءل، داخلًا إلى المنزل، لمن ترى كانت السيّارة الجميلة المركونة في الخارج- لا بدّ أنّه قد لمحها البارحة، وبحصافةٍ ظَلَّ مبتعدًا إلى ما بعد أن أُطفئت الأنوار- أخبرها قصصًا عن البلدة وشرع حتى في سرد تاريخ مختصر للمنزل. كانت هذه هي القشّة الأخيرة. ذهبتُ تحت وطأة نفور مبهم إلى الباب، مغمغما بجملةِ خروجٍ حول الذهاب في نزهة قصيرة، كأنّي قد ذهبت قطّ في نزهة إلى أيّ مكان. اندفعَتْ لِلي من فورها واقفةً، مَشَّتْ فمَها في ساعدها، وقالت أنّها ستأتي معي. في الخارج، كان لشمس البكور مظهر ليمونيّ حادّ، وكان الصباح كلّه لمعة وشظايا زجاجيّة، وهو ما لم يخفّفْ صداعي، أو يحسّنْ مزاجِي. توقّفَتْ لِلي وتحدّثَتْ إلى واحد من مساعدي السيرك، من النوع المُتَطَلْيِن[105] بخصل دهنيّة مجعّدة وزمام ذهبيّ في فتحة أنفه، شابكةً يديها

105 المتشبّه بالإيطاليين.

عند مستدَّق ظهرها ومميلةً وركيها الهزيلتين، العاهرة الصغيرة، وعادت إليّ بالخبر المتحمّس أنّ العرض الأوّل سيكون بعد ظهر هذا اليوم. ينتابني الشكّ المقيت بأنها تأمُل أنّي سآخذها إليه. حسنًا، لمَ لا، يمكننا أن نجعل منها نزهة عائليّة، ليديا، وكويرك، والفتاة، وأنا، ربّ الأسرة العجوز.

لمّا رجعنا كانت ليديا قد طبخت بيضًا ولحمًا مقدّدًا وخبزًا مقليًّا وطماطم وسُجُقًا داميًا؛ لم يكن قد خطر في ذهني أنّ هذا القدر من الطعام كان في المنزل- ربما أحضرَته معها، مغلّفًا في تلك الحقيبة العميقة- وغَثِيَتْ نفسي من المنظر، الذي كان تقريبًا بمثل سوء الروائح؛ تجافيتُ مؤخّرًا عن طريق الأكل. كويرك، وقد عقد محرمة كبيرة ومتّسخة بعض الشيء حول عنقه مكانَ المنديل، كان الآن يأكل بتلذّذ، وليديا، مرتديةً مريلةً من مرايل أمّي القديمة، كانت عند الفرن تحضّر ببهجةٍ طبقًا آخر من البيض. أخذتُها من الرُّسْغ وسحبتها إلى الممرّ، وطالبتُ بأن أعرف، بهمسة مغتاظة، عبر صرير أسنان، ما الذي ظنّتْ أنّها كانت تفعل، مُنْشِئةً هذه «الباروديا[106]» المشوّهة للحياة العائليّة. لم تزد، مع ذلك، على أن ابتسمَتْ بلطف- إنّها لا تدرك كم تقترب أحيانًا من أن تصيبَها كدمة حول العين- ولامسَت بيدٍ خَدّي وقالت أنّها كانت قد فكّرتْ في أنّي سأكون جائعًا بالتأكيد هذا الصباح وفي حاجة إلى شيء ساخن كي يرمّم قوّتي. أشعر بأنّي أفقد السّيطرة هنا؛ أشعر بأنّ شيئا كبيرًا بتّ أمسكه في يديّ وقتًا طويلًا حتى توقّفتُ عن ملاحظته قد تحوّل فجأةً وأصبح زَلِقًا، ويمكن في أيّة لحظة أن يهوي كلُّه من قبضتي.

«جلبتَهما إلى المنزل»، قالت، مشيرةً برأسها إلى جهة المطبخ وآل كويرك.

«لا، لم أفعل. كانا هنا عندما أتيت».

---

106 المحاكاة الساخرة.

«لكنّك تَرَكْتَهما يبقيان». إذن فقد اعترف كويرك بكلّ شيء. رَسَمَتْ على وجهها ابتسامةً منتصرةً كبيرة، في المركز الناعم منها تصوّرتُني أغرس قبضةً. «أنت الذي يبدو أنّه بحاجة إلى عائلة».

طبعًا، ذاك شيء لم أُحِرْ أمامه جوابًا، وأتيت هنا إلى حجيرتي الضيّقة في عبوس، حاضنًا في الذهن رضاءً صبيانيًّا وغير منطقيّ برفضي أن آكل فتات إفطار، تبعتني روائحه الكريهة مثل سخرية بي صاعدة العتبات الثلاث وعابرة الباب الأخضر، ولم يزل شيء منها عالقًا في المكان إلى الآن. تهاويتُ على طاولتي الخيزرانيّة، متجاهلًا صريرَ اعتراضها القلق وصياحَه، وانتزعتُ قلمي وسطّرتُ قطعةً مطوّلةً في هجاء زوجتي، شطبتُها حالما انتهيتُ منها. أشياء فظيعة كتبتُها، بذيئة بذاءة لا تُكَرَّر، جعلتني حتّى في أثناء تدوينها أحمرّ خجلًا. لا أدري ماذا ينتابني في لحظات كهذه، هذا السُّعار الأحمر المخيف الذي قد يجعلني أرتكب أيّ شيء. ماذا هناك لأكون غاضبًا عليه إلى هذا الحدّ؟ أدري ما تنويه ليديا، ليس مستهجَنًا للغاية. لديها قدرة عظيمة على خلق الأحسن من أسوء المآزق. لمّا اكتشفَتْ كيف هي الأمور هنا، أو كيف ترى أنّه حالُها، أنا (كروزو[107]) مكتنف باليابسة، ملتحٍ وعيناه وحشيتان، وليس كويرك لوحده هو (فرايدي[108]) بل هناك ابنة أمّ بديلةٍ كذلك- أذاك ما تكونه لِلِي؟ كُتبت الكلمات قبل أن أملك وقتًا للتفكير فيها- انطلقَتْ من فورها تبدع بيئة تحاكي، مَهَمَا كان الشبه مروِّعًا، بيتَنا الحبيب، الذي تفترض أنّي أتوق إليه. ليدياي، ربّة البيت إلى الِأبد. حسنًا سيتطلّب الأمر أكثر من قديد مُقرمِش وسجق دامٍ لتحويل هذا المنزل إلى بيت.

---

107 روبنسون كروزو: الشخصيّة الروائيّة الشهيرة.
108 خادم كروزو.

على الرغم من معرفتي أن لا شيء يمكن تحديده بمنتهى الدقّة، فإنّي أؤرّخ لتدشين تغيّرٍ عظيمٍ في موقفي تجاه ليديا من اللحظة، قبل بضع سنوات، عندما أدركتُ أنّها فانية. دعني أشرح، إن أمكن، أو دعني أصف، على الأقلّ، كيف أتى إليّ هذا الإدراك. كانت تجربة في غاية الغرابة، أو ربما إحساسًا ستكون كلمةً أفضل. ذات يوم، انصرفتُ كالمعتاد إلى المهمّة العنيدة لكن غير المنضبطة لتطوير الذات، كنت أقرأ نصًّا معقّدًا لأحد الفلاسفة، نسيت من يكون، يتعلّق بالإمكانيّة النظريّة لوجود اليونيكورن (أحادي القرن)، حين دون مبرّر أستطيع التفكير فيه رأيتُ في ذهني فجأةً رَسْمَ زوجتي، واضحًا جدًّا ومفصَّلًا وإن كان صورةً مصغّرةً لها، مرتديةً، على أكثر نحو لا يصدَّق، فستانًا غير لائق من قماش شبيه بالـ«بروكاد[109]»، متيبّس، لم تمتلك مثله قطّ في- ماذا أسمّيه؟- العالمِ التجريبيّ، وشعرها مسرَّح على موضة لفّات رغوة البحر المتجمّدة المفضّلة جدًّا لدى الملكة إليزابيث الثانية في سنواتها الأخيرة، لكنّها التسريحة التي لم تكن ليديا، ليديا الحيّة، لتحلمَ قطّ بتبنّيها؛ أذكر هذه التفاصيل فقط بروحٍ تتوخّى الدقّة العلميّة، لأنّي لا أستطيع تقديم أيِّ شرحٍ لها؛ في هذه الصورة غير المألوفة لها- زوجتي، أعني، لا الملكة الإنجليزيّة- كانت معلَّقَةً في فضاء مظلم لا يُسبَر غوره، منطقة فراغ مطلق حيث كانت هي النقطةَ المحدَّدة الممكنةَ فقط والوحيدة، والتي كانت تتراجع فيها إلى الخلف، بمعدّل سرعة ثابت لكنّه ليس سريعًا، ويداها مرفوعتان سدًى أمامها كما لو كانت تحمل كرة سلطانيّة خفيّةً في يد وصولجانًا خفيًّا في الأخرى- السّمْتُ الملكيُّ من جديد- على ملامحها حيرةٌ وذعر طفيف إلى الآن إلّا أنّه يتعمّق، وأدركتُ بيقين مرعب، يخطف

---

109 نسيج مقصّب.

الأنفاس، أنّها ذات يوم ستموت. لا أقصد أن أُلْمِحَ، بالطبع، إلى أنّي كنت قبلُ قد تصوّرتُها بصورةٍ ما خالدةً. رغم سخف الأمر، فإنّ ما كنت قد فهمت من رؤياي تلك، ببساطة، بدهشة، كان هو آخَرِيَّتَها المطلقة، ليس فقط بالنسبة إليّ، بل أيضًا بالنسبة إلى كلّ شيء آخر كان في العالمِ، كان العالَمَ. كنتُ حتّى ذلك الحين، وكما، في الواقع، فعلتُ أغلبَ الوقت منذ ذلك الحين، كونَ العقلِ عضوًا كسولًا، قد تصوّرتُها جزءًا منّي، أو على الأقلّ من محيطي المباشر، قمرًا مثبّتًا ومحدّدًا ضمن الحقل التجاذبيّ للجسد، للكوكب، للعملاق الأحمر[110] الذي هو كينونتي. لكن إذا كان يمكن أن تموت، كما رأيت الآن يقينًا أنّها عرضةٌ للفناء، وأنّها ستموت؛ إذا كان مصيري يومًا ما أن أفقدها، حتى في ذلك الفستان الفظيع والتسريحة الشنيعة، في أعماق الأبد المجهولة؛ إذا كانت ستُسْتَعَاد، مرتدّةً بعيدًا عنّي مثل كرة فرقعتْ حرّةً عند نهاية مطّاطها، فكيف إذن قد يقال بأنّها الآن، على نحو كاملٍ، محسوسٍ، معلومٍ، هنا؟ لقد رأيت حتّى ظروفَ موتها، إن كان لي أن أستخدم هذا الفعل لوصف رؤيا بهذه الضبابيّة. فيها، كانت غرفةٌ، في ما بدا شقّة كبيرة، ليست غرفة جاذبة للنظر، منخفضة السقف إلى حدٍّ ما، لكنّها واسعة وعميقة وحسنة التجهيز. كان الوقت ليلًا، أو آخر المغرب، وعلى الرغم من أنّ كثيرا من المصابيح كان هناك، على الطاولات وعلى الأرفف وبعضها واقف حتّى، مثبّت على قواعد عريضة ثقيلة، على الأرض، فلا مصباح منها كان مضاءً؛ كلُّ نورٍ ثَمَّ كان قادمًا من السقف، كثيفًا، مرهَقًا، لكنه قاسٍ فليس يلقي بأيّ ظلال. الجوّ كان ثقيلًا، لا نسمة هواء، لا حياة، على أنّه ليس بأيّة حال مهدِّدًا أو مكروبًا. شخصٌ كان مسترخيًا في كرسيّ عميق بمسندين، شخص لم أستطع رؤيته،

---

110 نجم ضخم ذو ضياء محمرّ.

لكنّي على ثقة بأنّه ليس ليديا، وشخص آخر كان يمشي عابرًا، امرأة لم أعرفها، ليس فيها ولا في ملبسها ما هو مميّز؛ كانت قد توقّفت، والتفتَت كي تسأل سؤالًا، وانتظرَتْ الآن، لكنّ جوابًا لم يصل، وفُهِمَ أنّ جوابًا لن يصل، أنّ ما من جواب، وبصورةٍ ما كان ذلك هو الموت، موت ليديا، على الرغم من أنّ ليديا لم تكن هناك، لم تكن هناك على الإطلاق. ليكنْ في معلومك، هذا لم يكن حلمًا، أو على الأقلّ لم أكن نائمًا. قعدت والكتاب لم يزل مفتوحًا في يديّ، وعيناي لم تزالا مثبّتتين على الصفحة، وراجعتُ الرؤيا كلَّها، بعناية، الغرفة، النور المرهَق، والمرأة، والشخص غير المرئيّ في الكرسيّ، وليديا، قبل ذلك، نفسها، لم تزل معلّقَةً في الفضاء، مُسرَّحةً بشكل مضحك، ويداها مرفوعتان، لكنّ كلَّ شيء أضحى خاملًا الآن، خاملًا ومسطّحًا، دون حراك، مثل سلسلة صور غير متناسبة، التقطها شخصٌ آخر، في أماكن لم أزرها قطّ. لا تسلني من أين أتت، هذه الصورة، الوهم، الهلوسة، سمِّها ما شئت؛ لا أعرف إلّا ما جرّبتُه، وما، دون سببٍ وجيهٍ، دَلَّتْ عليه التجربة.

سمعت للتوّ، من الأسفل في المنزل، صوتًا لم أميّزه لثانيةٍ. ضحكٌ. يضحكان معًا، زوجتي وكويرك. متى بالضبط رأيت أشباحي آخرَ مرّة؟ ليس اليوم، كما أشرت مسبقًا، لكن هل رأيتهم أمس، أو حتى قبل أمس؟ ربما قد رحلوا حقًّا إلى الأبد. لكنّي لسبب ما لا أظنّ ذلك. آثارهم التي تبقى كلّها تلهّفٌ، استياءٌ، حسدٌ، حقّ. جدٌّ قليلٌ هو الباقي منهم، جدٌّ باهتٍ وغيرِ ذي بال، أي أنّ ما يتركونه خلفهم، تأثيراتهم، تبدو أكثر ممّا يكونونه، كانوه، أنفُسُهم.

تهمةٌ رمتها عليّ ليديا البارحة، أنّي طالما عانيت ضعفًا مؤسفًا تجاه

المشرّدين. كان هذا مرتبطًا بآل كويرك، طبعًا، غير أنّي لا أستبين لِمَ تفكّر في أنّها نقيصةٌ مؤسفة. سألتُها، في النهاية، بأكثر نبرات صوتي تفهُّمًا، أليست الضيافةُ فضيلةً يحثّنا عليها حتّى إلهُ قبائل الصحراء غيرُ المضياف؟ ضَحِكَتْ على هذا، ضحكةً من ضحكاتها الكبيرة، المشفقة ربما. «مضياف؟» صرخَتْ، مطوِّحةً رأسَها إلى الوراء. «مِضْيَاف؟- أنت؟». ما تعتقده هو أنّي لا أميل إلى المشرّدين بسبب حافزٍ خيريّ، إنّما بروحِ الأنثروبولوجيّ، أو أسوء، مُشرِّحِ الأحياء. «تريد أن تدرسَهم»، قالت، «تُفكِّكهم، مثل ساعة، لترى كيف يعملون». كان في عينيها وميضُ شرّ، وعند زاوية فمها نقطةٌ من بصاق أبيض، وعلى كُمّها رقاقةُ رماد. كنّا في غرفة نومنا الآن، ولا مصباح قد أُشْعِل والوهج الحُبَيْبِيّ الأخير للشفق من النافذة يجعل الهواء يبدو صندوقا مليئًا بالهباء المنفعل، والمُضَاءِ بشحوب. الصبيّ والساعة: كم مرّة سمعتُ هذه الاستعارة المبتذلة تُرْمَى عليّ، بلسان سلسلة متعاقبة من العشيقات المخيَّبات، كلّ واحدة تتخيّل أنّها ابتكرَتْها. غير أنّي مرّةً فعلتُها، في الحقيقة، ففكّكتُ ساعةً إلى أجزاء، عندما كنتُ صغيرًا. بعد موت أبي، حدث ذلك. كان قد أعطاني إيّاها، أحضرها إلى البيت في عيد ميلاد في علبة، بأُرْبَةٍ عقدتَها له فتاةُ المحلّ. طراز رخيص، أوميغا، أظنّ كانت الماركة. تحتوي الساعة على سبع بلّورات في آليّة عملها؛ عجزتُ عن إيجادها، باحثًا كما كنتُ، بمفكّي الصغير.

الآن كانت ليديا تتحدّث عن ذلك الشابّ الصغير الذي اعتاد المجيء إلى المنزل، وكيف أشعل غضبَها أنّي كنت أحاول التحدّث إليه. في البداية لم أدرِ مَن كانت تقصد، وقلت لا بدّ أنّها تهذي- ظننتُها قد تضربني على ذلك القول- ثمّ تذكّرتُه. كان فتًى ضخمًا، بصدمةٍ على شكل شعر أصفر وأسنان بيضاء كبيرة مذهلة منخورة بالسّوس على مسافات متساوية، حتى إذا ما

ابتسم، كما كان يفعل كثيرًا وعلى نحو مخيف، بدا كأنّ مفاتيح بيانو مصغّرة قد رُكِّبتْ في فمه. كان تَوَحُّديًّا على الرغم من أنّنا في البداية لم نعرف ذلك. أوّلَ ما ظهر كان يومًا حارًّا مُنْعِسًا في آخر الصيف، مشى داخلًا فقط خلال الباب مصحوبًا بالدبابير ورائحة البحر المُقَطْرَنة النتنة. آنذاك كنّا نعيش في المنزل الواقع فوق المرفأ، حيث كانت روح حماي الراحل لم تزل حاكمةً، مراقبًا إيّاي خصوصًا بعينين خَرَزيّتين. الفتى كان ابن ست عشرة سنة أو سبع عشرة، أظنّ، في مثل سنّ كاس ذلك الوقت. قابلته في الرّدهة إذ كان مقبلًا من المدخل الأماميّ المفتوح والضوء خلفه، يمشي متثاقلًا عن قصد وذراعا المصارع، ذراعاه، مقوَّستان. خِلْتُه لا بدّ صبيَّ توصيل، أو الرجلَ الذي يقرأ عدّاد الغاز، وتراجعتُ واقفًا لأدعَه يمرّ، ومرّ بالفعل دون أن يعطيني نظرةً. لمحتُ عينيه، زرقاوان صَوَّانيّتان ومتّقدتان بما بدا استمتاعًا ضاريًا بمزحة خاصّة. اتّجه مباشرةً إلى صالة الاستقبال، وقد بدا أنّه يعرف تمامًا أين كان يريد، وسمعتُه يتوقّف. الآن بدأ يثير فضولي، تبعتُه. كان يقف في منتصف الأرضيّة، رأسُ أسدٍ كبيرٌ ناتئٌ إلى الأمام على عنق غليظ العروق، ينظر حواليه ببطء، فاحصًا الغرفة، ما زالت تلك اللمعة الفَكِهَة في عينه لكن مع مسحة شكٍّ عارفٍ، أيضًا، كأنّ الأشياء لم تكن حيث ينبغي لها أن تكون، كأنّه كان أمسِ قد أتى إلى هنا وعاد اليوم ليجد كلّ شيء قد تغيّر بالكامل. من المدخل سألته من كان وماذا أراد. سمعني، استطعتُ أن أرى ذلك، لكن مثلَ شيءٍ لم يُدرِكه، صوتٍ من مكان بعيد خارجَ نطاقه. نظرته المتحرّكة انزلقتْ فوقي، عيناه التقتا عينيّ دون أيّة علامة تدلّ على أنّه عرف من أو حتى ما كنتُه، وَثَبَتَتَا على شيء كنت أحمله في يدي، جريدةً، أو قدحًا، لا أستطيع أن أتذكّر ما كان، وهزّ رأسَه هزّةً صغيرةً أسيانة، مبتسمًا، كأنّما

ليقول: لا، لا، ذاك غير هذا تمامًا، وتقدّم واندفع مارًّا بي ومشى مسرعًا بخطى واسعة أسفل الردهة إلى الباب الأماميّ ورحل. وقفت لحظةً في بعض ذهول، غير واثق بالمرّة أنّه كان قد مرّ من هنا، أنّي لم أكن قد تخيّلته؛ كذا لا بدّ أنّ مريم العذراء قد شعرت عندما فرد الملاك أجنحته الذهبيّة وأَزَّ عائدًا إلى ملكوت السماء. ذهبت وأخبرت ليديا عنه، وبالطبع كانت قادرة على أن تخبرني فورًا من كان، الولد المتخلّف عقليًّا لعائلة صيّاد على المرفأ، الذي كان من حين لآخر يفلت من رقابة إخوانه الكثيرين الشديدة ويطوف القرية دون أن ينال أحدًا بأذى قبل أن يُقْبَض عليه من جديد، كما كانت الحالُ دائمًا، في نهاية المطاف. الرقابة لا بدّ قد ارتخت آخر ذلك الصيف، لأنّه زارنا مجدّدًا مرتين أو ثلاثًا، يجيء ويذهب بالصورة المفاجئة ذاتها التي كان قد أطلَّ بها أوّلَ مرّة، وبالقدر القليل ذاته من التواصل. لقد سُحِرْتُ به، بالطبع، وحاولت بكلّ الطرق التي أمكنني التفكير فيها كي أحرِّض ردَّ فعلٍ منه، دون نجاح. لم أستطع أن أفهم لماذا ينبغي لهذه المحاولات للتواصل، للوصول إليه، كما يقولون، أن تُغضِبَ ليديا إلى هذا الحدّ. حدث أنّي في الوقت نفسه كنت أستعدّ للعب دورِ «المعتوه الموهوب»، في دراما منفوخة والآن منبوذة في النسيان تدور فصولها على ضفاف نهير يتصاعد منه البخار في الجنوب العميق[111]، وهنا كان نموذج حّي، يتمشّى في منزلي، كأنّما أُرْسِل إلّي من ملْبوميني[112] نفسها- فكيف لا، طالبتُ ليديا، كيف لا أحاول على الأقلّ أن أجعله يهذي بجملة أو اثنتين، لعلّي أن أستنسخ إيقاعات صوته؟ كلّه كان في سبيل الفنّ، ثُمّ ما الذي سيهمّه في ذلك؟ لم تزد على أن نظرَتْ إليّ وهزَّتْ رأسَها وسألَتْ أَلَيْسَ لديّ قلبٌ، أَلَمْ أستطعْ أن أرى أنّ الطفل المسكين كان

111 منطقة جغرافية وثقافية تضمّ عددًا من ولايات الجنوب الأمريكيّ.

112 إلهة المأساة في الميثولوجيا اليونانيّة.

على نحو بائس فوق إمكان الاتّصال. لكن كان في الأمر ما هو أكثر من هذا، استطعت أن أرى، كان هناك شيء لم تَفُهْ به، حَبَسَها عنه شعورٌ بالخجل أو ما شابه، أو هكذا شعرتُ. وهذا صحيح، فاهتمامي به لم يكن مهنيًّا بالكليّة. أعترف بأنّي طالما فُتِنْتُ بانحرافات الطبيعة. وفِتْنَتي ليستْ حماسةَ الجمهور المتلهّف في عرضٍ لعجيبي الخِلْقة، وليستْ، أُؤكِّد من جديد، توقَ الأنثروبولوجيِّ البارِدَ إلى المعرفة أو شهوةَ المُشرِّح عديمِ الشفقة إلى الدم؛ بالأحرى، هي التّفاني المرهَفُ لعَالِم الطبيعة، بشبكته ومِحْقَنَته. أنا على قناعة بأنّ عندي أشياء لأتعلّمها من المبتلَين بعاهة أو مرض، بأنّ عندهم أنباء من مكانٍ آخر، عالمِ السماواتُ فيه مختلفةٌ، وكائناتٌ غريبةٌ تحوم، والقوانينُ غيرُ قوانيننا، عالمٍ سأعرفه على الفور، لو أُتيح لي أن أراه. أمّا الأغربُ بكثيرٍ من تضايق ليديا من جهودي لحثّ الفتى على الكلام فكان غضب كاس عليّ من أن تربطني به أيّةُ علاقة من أيّ نوع، من أنّي لم أزلج الباب في وجهه بمزلاج ولم أكلّم إخوانه. كان خطيرًا، قالت، وهي تقضم أظفارها، قد ينقضّ على أيّ أحد منّا ويقتلع حناجرنا. بل إنّها مرّةً تصدّتْ له بنفسها، واجهته في الحديقة فيما كان يشقّ طريقَه المصمِّمةَ بِعَتَهٍ إلى الباب الخلفيّ، هجمتْ عليه تخبطه بقبضتيها. يا لمنظرهما، مثل حيوانين من الفصيلة العنيدة نفسها يقاتل أحدهما الآخر على مَجَازٍ يجوزه في طريق غابة لا يسع إلا واحدًا. كانت في غرفتها وأطلّت من النافذة ورأته. كان قلبي قد ضَبَط نبضَه على النغمة التحذيريّة المعتادة- دائمًا في وضع التشغيل، ذلك القلق القديم، حين تكون كاس مستيقظة- قبل أن تلتقط أذناي وقعَ قدميها الحافيتين الغائرَ السريعَ نازلةً من الدّرج، وآنَ خرجتُ إلى الحديقة كانت

قد نشبَتْ في صراعٍ معه. كانا قد اصطدما تحت عريشِ وِسْتَاريّة[113]، تفتخر بها ليديا غاية الفخر؛ عجيب، الشجيرة في ذكراي عن ذلك اليوم مزهرة بصورة مدهشة، وهو ما لا يمكن أن يكون قد حدث، على آخر الفصل. شمس الظّهر كانت ساطعة وفراشة بيضاء كانت تكمل طريقَها السّكرى عبر المرج المصقول، وحتى تحت وطأة قلقي لم أستطع إلّا أن ألحظ التكوين الشكليَّ، الكلاسيكيَّ تقريبًا، للمشهد، الشخصان الفتيّان هناك، ذراعا كليهما مرفوعتان بينهما بشكل هيروغليفيّ، يداه ممسكتان بمعصميها، والحديقة كلها محيطة بهما، في ضياء الصيف الذهبيّ والأزرق، شيئان جامحان، (حوريّة[114]) و(فون[115])، يتصارعان في منتصف طبيعة مستكينة، مثل رسمةِ معلّمٍ قديمٍ للحظةٍ أوفيديّة. كانت كاس أشدّ ما تكون ضراوةً، وأظنّ الفتى المسكين كان مشدوهًا أكثر من أيّ شيء آخرَ بأن يجابَه بعنف كهذا، وإلّا يعلم الربُّ ماذا عساه يكون قد فعل، إذ بدا قويًّا قوّةَ قرد. كنت لم أزل أركض أسفل درب الحديقة، قطع صغيرة من الحصباء تتطاير من تحت كعبيّ مثل رصاص، حين بتنهُّدةٍ عظيمةٍ رفعها بكامل جسمها من المعصمين ووضعها خلفه مثل كيسٍ أشياء ليست ثقيلة جدًّا وواصل طريقه العنيدة إلى المنزل. وللمرّة الأولى إذّاك فَطِن كلاهما إليّ. سعلَتْ كاس سُعْلةَ ضحك حادّة. تهادت خطوة الفتى، وتوقّف، ولمّا حاذيته مال جانبًا بكلّ احترام إلى العشب وفسح لي مجالًا على الدرب لأعبر. وإذ عبرت، اجتذبتُ نظرَه. كانت كاس ترتعد وكان فمها يتحوّل إلى جانب بتلك الحركة الفظيعة التي فعلتها في أشدِّ انفعالاتها حدّةً. خائفًا من أنّ نوبة صرع كانت وشيكةً حضنتُها بين ذراعيّ وأمسكتُها،

---

113 نبات معترش ذو زهر عنقودي.

114 إلهة ثانويّة من إلهات الطبيعة.

115 أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان.

وهي تقاوم، ضدّي، وأنا مصدوم كما هي الحال دائمًا بمزيج التوتّر، والتوحّش، والوهن الذي هي فيه؛ لعلّي كنت أحتضن طائرًا جارحًا. كان الفتى يجيل طرفَه الآن على الحديقة، على كلِّ شيءٍ عَدَانا، بما لو أنّه بدر من غيره لكان تعبيرًا عن إحراج عظيم. تحدّثت إليه، بشيء متكلِّف وغبيّ، سامعًا نفْسي أتلعثم. لم يُجِبْني بشيء، واستدار فجأةً وجرى مبتعدًا بخطوات واثبة، برشاقة وصمت، وقفز الجدار الوَطِيْء إلى طريق المرفأ، وغاب. اقتدتُّ كاس إلى المنزل. كانت قد تجاوزت الأزمة. كان في مشيتها الآن عرج، وكان عليّ أن أحملها تقريبًا. كانت تغمغم تحت أنفاسها، كلامًا يندّد بي، كالعادة، شاتمةً إيّاي وباكيةً باهتياج. لم أكد أستمع إليها. لم أُطِقْ إلّا أن أفكّر، بأسف وبضرب من هلع يدبُّ دبيبا، في النظرة التي كنت قد اقتنصتُها من عين الفتى حين تنحّى جانبًا كي أمرّ. كانت نظرة كتلك النظرة التي قد يتلقّاها شخص من خوذة غوّاص في أعماق البحر إذا انفصلت أنبوبة الهواء. لقد عرف، بعيدًا في الأعماق المذهولة للبحر البهيم الذي بات عالقًا فيه؛ لقد عرف.

أظنّه كان اليوم الذي قصّتْ فيه كاس شعرَها، واقفةً أمام مرآة الحمّام، بمقصّ أمّها الكبير المخصّص للخياطة. كنتُ أنا من وجد الخصلات المجزوزة منثورةً على البلاط؛ لم تكن صدمتي لتصيرَ أكبرَ لو أنّها كانت بقعَ دم. ذهبت إلى غرفتها كي أجدها لكنّ الباب كان مقفولًا. ببلوغها هذه المرحلة المبكّرة من الأنوثة كانت قد اكتشفت الثقافة، وأمضت القسط الأكبر من أيّامها مغلقةً على نفسها الباب في غرفتها المطلّة على الحديقة والمرفأ، تقرأ في كتبها التاريخيّة، تنقِّب وتنظر وتعيد النظر في سعي حثيث وراء الحقائق- لم أزل أستطيع سماع ضمّ الصفحات الثقيلة وصفقها في أثناء التقليب والبحث- وتكتب بهمّة في مفكّرتها. كان العمل لها عذابًا

وسلوى في آن. كانت قد انهمكت طيلة الصيف في مشروع لترسم بتفصيل جنونيّ ساعات كلايست[116] الثلاث الأخيرة على وجه الأرض، ثم فجأة ذات يوم تخلّت عنه وبدأت عوض ذلك بالبحث عن حيوات الأطفال الخمسة الذين أنجبهم روسو[117] من معشوقته تيريز، كلّهم، لمصلحتهم، كان قد تخلّى عنهم وأودعهم دورَ أيتام. قضينا معًا أسبوعًا ممتعًا في باريس، حيث ذَرَعْتُ الجَوَادَّ وقعدتُّ في مقاهي الأرصفة بينما حاولَتْ هي أن تتتبّع مصير الأيتام عبر الكتب القديمة والوثائق في الـ *Bibliothèque Nathionale* (المكتبة الوطنيّة). كم كنتُ مرتاحًا هناك، في المدينة الخريفيّة، وهي حبيسةُ هذه البحوثِ الآمنةِ التي لا طائل من ورائها؛ شعرتُ مثل القهرمانة[118] الحكيمة المحنّكة في رواية إدواردية[119] ذات أعراف دولّية. في المساء تعود كاس إلى فندقنا بأصابع ملطّخة بالحبر وفي شعرها غبار المكتبة، ونغيِّر ملابسنا، ونشرب مُشهِّيًا، ونتمشّى إلى مطعم، المطعم نفسه كلّ ليلة، يديره باسكيٌّ يتصنّع الغضب- يا له دجّالًا عجوزًا غيرَ مكترث- حيث نتعشّى معًا في صمت أنيس، مُشكِّلَين ثنائيًا وسيمًا، لا شكّ لديّ، أنا بمظهري الجانبيّ، وهي معتدلةً في جلستها مثل سفينْكسَ[120] يقظى، رأسها الجميل ذاك على شكل قلب متأهِّبٌ فوق عنق ممشوق وشاحب. بعد ذلك نذهب إلى السينما، أو نزور ال *Comèdie Française* (المسرح الوطني الفرنسي)، حيث كانت تترجم لي الجمل بهمسٍ يناسب جوَّ القاعة إلى أن كاد يرُمَى بنا في مناسبة خارج المسرح.

---

116 هاينريش فون كلايست (1777 – 1811) شاعر وقاص وكاتب مسرحي ألمانيّ.

117 جان جاك روسو (1712 – 1778) الفيلسوف الفرنسي الشهير.

118 الوصيفة المسنّة المكلّفة بمرافقة فتيات العوائل الكبيرة ومراقبة سلوكهنّ الاجتماعي.

119 نسبة إلى الأدب الإنجليزي المكتوب خلال العصر الإدواردي من مطلع القرن العشرين حتى بداية الحرب العالمية الأولى.

120 كائن خرافي في الميثولوجيا اليونانيّة له رأس امرأة وصدرها وجسم أسد وجناحا طائر.

في النهاية، بالطبع، أفضى مشروع بحثها عن أطفال الفيلسوف المنحوسين إلى لا شيء؛ نسل العظماء لا يترك إلّا أثرًا ضئيلًا على صفحة التاريخ. لم أزل أملك حزمة من أوراق «فولسكاب» مخربشة بملحوظات بخطّ يدها المشبّك كأسلاك شائكة، الأسود جدًّا، وغير المرتّب. قد تآكلت الآن أطرافها.

كانت لِلي تُخمّش بابي، تريدني أن آخذها إلى السيرك. أستطيع أن أسمع بخفوت الموسيقا الحادّة التي ظلّت تدوّي من مكبّرات الصوت طيلة الساعة الفائتة، تتخلّلها على نحو مسعور إعلاناتٌ مغريةٌ عن العرض الافتتاحيّ الكبير، الذي سيبدأ عند الظُّهر. أخبرتها غيرَ مرّةٍ بأن تبتعد. السيرك، حقًّا- ماذا بعد؟ ربما تظنّ أنّي فعلًا أريد أن أتبنّاها، دون أن تدرك أنّ قلبي أشدُّ قسوةً ممّا كانه قطّ قلبُ جان جاك. أَنَّتْ وحَنَّتْ ثمّ شرعَتْ تغمغم. هي حَذِرةٌ مني بعض الشيء، أعتقد، حين أكون في صومعة الخيميائي، مشغولًا بهذه التدوينات الغامضة. إنّ في بابٍ مقفولٍ وشخصٍ ما قاعدٍ خلفه في صمتٍ ساعةً بعد ساعةٍ شيئًا مقلقًا ومُشوِّقًا في آن. عندما قرعتُ بابَ غرفة كاس ذلك اليوم، واقفًا في الممر ممسكًا بلفيفة من شعرها، عَادَني الشعورُ الذي شعرت به دائمًا في مواقف كهذه، مزيج رهبة وانزعاج، وإثارة مكبوتة مميّزة- كاس، بعدُ، مهيّأة للإقدام على أيّ شيء. وشعرت بالحمق، أيضًا. قُرْصٌ زُبْديّ من ضياء شمس آخر النهار ارتاح دهنيًّا على السجّادة الطويلة عند قدميّ. تحدّثت إليها عبر الباب ولم تردّ عليّ. كانت موسيقا السيرك تلعلع- لا، لا، تلك الموسيقا كانت الآن، لا آنئذ؛ الأشياء تجري معًا، ينطوي بعضها في بعض، الحاضر في الماضي، الماضي في المستقبل. رأسي يحسّ بأنّه يطفح بشيء ما. لا بدّ أنّه تأثير الحرارة. أتمنّى أن ينتهي هذا الطقس الخانق.

أشباحي كانوا أشباحي، حصريًّا، تلك كانت الغاية منهم. كنّا عائلة

صغيرة معًا، ثلاثتنا، المرأة، الطفل، والأب البديل أنا. ويا لَها أبوَّةً كانت، مطلْقة ولا نقاشَ فيها، في كل شيء، وجودهم ذاته، يعتمد عليّ. لماذا الآن هجروني؟ بل أكثر من ذلك- لماذا هجروني وخلّفوا وراءهم نفحة الاتّهام هذه، كأنّي أنا الذي كنتُ قد طردتّهم، بدلًا من، حسب ما أشعر به، أن يكون العكس؟ أدري، أدري، سمحت للآخرين بأن يدخلوا، آل كويرك أوّلًا، الآن ليديا، لكن ماذا في هذا؟ هؤلاء المتطفّلون مجرّد أحياء، أمّا ما يجمعنا فكان عِشْرَةَ الموتى. لأنّي قد متّ، ذاك ما حدث لي، لم أدركه إلّا هذه اللحظة. الأحياء ليسوا سوى فصيلة من الموتى، كتبها أحدهم في مكان ما[121]، وفصيلة نادرة في ذلك. أؤمن بهذا. عودي، أيْ ظلالي الحلوة! عودي.

قصّت شعرها الخمريّ كلّه ونثرته على الأرض لكي أعثر عليه. أخيرًا فَتَحَت الباب، سمعتُها تفتحه، وانتظرتُ هنيهة، ألتقط نَفَسًا. في الداخل، كانت قد عادت إلى طاولتها عند النافذة المفتوحة، وكانت تتظاهر بأنّها تكتب، والكتب والأوراق مكوّمة حولها على الأرض في نصف دائرة، حصنها الصغير ذو الفُرُجات. منحنية هناك على الصفحة كانت في نظري، في ومضةٍ، طفلةً من جديد. وقفتُ خلفها. تكتب باندفاعات عنيفة من قبضتها، كما لو كانت لا تكتب لكن، على العكس، تشطب بلا نهاية. خُصَلٌ برزت من رأسها مثل ريش فرخ منفوش. كم بدا أعزلَ قفا عنقها المكشوفُ فجأةً. كان النهار قد تغشّى بالسديم، والحديقة وراء النافذة استلقت صامتة كئيبة. وعاليًا في السماء المضيئة بشحوب، بعيدًا بعيدًا، كانتِ السَّمَاماتُ، أسماكُ قِرْشِ الهواء، تتغذّى بصورة بهلوانيّة. أخيرًا توقّفَتْ

---

121 الاقتباس لنيتشه من كتابه: De vrolijke wetenschap، تُرجم إلى العربية غيرَ مرة بعنواني: العلم المرح (ترجمة: حسان بورقية – محمد الناجي، وترجمة أخرى بالعنوان نفسه أنجزها: علي مصباح)، والعلم الجذل (ترجمة: سعاد حرب).

كاس ورفعَتْ نظرَها، لا إليّ، إنّما إلى العالم في الخارج، قلمها معلّق في الهواء مثل سهم على وشك أن تُطْلِقَه. حين تَعْبِس، تتجعّد رقعة الجلد الشاحبة فوق كلّ أذن، تأثيرٌ لم ألحظه منذ كانت طفلة. كان لجُزَازة الشعر في يدي ملمسٌ حريريٌّ، باردٌ، غير بشريّ؛ وضعتها على الطاولة عند مرفقها.

«هل أخبرتَها؟» قالت.

«أمّكِ؟ لا».

كنتُ أستعيد، لا أدري لماذا، أوقاتَ الأصيلِ إذ اعتدتُ أن أُقِلَّها من أكاديميّة الموسيقا. كانت في التاسعة تلك السنة. وقد قرّرَتْ أنّها أرادت أن تتعلّم العزف على البيانو، هوًى من أهوائها. لم تكن تملك الموهبة. واصلَتْ الذهاب دون تراخٍ شتاءً كاملًا. كنت أنتظرها في البهو المعرَّض لتيّارات الهواء، أقرأ بتبطُّلٍ لوحة الإعلانات، والتلاميذ بين غادٍ ورائح، الصِّبْيَةُ مدلَّلو أمهاتهم بالنواصي المسرَّحة إلى أعلى وبحقائب الكمان مثل توابيت مصغّرة، والصبايا بالأحذية غير المريحة، شاحبات ومحملقات. كلما انفتح الباب المتأرجح دخلت هبّةُ ريحٍ رطبة وخلقَتْ مشهدًا صاخبًا للحظةٍ قبل أن يُخمِدَ الجوُّ المستنكرُ بكآبةٍ روحَها. من آنٍ إلى آخر يأتي أستاذ أو أستاذة، متحسِّسين بأصابعهم ربطات عنق يائسة أو لابسات تنانير «تويد[122]» وأحذية عمليّة، بال مشغول، مزاج حادّ، ملل، يبدو الجميع دائمًا كمن راح يبحث عن شيء قد أضاعه. كانت على المكان مسحة من مستشفى مجاذيب. صرخة مغنّي سوبرانو من قاعة داخلية في الأعلى تشقّ الهواءَ أحمرَ، نقراتُ طبلٍ متتابعة تنزل قارعةً الدّرجَ مثل وقع أقدام نزيل بدين يتقدّم بالتماس حريّة. تمارينُ أصابعِ اليد الخمس[123] ترنّ، دقيقةً، رتيبةً، مجنونة. طالما

---

122 نسيج صوفيّ خشن.

123 تمرين أصابع اليد الخمس: تأليف موسيقيّ مصمّم لتدريب أصابع اليد كلّها على العزف.

احتالتْ كاس عند نهاية درسها لتظهر لي من جهة غير متوقّعة، طالعةً من عتبات السَرَب الضيّقة عندما كنت أشاهد البابين المزدوجين من الزجاج المصنفَر اللذين يقودان إلى قاعة الحفلات، أو من القاعة نفسها حين كنت قد ظننتها ستكون في الطابق العلويّ. ما أصغرَ ما بدَتْ في هذا المحيط، تحت الثريّات المغبرّة، تحدّق إليها من الكوى المعتمة تماثيلُ نصفيّةٌ مكلّلةٌ بالغار لموسيقيين عظماء. كانت تتقدّم بخطوة سريعة لكنّها متردّدة على نحوٍ ما، بخجلٍ، تتزيّا بابتسامة حالمة غير مركّزة، كما لو كانت قد انشغلتْ بشيء غير لائق، متأبِّطةً حقيبتها الموسيقيّة. تدسّ يدها في يدي بروح تآمريّة تقريبًا وتقودني بحزم من المكان، ثمّ تتوقّف على عتبة الغرانيت في الخارج وتنظر إلى ما حولها في الشفق الشتائيّ، كأنّها قد توقّعتْ نصفَ توقُّعٍ ألّا ترى كلَّ هذا وألّا تراه خَلّابًا كما كان، نوافذ المحلّات المضاءة، وسيّارات كفُقْمَات تندفع مارّةً بسرعة، موظّفو المكاتب المستعجلون يشقّون طريقهم مُطأطِئي الرؤوس إلى محطّة القطار. ثمّ أتى الربيع، وبعد عطلة عيد الفصح لم تعد إلى دروسها. لا مثابرة، تلك كانت دائمًا مشكلة كاس، إحدى مشكلاتها. لم نحاول أن نكرهها على الاستمرار، فإغضابها كان الشيءَ الذي يُتَحاشَى قبل كلّ شيء، حتّى في تلك الأيام المبكّرة. آنستُ يا لدهشتي بأنّي اشتقتُ إلى تبطّلي هناك مرّتين في الأسبوع في ذلك البهو البارد الأجرد. ماذا في أوقاتٍ كهذه عواطلَ من علائق الوقت ليجعلَها تظهرُ لاحقًا بمسحةٍ من عذوبة حزنٍ أثيرة؟ يخطر لي أحيانًا أنّ حياتي الحقيقيّةَ، دون أن أكون واعيًا بها، قد عيشتْ في هذه الفواصل الفارغة أكثرَ ما تكون أصالةً.

كانت كاس تشاهد السّمَامات. أن أكون في حضرتها، حتى وهي في أكثر أحوالها هدوءًا، لَهُوَ أن أكون دائمًا في قلق. لكن لا، الهدوء هو الوصف

الخطأ، فهي لا تكون أبدًا هادئة. كأنّها مملوءة إلى الحافّة بمادّة ذات قابليّة عالية للتطاير يجب ألّا يُتَدَخَّلَ بها، أو حتّى ألّا تُخْضَعَ أكثرَ ممّا ينبغي لفحص دقيق. يجب أن يراقبها الواحد من على جنب، كما كانت الحال، مطبِّلًا على أصابعه أو مصفِّرًا دون اكتراث؛ لقد ظللت أفعل ذلك زمنًا طويلًا حتى طوّرتُ نظرةً في عيني، أعني عينَ قلبي. في طفولتها كان اضطرابها الداخليّ يتجلّى في اعتلالات جسديّة أو تشوّهات طفيفة؛ عانت باستمرار من نزيف الأنف، وآلام الأذن، وتقرّحات الأطراف، والثآليل؛ أحرقَتْ نفسها بالنار، وبالماء الساخن؛ سقطَت على الأرض. كلّه تحمَّلَتْه بجزع المتسلّي بمصابه، كأنّ هذه الابتلاءات كانت ضريبة يجب أن تدفعها لِقَاءَ نعيم نهائيّ، لم تزل تنتظر أن تناله. تقضم أظفارها عميقًا حتى يدمى عِراقُها[124]. أريد أن أعرف أين هي الآن. أريد أن أعرف أين تكون ابنتي وماذا تفعل. شيءٌ ما يحدث، شيءٌ لا أحد سيخبرني عنه، أنا مقتنع بذلك. سأعرفه من ليديا، سأنتزعه انتزاعًا، إذا كان ذلك ما يتطلّبه الأمر.

«تَذْكُرُ»، قالت كاس منحنية إلى الأمام قليلًا على الطاولة لتحصل على نظرةٍ أفضل إلى بقع الطيور وهي تنقضُّ، «تذكر القصص التي كنت تحكيها لي عن بِلِي إنْ ذا بول[125] (بِلِيْ في الطست)؟»

تذكّرتُ. كانت طفلةً متعطّشةً للدماء، كاسي، بسوء لِلِي، أسوء. أحبّتْ أن تسمع المغامرات المتوحِّشة التي اعتدتُ اختلاقَها عن ذلك الخسيس المشهور

---

124 ما أحاط بالظفر من اللحم.

125 Billy in the Bowl اللقب الذي اشتُهر به بِلِي ديفيس. شخصية حقيقية من دبلن في القرن الثامن عشر. وُلِدَ أبترَ الساقين وتدبّر أمر حركته بطست حديدي مربوط إلى كتفيه بحزامين من جلد. كان مشهورا بوسامته وقوة ذراعيه. امتهن الشحاذة مستغلا إعاقته وجمال طلعته في استمالة قلوب الناس. أدمن القمار وحين أعوزه المال اتجه إلى النهب حتى قاده ذلك في حوادث متفرقة إلى ارتكاب جرائم قتل. كل ضحاياه كنّ من النساء. مات في السجن وحيكت حوله الكثير من القصص والخرافات.

أبتر الساقين الذي كان في قديم الزمان يجوس خلال شوارع المدينة في الليل في برميل مقطوع على عجلات ويشرب دم الأطفال، هكذا قيل.

«لماذا تفكّرين في هذا، الآن؟» سألتُها.

فركتْ بيدٍ رأسَها المجزوز، مصدرةً صوتًا خشنًا كصوت مِبْشَرَة.

«اعتدتّ أن أتظاهر بأنّي هو»، «بِلِي إنْ ذا بول». أخيرًا نظرَتْ إليّ. عيناها خضراوان؛ عينايَ، يقولون لي، على أنّي لا أرى الشَبَه. «هل تعجبك، قَصّةُ شعري؟»

استطعتُ سماعَ السّماماتِ الآكلةَ بنهم وهي تصيح، أصواتها تصل خافتة من بعيد. ذات يوم عندما كانت صغيرة صعدَتْ إلى حضني وقالت بجديّة أنّ في العالم ثلاثةَ أشياء فقط لم تكن تخافها: معجون الأسنان، السلالم، والطيور.

«نعم، كاس»، قلتُ. «تعجبني».

لِلِي تُخَمِّش بابي من جديد، تقول: السيرك على وشك أن يبدأ. حسنًا، ليبدأْ.

*

عندما نزلتُ في النهاية من برجي العاجيِّ وجدتُ كويرك على ركبتيه في المطبخ، مشمِّرًا عن ساقيه وساعديه، منهمِكًا في غسل الأرضيّة بفرشاة تنظيف وسطل صابون. وقفتُ وحدّقتُ، فجلس على كعبيه وأعطاني نظرة ساخرة، ليس عليها أثر خجل. ثم أقبلَت ليديا عبر الردهة وشعرها مربوط بوشاح وبيدها ممسحة- أجل، ممسحة- تبدو في كل ملمح منها مثل عاملة تنظيف «كوْكنيّة[126]»؛ كانت سيجارةٌ حتّى تتدلّى من زاوية فمها. بدأ هذا

---

126 من شرق لندن.

الأمر يصير سخيفًا في الحقيقة. عبسَتْ في وجهي وهي شاردة. «ومتى ستحلق تلك اللحية المقرفة؟» قالت، تهتزّ السيجارة وتسقط منها رشّةُ رماد خفيفة. لو مرّةً ضاعت ليديا فليس على فريق البحث إلا أن يتتبّع سُقَاطَ سيجارتها. كان كويرك يبتسم الآن ابتسامة عريضة. انصرفتُ دون كلمة عن هذا المشهد الغريب من الكدِّ المنزليّ وذهبت أبحث عن لِلي، الشخص الوحيد المتبقّي في هذا المنزل، على ما يبدو، الذي يمكنني الاعتماد عليه ليكون مستهترًا كاستهتاري. كانت في غرفتها- أَعُدُّها الآن غرفتَها، لم تعد غرفةَ أمّي، هذا تطوّرٌ، أظنّ، ولو أنّه تطوّرٌ إلى ماذا، بالضبط، لا أستطيع أن أقول- مستلقيةً على بطنها على السرير وساقاها مرفوعتان وكاحلاها متصالبان، تقرأ مجلّة لا تطيق عنها انصرافًا. كانت مقطّبة، ولم تُرِدْ أن تنظر إليّ، متردّدًا في المدخل. قدماها الحافيتان كانتا قذرتين، كالعادة؛ أتساءل أَمَا تستحمُّ هذه الطفلة قطّ. أمالتْ ساقيها بخفّة من جانب إلى آخر على إيقاع حالم في رأسها. النافذة كانت صندوقًا ذهبيًّا كبيرًا من الضياء؛ التلال البعيدة تلألأتْ، زرقاءَ زُرْقةَ حُلم. سألتها هل تودّ أن ترافقني في نزهة.

«خرجنا في واحدة هذا الصباح»، أجابتني بهمهمة، وما زالت لا تريد أن ترفع عينيها عن الصفحة.

«حسنًا»، قلت بلطف، «يمكننا أن نذهب في أخرى». كانت تدخّن، أستطيع أن أشمَّه في الهواء. تصوّرتُها في سنّ ليديا، امرأة قذرة ذابلة، شعر مصبوغ بالأصفر وتلك الأوردةُ الأرجوانيّة الرقيقة في ساقيها المغزليّتين، كلّها مصاب بالدّوالي. «السيدة كليف ستصعد في أيّة دقيقة وتأمرك بغسل الأرضيّة»، قلت.

نخَرَتْ نخرةً ناعمة. تتظاهر بأنّها تعتبر ليديا شخصيّةً مَرِحة، لكنّي

أحسبها تغار منها، وربما، أيضًا، تخافها بعض الشيء. يمكنها أن تكون مرعبةً، يمكن ليديا، إذا استُفِزَّتْ، وأدري أنّها تجد لِلي مستفِزّةً. نهضَتْ الآن بتراخٍ ضَجِر وخوّضَتْ على ركبتيها كأنّما تخوِّض في الماء إلى طرف السرير وخَطَتْ بخفّة إلى الأرض؛ أصدرَتْ نوابضُ السرير صليلًا مألوفًا ألفةً مفزعة. هل ليديا على حقّ، أأمّي كانت الطرفَ المتضرّرَ في ذلك الزواج غير المتوافق، لا أبي؟ ولكن، هل هناك قطُّ طرفٌ غيرُ متضرّر؟ جثت لِلي على ركبة واحدة لتربط سَيْرَ صندلها، وللحظةٍ شعّ ضياءٌ صافٍ في الغرفة. حين صِرْنَا على الدّرج توقّفَتْ ومنحتني نظرة غريبة. «هل ستدعنا نواصل العيش هنا»، قالت، «با وأنا؟»

هززتُ كتفيّ، وحاولتُ ألّا أبتسم- ما الذي جعلني أريد أن أبتسم؟- وضحكتْ هي بينها وبين نفسها وهزّتْ رأسَها ومَضَتْ بسرعة، تاركةً إيّاي خلفها.

غريب، لَشَدَّ ما أنا غريب في هذه البلدة. كذا كانت الحال دائمًا، حتى في صباي. لم أكد أكون هنا على الإطلاق، أتحيّن وقتي فحسب؛ المستقبل كان المكانَ الذي عشتُ فيه. لا أعرف حتى أسماءَ نصفِ الشوارِع، ولم أعرفها قطّ. امتلكتُ خريطة ذهنيّة للمكان كانت بكاملها من ابتكاري. أجد طريقي بوساطة معالم محدّدة: المدرسة، الكنيسة، مكتب البريد، السينما. سمّيتُ الشوارع بالأشياء التي احتوتها. الشارِع الذي أطلقت عليه اسمَ شارِع آبي كان حيث انتصبتْ سينما آبي، ميدان بايكمنْ كان حيث أقيم تمثال تقليديّ لبطل قوميّ كان تجعيد شعره الزنجاريّ وتحديقه الشجاع دائمًا ما يثيران فيّ لسبب ما رغبةً في الضحك. كانت في البلدة أماكنُ أعرفها أقلَّ من غيرها، أماكنُ نادرًا ما وجدت سببًا لارتيادها، ومع السنين صار لها في عقلي طابعٌ «إكزوتيكيّ». من ذلك تَلّةٌ برقعةٍ مقفرة- ربما بُني فوقها الآن- تمرّ عبرها طريق متعرِّجة حيث اعتاد (الرحّل الإيرلنديّون[127]) أن يطلقوا خيولهم لترعى؛ حلمتُ حلمًا متكرّرًا بكوني هناك، في الضياء الضبابيّ، مشرفًا على البلدة، وشيء خارق على وشك أن يحدث، شيء لم يحدث قطّ. سِكّةٌ خلف خمّارة نضحَتْ برائحة «بُرْتَر[128]» خضراءَ حامضة جعلتني أتهوّع، مذكِّرةً إيّاي، لا أدري لماذا، بضفدع رأيت ذات مرة صبيًّا ينفخه إلى أن غدا بالونًا بعينين عن طريق إقحامِه مزّازًا في مريئه ونفخِه بقوّة. البنايات، أيضًا، أحاط بها هواء غريب،

---

127 مجموعة عرقيّة من إيرلندا لها طقوسها وممارساتها الخاصّة. يعرفون أيضًا بغجر إيرلندا تشبيها لهم بالغجر في ترحُّلهم.

128 نوع من الجعّة، ثقيل وداكن.

القصر الميثوديّ[129]، المَشْمَعة القديمة في سوق الغلال، مخزن «المَلْت[130]»، المبنيّ على هيئة حصن، بصفّين من النوافذ المقضّبة، المنخفضة حيث كانت تنبعث في أوقات محدّدة غيومٌ شبحيّةٌ من بخار يشي برائحة شرّ، وحيث كنت واثقًا بأنّي استطعت سماع الجرذان تعدو فوق الحبوب. في أماكن كهذه تلكّأ خيالي متوجّسًا، مخيفًا نفسَه بهاجس الأهوال التي لا اسم لها.

كنت أصف للِلي مخزن المَلْت وتلك الجرذان، لأجعلها تنجز روتينَ تَهوُّعِها، حين أقبلنا على مساحة مفتوحة صغيرة تحدّها من الطرف البعيد قطعةٌ من حائط البلدة القديمة أخطأته مدافع كرومويل[131]. قعدنا هناك على مصطبة إلى جانب حمّام عامّ مهجور تحت ظلّ شجرة متشابكة الجذوع، وشرعَتْ تخبرني عن أمّها. كانت الشمس حارّةً، ولم تكن روحٌ في المكان سوى كلبٍ أعرجَ طاف حولنا بحذر، مهزهزًا ذيله المتدلّي، قبل أن يذهب إلى حال سبيله. لا بدّ أنّ هذا الجوَّ الموحِش، سكونَ الظهيرة، والشجرةَ، وسطوعَ جدارِ الحمّام المُبَيَّضِ إلى جانبنا وعفنَ المجاري التحتيَّ الخفيف، كان هو،أظنّ، ما جعلنا نبدو بأنّنا كنّا في مكان ما في الجنوب البعيد، مكان حارّ وجافّ، على ساحل قاسٍ، بأشجارِ دُلْبٍ متقشّرة وزيزانٍ تصرصر تحت سماء لا ترحم. أيُّ بحارٍ أيُّ سواحلَ أيّةُ جزرٍ صوّانية[132]... بينما أخذَتْ لِلي تتحدّث، أمسكَتْ خيطًا منحلًّا من حاشية ثوبها، مخزّزةً عينيها في الضوء. نسيمٌ خشخش الأوراقَ فوقنا ثمّ هدأ كلّ شيء من جديد، كما يهدأ جمهور مسرحٍ تهيُّؤًا للفصل التالي.

---

129 نسبَة إلى الكنيسة الميثوديّة.

130 شعير مخمّر. يُنْقَع في الماء حتى يُنْتِش. ثمّ يجفَّف بتعريضه للهواء الساخن.

131 أوليفر كرومويل، قائد عسكري إنجليزي (1599 – 1658).

132 اقتباس من قصيدة مارينا للشاعر الإنجليزي ت. س. إليوت. وهي قصيدة مستلهمة من مسرحية «بريكليس، أمير صور» لشيكسبير، وقصة انفصال الأمير عن ابنته مارينا والتئام شملهما.

«أين كنتم تعيشون، حين ماتتْ»، قلتُ، «أمُّكِ؟» لم تجبني، متظاهرةً بأنّها لم تسمع.

اكتشفتُ عرينَ كويرك، هل قلتُ ذلك؟ عثرت عليه ذاك اليومَ في إحدى جولاتي الخفيّة حول المنزل. انتقى غرفة صغيرة، سأقول ذلك عن اختياره. فهي لا تكاد تكون غرفةً على الإطلاق، قرب العليّة؛ لم تكن أمّي لتعرضَها حتّى على أكثر نزلائنا فقرًا، استخدمتَها لتخزين الخشب، واستودعتَها، بعد موت أبي، حقائبَه القديمة وأحذيتَه التي لم يطاوعها حِسُّها الادّخاريُّ على رميها. خفيضةُ السقف، إسفينيّةُ الشكل نوعًا ما، بنافذة وحيدة، ماثلة عند الطرف الأضيق، أُغلِقتْ درفتها بالدّهان قبل زمن طويل، الرائحة الجُبنيّة في الهواء شاهدة على ذلك. هناك سريرُ مخيّم بمرتبة نحيفة من شعر الحصان، وبطّانيّة لكن لا شراشف. يستخدم نونيّةً، لحظتُ ذلك، عُروتها برزتْ من تحت السرير مثل أذن تتنصّت بحماس. ليس أكثر الأشخاص عنايةً بالنظافة. كان غبار على كلّ شيء، ولطخات مقلقة على الجدران، وأطباق مستخدمة، وكوب شاي لا يبدو أنّه قد غُسِل لبرهة من الدهر. وثلاثة قمصان أبعد شيء عن أن تكون نظيفة تتدلّى في صفّ متداخل على باب الخزانة، مثل ثلاثيٍّ غنائيٍّ متناغم. متيقّنٌ أنّه لن يدعو ليديا إلى هنا، لا يهمّ ما قد يكون بينهما من أريحيّة، لأنّها قطعًا ستضربه سريعًا على معصمه وتجعله يجثو على ركبتيه من جديد بالسطل وفرشاة التنظيف. على الرغم من حزن المكان وقذارته- تلك القمصان، ذلك الكوب، زوجا حذاء مشقّقان، أحدهما مستلقٍ على جنبه، كلاهما مندلعٌ لسانه، كأنّهما قد انخلعا عن جثّة وهي تُجَرّ إلى الخارج- فإنّي أحسستُ بلذعة تحمّس طفوليّ. طالما كنتُ طفيليًّا متحمّسًا؛ المفكّرات، الرسائل، حقائب اليد، لا شيء في مأمن

منّي- لماذا، أحيانًا، مع أنّه لا يحسن بي الاعتراف بذلك، أحيانًا أختلس النظر حتى إلى سلال غسيل الآخرين، أو اعتدتُ أن أختلسَه، أيّامَ كان لدينا أنا وليديا أصدقاء، وكنّا نذهب إلى منازلهم، للحفلات، والعشاء، والغداء في الصيف... مستحيل، الآن. في غرفة كويرك، مع ذلك، كان الإحساس اللاذع الذي أحسسته أكثر من مجرّد متعة النبش في ممتلكات الآخرين. أفكر في وِجار الأرنب البريّ الذي وجدته ذات يوم على جانب البحر عندما كنت صغيرًا، ثَنِيّة عميقة مرتّبة محفورة في العشب الخشن على ظهر كثيب، تُؤوي ثلاثة خرانق[133] واجفةٍ، ضئيلةٍ مُلْمَلَمَةٍ معًا حتى بدتْ كأنّها حيوان مفرد بثلاثة رؤوس. التقطتُهم ووضعتهم داخل قميصي الرياضيّ وحملتهم إلى الشاليه الخشبيّ المكوّن من غرفتين حيث كنّا أنا وأمّي نحتمل عطلةً معًا. عندما أريتُهم لها صرخَتْ صرخةَ فزِعٍ صغيرةً وتراجعَتْ خطوةً سريعةً إلى الخلف؛ لم يمرّ على ترمُّلِها وقت طويل، وكانت أعصابها متوتّرة. قالت أنّ الكائنات كانت مريضةً على الأغلب، أو كانت رؤوسها قَمِلة، وهلَّا من فضلي أخذتُ الأشياء القذرة بعيدًا عنها حالًا. خرجت أمشي بخطى متثاقلة إلى الكثبان من جديد، حيث كان الآن رذاذ يتساقط مائلًا من جهة البحر، لكن بالطبع لم أستطع أن أجد المأوى، وأسكنت المساكين، زَلِقين الآن على نحو كريه في فروهم الرطب ويبدون أصغرَ من ذي قبل، في تجويف رمليّ تحت حجر، ولمّا عدتُّ في اليوم التالي لم يكن لهم أثر. لكنّي لم أنسهم، لم أنس عجزهم، ملمسَهم الناعم الدافئ قرب قلبي، الطريقة المترنّحة التي ظلّوا يحرّكون بها رؤوسهم العمياء يمينَ ويسارَ وفوقَ وتحت، مثل دمى الكلاب تلك التي يضعها الناس في النوافذ الخلفية لسياراتهم. كويرك، بقدر ما أوتي

---

133 جمع خِرْنق وهو ولد الأرنب البريّ.

من بسطة في الجسم وظَرْفٍ ساخرٍ في الروح، لديه القدر نفسه من العجزِ التائهِ اليتيمِ الأمّ. نقّبت في أشيائه، بالطبع، لكنّ ندرة الأسرار، فعلًا، غياب أي شيء مثير للانتباه، كان أكثر تثبيطًا للروح ممّا كان سيثبّطها الاكتشاف الأدعى للخجل. بينما كنت أقلّب أجزاء متفرّقة من حياته التافهة إذ غمرتني فظاعة كئيبة، وعلى الرغم منّي خَجِلتُ، لكنّي لم أستطع أن أحدّد على وجه صحيح أمن تفاهة حياته أم من تَلَهُّفي. في محفظة جلديّة عتّقها الزمن وشكّلها على تقوّسِ رِدْف وجدتُّ صورة، بالتقوّس نفسه، وتغشاها تشقّقات دقيقة، بظلال لؤلؤيّة ورمادية شاحبة. الصورة كانت لامرأةٍ أقرب إلى الشباب، نحيلة، بتموّجِ شَعرٍ تعيس، واقفة في حديقة صيفيّة تبتسم بشجاعة في وجه العدسة. أخذتُها إلى النافذة ومسحتُها بعينين نهمتين، لاعنًا افتقاري إلى عدسة مكبّرة. اتّخذَتْ المرأة وِضْعَةً صعبةً قبالةَ عين الكاميرا الجاحظة. رفعَتْ يدًا إلى جبينها لتتّقي وهج الشمس، فكان الجزء الأعلى من وجهها في الظلّ. فحصتُ بدقّة أيَّ ملامح أستطيع تَبيُّنَها، ذقن مدبّب رقيق، فمٌ مضجر بصورةٍ ما، ابتسامتها تكشف لمحةً من تصبُّغات أسنانها الأماميّة، تلك الذراع المرفوعة، مقوّسة بشكل جميل لكنّها هزيلة بشكل مؤسف، اليد الواقية، الواهنة، الصغيرة- باحثًا عن أوهى دليل على سابق معرفة بيننا، عن الصدى الأكثر خفوتا. في الزاوية اليسرى من الأسفل كان يمكن رؤية جزء من ظلّ المصوِّر، كتف مائلة وجانب من رأس مستدير كبير، رأس كويرك، على الأرجح. والحديقة؟ عند ظهر المرأة كانت شجرة من نوع ما، بتولا، ربما، بكامل أوراقها، وتحتها مرج وعر. قد يكون أيَّ مكان. مُحبَطًا، وضعتُ الصورة في جيبي، وبنظرة مغمومة أخيرة إلى المكان خرجت برفق وأغلقت الباب خلفي. على الدرج توقّفْتُ، استوقفني خللٌ في السكون، كأنّ

شخصًا- هرب الآن- كان قد لبث يتسمّع عند الباب، أو يتجسّس عليّ من ثقب المفتاح. لِلِي، ربما؛ لا يهمّ.

ما أريد أن أعرفه هو، كم بالضبط لَبِثَ آل كويرك هنا، وأهمّ من ذلك، كم كان عددهم من الأساس؟ غموض شديد يحيط بكلام لِلِي عن هذه المسألة. لكنها تزعم أنّها تتذكّر الظروف بوضوح، حتى إن لم تكشف عن المكان الدقيق، مكان موت أمّها- بغاية الوضوح، أظنّ، لأنّه حدث قبل سنوات طويلة، ولا أرى لِلِي الطفلةَ المعجزةَ، التي ستسجّل ببريق عينيها حوادث تاريخ العائلة من على حافّة مهدها. استيقظَتْ أمّها ذات ليلة وهي تشكو ألمًا، تقول. استُدعي الطبيب، لكن العنوان اختلط عليه فذهب إلى المنزل الخطأ، ولم يتدارك خطأه لأنّ المنزل الآخر بمحض الصدفة كان فيه كذلك أمٌّ في حالة حرجة، إلّا أنّها حالة ولادة، وقد ولدتْ، بنجاح، أمّا المسكينة أمُّ لِلِي فقد كانت تمرّ بالحالة المعاكسة، وقد أنجزَتها في الوقت المطلوب، بعذاب أليم. خالتُها دورا أتت، تقول لِلِي، من طرف البلدة البعيد، مرتديةً معطف مطر فوق قميص نوم، لكن حتى الخالة دورا، نصيرٌ همامٌ كما يبدو وسط آل كويرك فاقدي الكفاية، حتى هي لم تستطع أن تفعل شيئًا لإنقاذ أختها. كانت قد صرخَتْ في وجه كويرك، وقالت أنّه كان خطأَه، وقالت أنّه إذا كان هو مثالًا على الزوج، أيّ زوج، فإنها سعيدة أنّها لم تتزوج قطّ، وأنّ كويرك قد عزم على ضربها وأنّها أبرزت له قبضتيها، وأنّ عراكًا عنيفًا كان سيقع، لأنّ كويرك أعماه الغضب والخالة دورا كانت مستعدّة، لولا أنّ شخصًا آخر كان هناكِ، جارًا أو صديقَ عائلة، لم تستطع لِلِي أن تتذكّر من هو، قد فرّق بين الخصمين وقال أنّه ينبغي لهما أن يشعرا بالخجل لأنّ جثّة (كِتِيْ) لم تبرد بعد. كلّ هذا سمعته، قاعدًا على المصطبة، في الشمس، ولِلِي ممسكة بذلك الخيط في

ثوبها ومخزّرة عينيها. لا بدّ أنّها كانت ليلةً وأيّ ليلة، ليلةَ ماتت كِتِيْ. كانت الصورةُ المختلَسةُ في جيبي، أريتُها لِلِي، فنظرَتْ إليها نظرةً خالية من التعبير. سألتُها أليست تلك أمّها. حدّقَتْ أكثرَ وكانت صامتة للحظة أطول.

«لا أظنّ ذلك»، قالت، بتردّد. «لا أظنّ أنّها هي».

«إذن من تكون؟» سألتها بشيء من الغمّ. أخبرتُها من أين كنتُ قد حصلتُ على الصورة، ظانًّا بأنّها قد تعترض على انتهاكي خصوصيّة أبيها، لكنّها ضحكَتْ نصفَ ضحكةٍ فحسب.

«أوه، إنّها إحدى الفتيات، إذن»، قالت. «با كان عنده دائمًا فتيات».

كويرك في دور كازانوفا؛ لسبب ما، لا يبدو هذا محتملًا.

«وهل لديك أخ»، قلت، «أو أخت، مات أو ماتت؟»

إذّاك أخذتْ مظهرًا أرنبيًّا، ماكرًا، وبعد تردُّد لحظيّ أومأتْ إيماءة صغيرة خاطفة، محرِّكة رأسَها إلى الأمام بسرعة كأنّما لتنتهبَ كِسرةً من شيء ما في يدي.

أهو صحيح؟ أيمكن لهذا أن يكون هويّة الأمِّ الشبحيّة وطفلها اللّذين باتا ينتابانِني؟ أريد أن أصدّق ذلك، لكنّي لا أستطيع. أعتقد أن لِلِي كانت تكذب؛ لا أظنّ أنّ لها شقيقًا ميتًا، إلّا في خيالها.

أحاط بنا الآن سكونٌ مترقِّب. الهواء أمسى ثقيلًا، وأوراق الشجرة فوقنا تعلّقَتْ في خمول. كانت سحابة قد طلعت في السماء، فارغة كجدار، والآن دوّى في الجوّ صوتٌ مُخرِسٌ، وجاء المطر، قضبان انتقاميّة سريعة قويّة تنزل مستقيمة وتَطِشُّ على الرصيف مثل بنسات متقاذَفَةٍ كثيرة. في الخطوات الثلاث المعجّلة التي خطوناها أنا ولِلِي لنصل إلى مدخل الحمّام العامّ كنّا مبلَّلَين. الباب كان مُغْلَقًا بسلسلة وقُفْل، وكان علينا أن ننكمش

في الرواق الخرسانيّ، بجداره الأخضر اللزج ونتنه النُّشادريّ العالق. حتى هنا ترشَّش من القطرات الكبيرة الهاطلة فوق الأُسْكُفّة رذاذٌ بارد على وجهينا جعل لِلِي ترتجف في ثوبها الرقيق. أخذَتْ مظهرًا معتمًا، وقد تكوّمتْ هناك وأنزلَتْ رأسها بين كتفيها ورسمَتْ خطًّا من شفتيها وضمّت ذراعيها بشدّة. في الأثناء كان الجوّ يسودُّ باطّراد. لَحَظْتُ الضوء الغريب، باهتًا ومكفَّنًا، مثل الضوء في حلم.

«إنّه الكسوف»، قالت لِلِي بحسٍّ كئيب. «سيفوتنا». الكسوف! طبعًا. فكّرتُ في الآلاف واقفين في صمت، في المطر، وجوههم مرفوعةٌ سدًى إلى السماء، وبدلًا من أن أضحك أحسستُ بوخْز أسًى حادٍّ لا يمكن شرحه، لكن على ماذا، أو على من، لا أدري. بُعِيْدَ قليلٍ توقّف المطر الغزير وعانت شمسٌ نَدِيَةٌ، غير كاسفة، لتجد طريقها خلال الغيوم، وغامرنا بالخروج من المستَظَلّ. الشوارع التي مشينا عبرها كانت غارقة، مياه رماديّة بفقاعات «بِيُوْتَريّة» وجيزة تجري في الميازيب والبواليع، والأرصفةُ تلمع وتنبعث منها نفحات بخار متمايلة. السيّارات تَخَرَتْ عابرةً مثل زوارق بخاريّة، راسمةً أقواسَ قزح مصغّرة في أعقابها، وفوقنا واحد بحجمه الطبيعي، أبو الأقواس كلّها، كان مثبّتًا في السماء، يشبه مَقْلَبًا محكمًا وهائلًا.

حين أتينا إلى الميدان من جديد كان عرض السيرك لم يزل جاريًا. أمكننا سماع الفرقة داخل الخيمة صارخةً ومُرْعِدة، صوتٌ مجنونٌ ضخمٌ يجأر جؤارًا غير مفهوم، في مرح صاخب فظيع، عبر مكبّر صوت. كانت الشمس تجفِّف أشرعة الخيمة في رُقَعٍ، فتعطي تأثيرَ تمويه، والراية المبتلّة مرفوعةً فوق المدخل كانت لاصقةً بمحيط ساريتها. لم تكن خيمةَ سيرك من النوع المعتاد، ذاك الذي يسمّونه «الخيمة الكبرى»- أتساءل لماذا؟- لكنّها كانت على شكل مستطيل

طويل، مرتفع، يشير على حدٍّ سواء إلى بطولة مبارزة بالرمح أو معرض زراعيّ، بأعمدة داعمة عند كلٍّ من الزوايا الأربع وعمود خامس في منتصف السقف. وإذ اقتربنا كان في العرض انقطاعٌ من نوعٍ ما. توقّفت الموسيقا وأنشأ الجمهور يطِنُّ طنينًا هامسًا. بعضهم خرج غاطسًا برأسه على نحو أخرق تحت باب الخيمة في المدخل، ووقف في هيئة دائخة بعض الشيء، ترفّ عينه في الهواء اللمّاع. رجل سمين يقود طفلًا صغيرًا من يده توقّف ليتمطّى، ويتثاءب، ويشعل سيجارة، بينما انتحى الطفل جانبًا وبال على جذع شجرة كرز. ظننت أنّ العرض انتهى، لكنّ لِلي كانت أخبرَ منّي. «إنّها استراحة فقط»، قالت بمرارة، وقد تجدّد استياؤها. لحظتئذ من جانب الخيمة ظهر الرجل الأصهب، الذي كان قد ابتسم في وجهي من العتبة الخلفيّة لمقطورته. ارتدى الآن فوق قميصه الأحمر وبنطال المهرّج سترةً خُطّافيّةً[134] سوداء عتيقة الطراز، وكانت قبّعة رسميّة منبعجة قد ثُبِتّت بزاوية مستحيلة على مؤخّرة رأسه. عرفتُ بمن ذكّرني: بـ(جورج غودفيلو)، ثعلب معسول اللسان، الشخصيّة الشرّيرة في مسلسلة هزليّة كانت تُنْشَر في الجريدة قبل مدّة طويلة، من كان يقتني مبسم سجائر أهيف ويعتمر نوعًا من القبعات الرسمية العالية يشبه مدخنة موقد، ويُبرِز ذيلَه بشيطنة بين ذيلي معطفه العتيق. عندما رآنا الرجل تردّد، وعَلَتْ وجهه من جديد تلك الابتسامة الصفراء العارفة. وثَبَتْ إليه لِلي، قبل أن أستطيع إيقافها- ولِمَ كان ينبغي لي أن أحاول إيقافَها؟- وتحدّثَتْ إليه. كان على وشك أن ينسلَّ إلى داخل الخيمة، ووقف الآن نصفَ منصرفٍ عنها، وقد أمسك بباب الخيمة مفتوحًا وأدنى إليها نظرَه من فوق كتفه بتعبير عن قلقٍ كاذب. أصغى لحظةً، ثم ضحك، ونظر إليّ نظرة خاطفة، وقال شيئًا بإيجاز، ثم

---

134 سترة رسميّة طويلة مشقوقة الذيل، كذيل الخطّاف أو السنونو.

بلمحة أخرى إلى جهتي انسلّ رشيقًا إلى عتمة الخيمة.

«يمكننا أن ندخل»، قالت لِلِي لاهثةً، «للجزء الثاني من العرض».

وقفَت بين يديّ في سكون مرتجف، مثل مهرة تنتظر أن يُطلَقَ لها العنان، يداها مشبّكتان من خلفها وتنظر بتركيز إلى إصبع صندلها.

«من هو ذلك الرجل؟» قلتُ. «ماذا قلتِ له؟»

هزَّتْ نفسَها هزّةَ نافدِ الصبرِ ضائقِ الصدر.

«هو واحد منهم وحسب»، قالت، مشيرةً إلى المقطورات والأحصنة المربوطة. «قال أنّه يمكننا أن ندخل». لطمني الهواء داخل الخيمة برائحة مألوفة: مكياج ممثّلي المسرح، عرق، غبار، وشيءٌ، تحت ذلك كلّه، مِسْكيٌّ دافئٌ رطبٌ ثقيلٌ كان قديمًا قِدَم روما نيرون. المقاعد كانت مرتّبة في صفوف، كما في كنيسة، في مواجهة منصّة خشبية مؤقتة في الطرف البعيد. سرت في الجو روح عرض نهاريّ لا تخطئها العين، متعبَة، متململة، عنيفة بعض الشيء. كان الناس يتمشّون في الممرات، أيديهم في جيوبهم، يومئون إلى أصدقائهم ويرفعون أصواتهم بالإهانات مزاحًا. شبيبة في الخلف كانوا، وهم يهتفون ويصفّرون، يقذفون بالشتائم ولبّ التفاح على عصابةٍ منافسةٍ بالقرب. واحدٌ من السيرك، في قميص بلا أكمام وسروالِ بهلوان ضيّق وحذاءِ «إسْبَدريل[135]»- كان الـ(لوثاريو[136]) ذا الزمام والخصل الدهنيّة المجعّدة الذي تحدّثتْ إليه لِلِي في الصباح- تسكّع على طرف منصّة العرض، خَلِيَّ البال يعبث بأنفه. كنت أبحث عن (غودفيلو) فإذا به قد أقبل عاجًّا بالنشاط من اليسار، يحمل كرسيًّا في يدٍ و«أكورديانو[137]» في اليد الأخرى. عندما أطلّ

---

135 حذاء خفيض من قماش مرن.

136 لقب يطلق على الرجل المشهور بإغواء النساء.

137 اسمٌ (مركّب مزجيّ) أقترحه تعريبًا لآلة الأكورديون البيانيّ Piano accordion وهي عبارة عن أكورديون مزوّد بمفاتيح بيانو.

كان ثَمَّ قليلٌ من التصفيق الساخر، توقّف إزاءه عن مواصلة السير وأعطى بداية رائعة، ناظرًا حوله بدهشة مبالَغٍ فيها، كأنّ الجمهور كان آخرَ شيء قد توقّعه. ثم ابتسم ابتسامة امتنان مغتبطة، مغمضًا عينيه، وانحنى انحناءة احترام بالغة، على كورال من صيحات الاستهجان؛ سقطَت قبّعته ودارت نصف دورة حول قدميه، فانتشلها دون مبالاة وثبّتها سريعًا على رأسه من جديد واستأنف مبتهجًا طريقَه إلى مقدّمة المنصّة، والأكورديون متدلٍّ إلى جانبه ومنفاخه متمدّد إلى أقصاه فتارةً يَصْفِر وأخرى يَصِيء. كلَّ خطوتين كان يتوقّف، متظاهرًا بأنّه لا يدري من أين تأتي هذه الأصوات المستهجنة، ويتلفّت قَلِقًا، أو يحملق مرتابًا إلى الناس في الصفّ الأماميّ، ومرّةً حتّى لَوْى نفسَه على شكل مِبرام ليخفض بصره وراء كتفه محدِّقًا في عتاب شديد إلى جهة مؤخّرته. لمّا انحسر الضحك، وبعد اختباره بضع محاولات تجريبيّة على المفاتيح، الرأس محنيٌّ والنظرة قد توجّهت مفعمةً بالعاطفة إلى عالمه الداخليّ، مثل عازف كمان يختبر نغمة كمانه الـ(ستراديفاريوس[138])، رمى بنفسه على الكرسيّ بحركة عنيفة من الكتفين وبدأ العزف والغناء الأجشّ. غنّى بصوت متكلَّف هزيل، بكثير من النشيج والشهيق والنغمات المكسورة، متمايلًا على الكرسي يمنة ويسرة ورافعًا طرف عينيه بشغف، حتّى إن حافّة البياض المصفرّ تحت البؤبؤين كانت مرئيّة. بعد بضع مقطوعات غنائيّة صاخبة- من بينها *O Sole Mio*[139]، و *South of the Border*[140]- أنهى فقرته بتباهٍ واضح إذ ترك الأكورديون ينفتح بتراخٍ على ركبتيه، مُصْدِرًا منه صياحًا

---

138 كمان ستراديفاريوس: اسم تُعْرَف به الكمانات التي صنعها الإيطاليّ أنطونيو ستراديفاريوس (1644 – 1737)، وهي من أشهر آلات الكمان وأندرها. لم يبقَ منها اليوم سوى 550 كمانًا، والعزف على أحدها حلم كلّ عازف كمان.

139 (يا إشراقة شمسي) أغنية إيطاليّة شهيرة.

140 (جنوب الحدود) أغنية كُتِبَتْ في الأصل لأجل فيلم بالاسم نفسه عام 1939.

جريحًا، وعلى الفور صَفَقَ به مُغلَقًا من جديد. بعد ذلك قعد دون حراك لحظةً طويلة، والآلة مغلقة في حِجْره، محطَّمًا، محدِّقًا أمامَه بعينين جاحظتين، ثم نهض، جافلًا، وهرول مبتعدًا هرولةَ مصابٍ بصكك الركبتين، يدٌ قابضةٌ على مُنفَرَج رجليه.

رأتْ لِلي أنّ كلَّ هذا كان رائعًا، وضحكَتْ وضحكَتْ، مسندةً رأسَها وَهْنًا إلى كتفي. قعدنا قرب الصفّ الأماميّ، حيث كان الحضور أكثفَ. كان الجوّ تحت أشرعة الخيمة المبتلّة ثقيلًا ورطبًا؛ مثل أن يُحْبَسَ المرء داخل بالون منفوخ، وكان رأسي قد بدأ يؤلمني. لم ألحظ الفرقة الموسيقيّة، أسفلَ جانب المنصّة، حتى بدأتْ بالعزف، مؤلَّفة من ثلاث آلات: بوق، طبول، وأورغ مضخّم موضوع على حامل من نوع ما. البوق، على نحو غير متوقّع، كانت تنفخ فيه امرأة عظيمة الجِرْم وليست الآن في سنّ الشباب، مكياجها ثقيل وتلبس باروكة شقراء، وكانت عند النوتات العالية تنحني بتذلّلٍ وتُسَكِّر بصَرَها، كما لو كانت لا تستطيع أن تحتمل حدّةَ الموسيقا النحاسيّة التي كانت تعزفها. الطبّال، شابّ مَلُول، بعِذَارين وناصية مُدهَّنة ومسرَّحة إلى أعلى، بينما كان يطبِّل دخّن سيجارةً بارتياحٍ مُهمِل، ينقلها نَقْلَ خبيرٍ من زاوية في فمه إلى الأخرى ويترك الدّخان يَتَدَهْدَه من منخريه. أمّا عازف الأورغ فكان شيخًا، وارتدى حِمالةَ بنطال؛ مروحةُ شعرٍ ناعمةٌ سُرِّحتْ أفقيًّا على قبّة رأسه الصلعاء. عاود غودفيلو الظهور، مسبوقًا بنقرات مجلجلة على الطبلة الكبيرة، وهو يتجّه إلى منتصف المنصّة، مقبِّلًا أصابعَه الملمومةَ وناثرًا علينا القُبَلَ وباسطًا ذراعيه على اتّساعهما في نشوة حبور وامتنان، كأنّه مُطِرَ تصفيقًا مهووسًا، لا صياحًا وضَرْطَ شفاه. ثم انطلقت الفرقة في تانغو سَلِسٍ نشوانَ، وشرع يرقص، متأنِّقَ الخطوةِ ومتزلّجًا في المنصّة على ساقين ربما كانتا

مصنوعتين من مطّاط، ذراعاه ملفوفتان حول نفسه في عناق خليع. كلّما مرّ بعازفة البوق نفخَتْ نغمةً صارخةً مشاكسة، ومدّت بُوْزَ بوقها بمجون إلى جهة عضوه النحيل. تظاهر بتجاهلها، وخَطَرَ مختالًا، بهزّة مترفّعة من مؤخّرته. في الختام دار كراقصة باليه على قدم واحدة، وقد لوى نفسَه على شكل مِبرام من جديد، ذَيْلَا معطفه طائران وذراعاه مرفوعتان وأنامله تتلامس برقّة عاليًا فوق رأسه، ثم وثب في الهواء ونفّذ ركلةً مقصيّة، وأنهاها مباعدًا ما بين ساقيه حتى شكّلتا خطًّا مستقيما، وحطّ على الأرض بخبطة بلغ من علوِّ صوتها أن غطّى على الموسيقا وجلب زعقات ألم كاذب بهيجة من الشباب الضاحك في الخلف. كانت قبّعته العالية قد بقيتْ ثابتةً على رأسه طيلة الوقت، والآن قام على قدميه بقفزة سريعة، وانتزعها من رأسه، وانحنى انحناءة خفيضة أخرى، القبعة مضغوطة إلى صدره وذراع مردودة خلفه بسبّابة متصلّبة تشير إلى الأعلى. لِلي، ضاحكةً، قالت في أذني بإعوالٍ هامس أنّها كانت متيقّنة أنّها ستبول على نفسها.

الفقرة التالية كانت لبهلوان، احتجتُ إلى لحظة كي أدرك أنّه لوثاريو لا غير، وقد ظهر في قميص أحمر فضفاض مفتوح على صدر أجردَ أملس. ظلّ يُسْقِط هراوة هندية ويلتقطها بلامبالاةٍ متكلّفةٍ وعابسة. بعده جاء حَاوٍ، أكثرُ منه خُرْقًا، في بدلة سهرة مجعّدة ببنطالٍ طويل وشبهِ صُدْرةٍ من «السّلْيُوليد» كانت كلّما أوشك أن يُتِمّ خدعة تطقطق مثل ستارة لفّ رأسيّة. هو كذلك لم يكن غريبًا، وتمامًا كما توقّعت، نظرتُ إلى الأورغ ولم يكن أحدٌ حوله. ألاعيبه السحريّة كانت قديمة ومكشوفة. حين يخطئ في إحداها يقهقه الجمهور فيبتسم خجلًا، مظهرًا طرف لسانه، ومملّسًا بيدٍ سمينةٍ صغيرة شعراتِه الدهنيّةَ الملصَقةَ على يافوخه. الآن استدعى مساعدته- عازفة البوق،

طبعًا، كانت قد غيّرتْ ملابسها سريعًا إلى «كورسيه» قرمزيّ وكيلون شبكيّ رقيق ولبستْ باروكة سوداء برّاقة بدا كأنّها مصنوعة من بلاستيك- وشرع مُجِدًّا في قطعها بالمنشار إلى نصفين. بعد ذلك جرَّ قدميه نازلًا من المنصة، على إيقاع تصفيق ساخر، أمّا عازفة البوق فبقيتْ وقدّمتْ عرضًا روتينيًّا لخدعة ابتلاع السيف. واقفةً وِقفةً بطوليّة، ساقاها المكتنزتان مثبَّتتان وظهرها مقوَّس، أنزلت النصل برشاقة وأناقة أسفل حلقها كما لو كان سمكة فضيّة لامعة، مثيرة عاصفة من التصفير من آخر الخيمة.

ثم ها قد عاد الآن غودفيلو إلى المنصّة من جديد، حاسر الرأس هذه المرة، مرتديًا صدريّة مُتَرْتَرة. فحصتُه فحصًا قلقًا، متسائلًا ما الذي كان فيه وأقلقني بهذا الشكل الغريب. وجهه كان أبيض بياضًا شمعيًّا وصارخًا، كأنْ لا جلدَ على الإطلاق، طقم الجمجمة فقط بفم متحرّك وتينك العينين الحادّتين. خَطَرَ قبالتَنا، منشدًا بصوت عالٍ ورتيب كلامًا كان قد غنّاه كما هو واضح مرارًا وتكرارًا حتى إنّ الكلمات أخذتْ إيقاعَها الخاصّ، بمعزل عن أيّ معنى. كان يطلب متطوّعًا، روحًا جريئةً من بيننا وقلبًا شجاعًا بما يكفي، قال، مبتسمًا، ليدخل في تحدّي إرادةٍ ضدّه. بات الجمهور أهدأَ الآن. ألقى علينا نظرته الداكنة بمتعة محتقِرة. قعدت لِلي وقبضة متشبّثة بحجرها وساقاها ملتفّتان، كاحل معقوف خلف الآخر. وجهها مرفوع إلى المنصة بإجلال مهيب، مثل ذاك الذي في وجوه النسوة عند قدم الصليب. استطعت أن أحسّ برعشات إثارة صغيرة تسري خلالها. ثم فجأة تركَتْ مقعدَها وركضَتْ إلى الأمام، برشاقةِ مِيْنادة، وبوثبة واحدة وثبَتْ إلى المنصة وتوقّفَتْ، وقامتْ، مترنّحة بعض الشيء، فمها مفتوح في استغرابِ مفاجأةٍ صامتٍ وهاجسِ ريبةٍ مباغت.

في البداية، لم ينظر غودفيلو إليها بتاتًا، كان يتغافل عن وجودها؛ ثمّ، ببطء، ما زال ناظرًا إلينا، بدأ يطوف حولها، رافعًا خطاه، طوافًا خفيًّا، غريبًا، كلّما مرّ بها مرّةً كان أقربَ إليها، حتى صار قريبًا بما يكفي ليريح يدًا على كتفها. وراح، وهو لم يزل مستمرًّا في طوافه، يديرها بلطف معه، حتى صارت المحور الدوّار الذي يدور حوله. طغى الآن على ملامحها الشكّ، وظلّت ابتسامة على وجهها تومض وتخبو مثل لمبة يتلجلج نورُها. نظرتها كانت مثبّتة على وجه غودفيلو، على الرغم من أنّه لم يكن قد نظر إليها وجهًا لوجه. وحينئذ بدأ يتحدّث، بالطريقة الرتيبة نفسها التي أعلن بها قبيل قليل تحدِّيَه لنا، لكن برفق، بحنان، بنبرات مُداجِية مُلاطِفة ناعمة، تقريبًا. صوته كان غريبًا، ينساب برقّة لكنه ليس لطيفًا على الأذن أبدًا، متملِّقٌ، غير محتشم، صوت قوّاد. مشى أبطأَ فأبطَأ، متحدّثًا خلال ذلك كلّه، ودارت هي ببطء معه، وفي النهاية توقّفا، وتحرّك شيءٌ فوق الحضور، موجةُ شيءٍ، تحرّكَتْ، وسكنَت. في الصمت تَفَحَّصَنا غودفيلو بابتسامته الماكرة مُطْبَقَةِ الشفتين التي لم تبلغ قطّ عينيه. منظر لِلِي بات فارغًا تمامًا، ذارعاها تدلّتا إلى جانبيها كأنْ لا عظامَ داخلها بالمرّة. أخيرًا، بعد طول انتظار، نظر غودفيلو إليها. ثمّ بعنايةٍ، كأنّها شكلٌ رقيق قد فرغ من صياغته، رفع يده عن كتفها ولوّح بها بسلاسة هنا وهناك أمامَ عينيها. لم ترفَّ البنتُ، أو تتحرّكْ أدنى حركة. ثمّ صدرت عن الحضور من جديد تلك الحركة المتنهّدة، الشبيهة بموجة. أدار غودفيلو رأسه ونظر إلينا بنظرة مخزَّرة، ثاقبة. يا رقّةَ ذاك الفم المبتسم، يا حمرتَه، ندبةٌ مزْرقَّة. أخذ بيد لِلِي وقادها دون مقاومة منها إلى طرف المنصّة.

«حسنًا؟»، قال، ملتفتًا إلينا، صوته ناعم جدًّا حتى لا يكاد يُسمَع. «ماذا سنجعلها تفعل؟»

ذات أصيلٍ، قبل زمن طويل، لمحتُ لمحةً منّي في مرآة غرفة أمّي. كنت في إحدى جولاتي الاستكشافيّة المتبطّلة والمنفردة في المنزل. باب الغرفة كان مواربًا، وإذ مررت أومض تَحَرُّكٌ في زاوية عيني، ابتداءً لامعٌ فانكماش، أو هكذا بدا، بلون سكّين، كأنّ مجرمًا هناك دُهِش بعمله السرّي. توقّفتُ، قلبي ينبض نبضًا مكتومًا، وأخذتُ خطوةً حَذِرةً إلى الخلف، فخطا انعكاسي معي في المرآة المائلة على التسريحة، رأيتُني آخَرَ غيري، غريبًا يكمن هناك، شخصًا ذا مقصد غامض وخطير، وسَرَتْ للحظة عبر لوحي كتفيّ رعدةُ رعبٍ ممتعة. تملّكني ذلك الشعور نفسه إذ قمتُ من مقعدي الآن وتقدّمت، خفيفًا على قدميّ مثل ميركوري ذاته، وخطوتُ رشيقًا على المنصّة ووقفت، مرفوع الرأس وذراعاي تتأرجحان قليلًا، وِقفةَ رياضيّ بعد نهاية استعراضِ مهارةٍ مُنْهِكٍ وجميل. غريب، أن أخطو على ألواح الخشبة من جديد. هناك خشبة واحدة فقط؛ أيًّا يكن المكان، فهي الخشبة نفسها دائمًا. أفكّر فيها تفكيري في ترامبولين، ذلك الارتداد، تلك الوثبة المثيرة للغثيان؛ أحيانا تتمايل الخشبة وترتخي، وأحيانًا أخرى تشتدّ وترقّ مثل جلدة طبل، وليس سوى فراغٍ لانهائيٍّ تحتها. لا خوف إلّا الخوف الذي يعرفه المرء صاعدًا هناك. لا أعني قَلَقَ جُمَلٍ يُسهَى عنها أو باروكة تنفكّ؛ أغلاط كهذه تعني لنا أقلَّ مما يتخيّله الجمهور. لا، ما أتحدّث عنه هو رعبُ الذات، ترك الذات تسرح حرّةً بعيدًا للغاية إلى حدٍّ أنّها قد تُفْلِتُ ذاتَ ليلة، تنفصل بالكامل وتصبح آخَرَ، تاركةً خلفَها قشرةً ناطقة فحسب، زيًّا فارغًا واقفا في ذعر، يعلوه قناع بلا عينين.

- أخذتُ يدَ لِيلي، اليدَ التي لم يكن يمسك بها غودفيلو، وضغطتها في يدي.

«اسمي ألكسندر كليف»، قلتُ بصوتٍ صارمٍ، عالٍ، «وهذه ابنتي».

قبل أن قمتُ من مقعدي ما كنتُ قد دريتُ ما أنا فاعلٌ أو قائل، وفي الواقع، ما زلت لا أدري بحقٍّ ما كنت أقوله، أو أفعله، لكن آنَ لامَسَتْ يدي يدَ لِلِي الرطبةَ، الناعمةَ، الباردة أحسستُ بلحظةٍ أسًى نشوانَ ولا يمكن شرحه حتى إنّي تعثّرت وكدتُّ أقع من طولي؛ كأنّ قطرةً من أصفى (إل إس دي[141]) كانت قد تُرِكَتْ لتسقط في حجرة مفتوحة من قلبي. لم يبدُ أنّ غودفيلو قد فوجئ بظهوري هناك قبالتَه. لم يجفل، أو يتحرّك على الإطلاق، إنّما وقف كمن يتأمّل، الرأس مائل قليلًا إلى جنب والعينان مسبلتان، فمه الأحمر زُمَّ في ابتسامة المعرفة الخفيّة تلك، كالخادم الذي كان قد عرف الملك المتنكّر واحتفظ بالسرّ، لا ولاءً، بل لحاجة في نفسه. هل عرفني؟ لا أحبّ فكرةَ أنّه قد عرفني. تنهّدَتْ لِلِي؛ كانت لديها الإرادة، تعبيرٌ مستسلمٌ للنوم على محيّا مسرنم. نطقتُ باسمها فارتعشَتْ ارتعاشًا واهنًا وأطلقَتْ زفرةً مرتعشة، وجَمَدَتْ مكانَها من جديد. هزّ غودفيلو رأسَه هزّةً، وطقطق لسانَه، كما في عتاب رقيق. لم تلتقِ عيناه عينيّ بعد. لقطتُ رائحتَه، نتن خَفِيّ، زَنِخ، خفيف. بعيدًا، عند مدخل الخيمة خلفَه، كان الباب مفتوحًا بعض الشيء، مؤطّرا لمحةً طويلةً شوكيّةَ الشكل من الميدان المضاء بالشمس في الخارج. الهواء كاكيُّ اللون هنا كان كثيفًا، ومشوبًا بمسحة جريحة. قعد الجمهور في حيرة، ينتظر. صُفِّيت الحناجرُ، ونَدَّتْ ضحكةٌ قَلِقةٌ أو اثنتان، وقال شخصٌ شيئًا، سائلًا سؤالًا، على ما بدا، وأجابه شخص بما بدا إجابةً مكتومة. كانت لِلِي قد بدأتْ تتمايل مهتزّةً بعضَ الشيء، ذراعاها ممدودتان إلى غودفيلو وإليّ إذ أمسكنا بها بيننا. الآن نظر إليّ. أجل، أجل، أظنّه عرفني، أظنّه عرف من كنتُ، من أكون. رأيتني منعكسًا في عينيه. ثمّ بأوهى هزّة من كتفيه أرخى

---

141 عقار هلوسة.

قبضتَه عن يد لِلي. تمايلَتْ من جديد، جانبيًّا هذه المرّة، ووضعتُ ذراعي حول كتفيها، خائفًا من أنّها قد تقع. وإذ اقتدتها نزولًا من المنصة صاح أحدهم في الخلف صيحةَ ازدراء، وضحك، ومالت عازفةُ البوق ونفخت علينا نغمة نحاسيّة عالية، لكن بفتور. التفتَت الرؤوس لتشاهدنا حين مررنا. خارج الخيمة، تراجعت لِلي، وجفناها يرفّان في الضياء الساطع. شممتُ الأحصنة المربوطة، وتذكّرت الفتى في الميدان ذلك اليوم، على سِيْسِيِّه، في المطر. لِلي، ويدٌ على وجهها، كانت تبكي بهدوء. لا عليكِ لا عليكِ، قلتُ؛ لا عليكِ لا عليك.

*

يا لَفيض الصيف الوفير. هذا المساء، مسندًا ذقني إلى قبضتي عند نافذتي الصغيرة، أستطيع أن أرى آخر أزهار إبرة الراعي وأشمّ أريجها الحمضيّ؛ الهواء يعجّ بالذباب الصغير؛ في الغرب شمس سمينة تُقعي في سماءٍ زرقاءَ مريميّةٍ وخضراءَ كُرّاثيّةٍ وزهريّةٍ كأفتحِ ما يكون الزّهريّ. هذي هي أيّام الشِّعرى[142]، إذ يعلو نجم الشّعرى اليمانيّة ويجالس الشمس. في صباي عرفتُ النجوم، وأحببت أن أتلو أسماءها على نفسي، في ابتهاليّة سماويّة، الزّهرة، مَنْكِب الجوزاء، الدَّبَران، الدُّبَان، الأكبر والأصغر. لَشَدَّ ما أحببت برودة تلك الأضواء، صفاءها، وبعدَها عنّا وعن كلّ ما نفعله وعن كلّ ذاك الذي يصيبنا. حيث تشعّ يَعيش الموتى. ذاك ما آمنتُ به، في صباي. النوارس في لَغَط عظيم، ما تراه ذاك الذي يُذْنِفها؟ ربما أنّها ملائكة قيل لهم اهبطوا إلى الجحيم هنا. في المنزل لَغَط، أيضًا. أسمع ما يبدو أنّه امرأة تنتحب. نحيب أعرفه على مضض. بات مرتحلًا إليّ زمنًا طويلًا عبر اتّساع الفضاء، كأنّه ضوءُ نجمٍ بعيد، شمسٍ ميتة.

---

142 الفترة ما بين مطلع يوليو ومطلع سبتمبر في نصف الكرة الشماليّ. معروفة بقيظها وشدة رطوبتها.



هَفيفٌ، وترتفع الستارةُ عن الفصل الأخير. المكان: نفس المكان. الزمان: بعد بضعة أسابيع. أنا عند طاولتي، كما في السابق. لكن لا، لا شيء كما في السابق. إبرة الراعي لفظَتْ آخرَ أنفاسها، ما عدا عساليجَ قليلةً متهدِّلة. زاوية الشمس على الحديقة تحوّلَتْ، لم تعد أشعّتها تضيء نافذتي. برودة جديدة في الهواء، عواصف في الجوّ، والسماوات طيلة النهار زرقاء غامقة وتغصّ بأكداس الغيوم، كثيفة، طبقات متدحرجة من النحاس والكروم. لكنّي أتحاشى، قدرَ الإمكان، كلَّ أشياء الخارج تلك. إنّها فوق طاقتي. لقد صار العالم جرحًا لا أطيق احتمالَ النظر إليه. على مهل آخذ كلَّ شيء، بعظيمِ عنايةٍ وحذر، متجنّبًا كلَّ التحرّكات المفاجئة، خشيةَ أنّ شيئًا داخلي قد يتحرّك، أو يتهشّم حتّى، تلك القنّينة المختومة حيث يكمن الشيطان، متحرِّقًا لينال منّي. صمت عميق يستولي على كلّ أنحاء المنزل، صمتٌ كأنّه صمت حجرة التمريض. لن أطيل البقاء.

التراجيديّون مخطئون، لا جَلَالَ للحزن، الحزن رماديّ، له رائحة رماديّة ومذاق رماديّ وملمس رماديّ في الأصابع. غريزةُ ليديا كانت أن تغالبَه، عبثًا تُراوِغ وتَخمِش، كأنّما تصارع معتديًا، أو تحاول أن تصدَّ وباءً في الهواء. من بيننا نحن الاثنين، كنتُ الأوفرَ حظًّا؛ كنتُ قد خضعت للتدريب، إن جاز التعبير، وبلغتُ طمأنينةً، نوعًا من طمأنينةٍ. عندما غادرتُ أمانَ حجرتي الصغيرةِ ذلك المساء، مساء السيرك، رأيت مشهدًا أعادني على نحو صارخ إلى المشهد يومَ أمس، حين كانت ليديا قد وصلت ووجدتُها في الرّدهة وصرخَتْ في وجهي لعدم مجيئي في وقتٍ أبكرَ كي أرحِّبَ بها. هناك كانت الآن من

جديد، في مَشدّها الأسود وثوبها الفضفاض، وهناك كانت لِلِي كذلك، حافيةً، تمامًا كما قد كانتا أمسِ- أظنّني كنتُ حتّى ممسكًا بقلمي الحبر. لم تزل ليديا تلفّ شعرها بوشاح عاملة التنظيف لكنّ ثوبها اليوم كان أبيض، لا أحمر. سيماؤها... لا، لن أحاول وصفَ سيمائها. عندما رأيتُها تذكّرتُ شيئًا حدث ذات مرّة حين كنت مع كاس، حين كانت كاس طفلةً. كان الفصل صيفًا، وكانت ترتدي فستانًا أبيض مصنوعًا من طبقة فوق طبقة من قماش رقيق، نصف شفّاف، في غاية الجمال. كنّا للتوّ قد خطونا خارج المنزل، ذاهبَين إلى مكان ما معًا، لا أتذكّر أين، نزهةً ما. وكان اليوم مشمسًا، هبّات ريح شديدة، النوارس تصيح وصواري القوارب في المرفأ ترنّ مثل أجراسٍ جَاوِيّة[143]. ثلّة من شباب صاخبين أنصافِ سكارى كانوا في الشارع، كلّهم صدريّات وأبازيمُ أحزمةٍ وقَصّاتُ شَعْرٍ متوعِّدة. بينما مرّوا بنا مترنّحين استدار أحدهم فجأةً، وحشٌ أزرق العينين يمسك معصمَه بقوّة، وبحركة سريعة من يده، راحتها مجروحة جرحًا غائرًا من سكّين أو زجاجةٍ مكسورة، رشّ على فستان كاس رشّةَ دمٍ طويلةً بشكل قُطريّ. صَهَلَ ضاحكًا، صهيلًا مخبولًا عاليًا، وضَحِكَ الآخرون أيضًا، ومضوا، أسفل الطريق، يتهادون، ويتدافعون بالأكتاف، مثل عصابة أشرار جاكوبيّة[144]. لم تَفُهْ كاس بكلمة، لم تزد على أن وقفَت لحظةً وذراعاها مرفوعتان بعيدًا عن جنبيها، ناظرةً إلى نطاق الدم عبر صِدارها الأبيض. على الفور، دون كلمة واحدة، عدنا إلى المنزل، وانطلقَت مسرعةً إلى الطابق العلوي وغيّرت ملابسَها، وخرجنا من جديد، إلى أيّما مكان كنّا قد أزمعنا الذهاب إليه، كأنّ شيئا لم يكن قد حدث. لا أدري ما فعلَت بالفستان الأبيض. لقد اختفى. عندما سألَتْها أمُّها عنه رفضَت أن تجيب.

---

143 نسبة إلى تلك التي يصنعها شعب جزيرة جاوه.

144 نسبة إلى التراجيديا الجاكوبيّة (أو تراجيديا الانتقام).

كذلك أنا، لم أقل شيئًا. أحسب الآن أنّ ما حدث كان قد حدث في غير الزمان المعتاد، أعني أنّه قد حدث بطريقة أو بأخرى لا كما تحدث واقعة حقيقيّة، بأسبابها وتبعاتها، لكن بطريقة خاصّة، في بُعد خاصٍّ بذاكرة أو حلم، حصريًّا، وعلى وجه الدقّة، حتى إنّه قد يحدث لي هناك، إذ وقفتُ في الرّدهة، في منزل أمّي، ذات مساء في الصيف، المساء الأخير لما اعتدتُّ على التفكير في أنّه حياتي.

بثلاث خطوات سريعة، صارمة، حطّتْ ليديا عليّ، تضرب قبضتيها على صدري، ضاغطةً وجهها قريبًا من وجهي. «كنتَ تدري!» صاحت. «بكاؤك في دُوْر العرض، وعودتك إلى هذا المكان، ورؤية الأشباح- كنتَ تدري!» كانت تحاول أن تؤذيني بأظفارها الآن. أمسكتُها من معصميها، شَامًّا دموعَها ومخاطَها، حاسًّا على وجهي حرارةَ أَتُّون أساها الفظيعة. كنت أسمع عويلًا خافتًا لحيوانٍ في مكان ما، ونظرتُ وراء كتف ليديا ورأيتُ أنّه كان لِلِي، عند الباب الأماميّ، راكعةً بتلك الطريقة غير البشريّة- لا بد أنّه كان نحيبَها هي، لا ليديا، بكاءها الصغير المفجوع، الذي كنت قد سمعته من حجرتي. وقفَتْ مُنْحنيةً، وقبضتاها مثبّتتان على ركبتيها ووجهها قناع مجعّد، محاولةً ألّا تنظر إلينا ونحن نتعارك هناك. ألفيتُني أتساءل بانزعاج طفيف ما الذي قد يكون آلَمَها إلى هذا الحدّ، في حين أنّنا، أنا وليديا، من كان ينبغي له أن يصيح ألمًا وعذابا؛ أترى ليديا كانت قد روّعتها، أو آذتها بصورة ما، لَطَمَتْها، ربما؟ الباب خلفها كان مفتوحًا قَدْرَ قدمٍ مقلقةٍ أو نحوها. شمس المساء أضاءتْ عبر اللِّجاف، ضياء عتيق، ذهبيّ، كثيف، مثقل بالهباء. ظهر الآن كويرك في مدخل المطبخ، يحمل كأسًا طويلة من الماء، يمسكها على راحة يد ويوازنها بأصابع اليد الأخرى. وبغيرِ ما مفاجأةٍ، بسَأَمٍ تقريبًا، نظر إليّ

وإلى ليديا، ما زلنا مشتبكَين بالأيدي. عند رؤيته قطعَتْ لِلي عويلَها فجأةً، وشيءٌ في ضراوة ليديا خَمَدَ كذلك. أفلتُّ معصميها، وتقدّم كويرك بسحنة قسّ ولم يناولها الكأس بقدر ما ائتمنها عليها، كأنّها كأسُ القربان. وقد زادت القاعدةُ الورقيّةُ التي وضعها تحت الكأس من الوتيرة الكَنَسيّة للحظةِ، بيضاء وهشّة مثل خبز القربان. كلّ هذه الأشياء لحظتُها بانتباهٍ شديد، كأنّ سجِلًّا كان يجب أن يضمّها، ليكون دليلًا، وقد أُوْكِلتْ إليّ مهمّة الاحتفاظ به. إبقاءُ القاعدةِ في مكانها خلال مناولة الكأس، ما بدا أنّهما معًا كانا يشعران بأهميّته، تطلّب رقصة ثنائيّة معقّدة بإبهامين دوّارين، وأناملَ تحافظ على توازن دقيق. شَرِبتْ ليديا شربةً طويلةً عميقةً من الماء، مسندةً رأسها بعيدًا إلى الخلف، حَلْقُها، غِلَظُهُ الشاحبُ الدُّرَاقيُّ بعضَ الشيءِ والجديد الذي لم أكن قد لحظتُه إلّا الآن، يعمل بحركة ضَخّ، كأنّ قبضةً داخله، تذهب صعودًا ونزولًا. لمّا انتهتْ ناولَتْ الكأسَ لكويرك، متّبعًا كلاهما الأسلوبَ نفسه مع قاعدة الكوب. لِلي عند الباب كانت قد بدأت تشهق ويسيل مخاطها، وتجهش بالبكاء بكلّ علامة تدلّ على موجة عويل جديدة، لكنّ صوتًا حادًّا آمِرًا أطلقه كويرك باتّجاهها، كذاك الذي يطلقه الرّعاة على كلابهم، جعلها تصفق يدًا على فمها، بدت عيناها على إثره أكثر رعبا وجحوظًا. ليديا، وقد خَلَتْ كلُّ خلية فيها من العراك، سحبَت وشاحَها ووقفَت قبالتي مثبَّطَة الروح الآن ومطأطأَةَ الرأس، أصابعها الممدودة المتباعدة مضغوطة على جبينها عند منابت الشعر، في موقف الناجي من كارثة، لا العالقِ في قلبها. كان منظر الباب الأماميّ مفتوحًا بتلك الطريقة لم يزل يقلقني، كان فيه ما يثير ارتيابًا متزايدًا بشكل فظيع، كما لو كان شيءٌ ما أو أحدٌ ما هناك في الخارج يتحيّن اللحظةَ المناسبةَ لينسلّ إلى الداخل دون أن يفطن له أحد.

«المرقة جاهزة»، قال كويرك بصوت رتيب على نحو غريب وكئيب، مثل ذاك الذي لشخصية الشرّير في «بانتومايم[145]».

لم أستطع فهمه على الإطلاق؛ كأنّ الكلمات كلّها كانت بالترتيب الخطأ، وظننت أنّه لا بدّ سكران، أو يحاول نكتةً ما سَمِجَة. وفي صراع الفهم، شعرت بالشعور المذعور الذي يشعر به المرء أحيانًا خارج البلاد، حين يطلب من خادم أو بائع طلبًا ثلاث مرّات بثلاث لغات مختلفة ولا يقابَل كلَّ مرة إلّا بهزّة الكتفين والنظرة المسدلة. ثم انتبهتُ إلى الأصوات الآتية من المطبخ، الأصوات الدافئة لآنية الفخار وقد نُسِّقَتْ والكراسي وقد وُضِعَتْ في أماكنها عند الطاولة، وعندما نظرتُ إلى المكان كانت امرأة هناك لا أتذكّر أبدًا أنّي قد رأيتها من قبل، رغم أنّها بدتْ مألوفة. كانت كبيرةً في السنّ، بشعر رماديّ كحديد الزّهر الرماديّ، ونظّارة بإطار ورديّ كان مائلًا بعض الشيء. كانت تلبس مريلة أمّي، المريلة نفسها التي لبستها ليديا مسبقًا. بدت ملامح المرأة مرتاحةً تمامًا ومنسجمةً مع كلّ شيء، وتساءلتُ لحظةً أتكون ربما ساكنًا آخرَ من سكان المنزل السريّين لم أكن قد اكتشفتُ حضورَه. لمّا رأتني أنظر ابتسمَتْ لي ابتسامةً مشجّعةً ودودة، وهي تومئ برأسها، وتمسح يديها على مريلتها- أعني على مريلة أمّي. التفتُّ إلى كويرك، فاكتفى بأن رفع عينيه وأمال رأسه إلى جانب واحد فحسب. «الـمرقة» قال مجدّدًا، بتشديد أثقل، كأنّ الكلمة يجدر بها أن تشرح كلّ شيء. «ستجوع، ولو أنّك لن تدري بذلك». وجدتّ نبرته المداهنة الخفيضة فجأةً موتِّرة للغاية.

لقد كان كويرك من جاء بالنبأ. دائمًا ما يقع على عاتق كويركيٍّ أن يحمل أنباء كتلك. كان قد اتّصل به شخصٌ ما في المكتب، قال لي، وبدا عليه

---

145 فن التمثيل الإيمائيّ، وتشير الكلمة في بريطانيا وإيرلندا خصوصًا إلى نوع من الإنتاج المسرحي الكوميدي المصمّم للعرض خلال موسم الكريسمس.

الارتباك إزاءَ الحسِّ المتملِّك الفخم الذي انطوى عليه نطقه لتلك الـ: في المكتب. لم يعرف من كان المتّصل، قال، وكان قد نسي أن يسأله، والآن كان في غاية الأسف، كما لو كان حقًّا أمرًا ذا بال. وكان ذلك الشخص امرأةً، حسب ظنّه، وإن كان ظنًّا لا يرقى إلى درجة اليقين. لكنة أُجنبيّة، والاتصال كان سيِّئًا. لم أعرف قطّ هويّتها، أو هويّته. للمأساة دائمًا رُسُلُها المجهولون، بصنادل وأردية يدخلون دخولًا خاطفًا من أجنحة المسرح ويجثون على ركبة بين يدي العرش، برؤوس محنيّة، مستندين إلى الـ«كَدُوسِيَس[146]» *caduceus*. أم تراني أقصد «كَدُوْكَس[147]» *caducous*؟ كلمات، كلمات. لا يهمّ، لا طاقة لي بالبحث عنها في المعجم، على أيّة حال، حين أفكّر في الأمر فإنّ كلا الكلمتين تصلح للاستعمال، في هذا السياق.

إنّي أنْضَبُ.

المرأة الغريبة تقدّمَت إلى الأمام، لم تزل تبتسم، لم تزل تومئ إيماءة تشجيع، مثل العجوز الطيّبة في منزل كعك الزنجبيل[148] في الغابة حيث يضيع الصغار. سأختار لها اسمًا، حسنًا، سأسمِّيها- أوه، ماذا يهمّ- سأسمّيها الآنسة كِتِلْ، ذاك سَيَفِي بالغرض. هي آنسة، أعتقد، لأنّي أشعر، دون دليل، بأنّها كانت عانسًا. انتبهتُ إلى سبب ميلان نظّارتها: عصا النظارة كانت مفقودة من أحد الجانبين. أخذَتْ بيدي؛ كَفُّها دافئة، وجافّة، ولم يُبْلِها البتّةَ كَدٌّ أو شظفُ عيش. لِبادةُ لحم دافئة ناعمة. أكثرُ شيءٍ حقيقيٍّ كنت قد لمسته منذ سماعي نَحِيبَ لِلِي وخروجي من حجرتي. «آسفة على مصابك»، قالت، وسمعتُني، لباقةً تلقائيّةً، أجيبها بابتهاج تقريبًا: «أوه، ما من مصاب».

---

146 الصولجان المجنّح: صولجان هرمِس (رسول الآلهة). يتخذه الأطبّاء شعارًا لمهنتهم.

147 مبكّر التساقط (صفة للنبات). والإشارة هنا إلى تشابه الكلمتين عليه.

148 منزل كعك الزنجبيل: مسرحية مبنيّة على قصة «هانسِل وغريتل» للأخوين غريم.

كانت قد حضّرتْ واحدةً من وجبات الطفولة القديمة الأساسيّة تلك. سلطة خسّ بالطماطم والبصل الأخضر والبيض المسلوق المقطّع، وأطباق من خُبز الصودا[149]، الأبيض والأسمر، وإبريقان كبيران من مرق العظام، كلاهما بذيل خنزير من البخار يتلوّى من فمه، وشرائح مربّعة من لحم الخنزير المصنّع الذي لم أحسب أنّهم ما زالوا ينتجونه، شاحب، مجزَّع، ولامع بالشرّ. وقفنا جميعًا هنيهةً حول المائدة نعاين الطعام، خُرْقًا مرتبكين كمجموعةٍ متنوّعةٍ تنوُّعًا متنافرًا من ضيوف عشاء- ماذا ستجد تلك الممثّلة كي تقولَهُ للأسقف[150]؟- ثمّ بلفتة لطيفة سحب كويرك كرسيّا لليديا، وقعدَتْ، وقعدنا، متنحنحين وفاركين كعوبنا على الأرض، وصبّتْ الآنسة كِتلْ لنا المرق.

كانت هذه أولى المآدب التي أُعدّتْ لنا أنا وليديا خلال الأيّام التالية. في أوقات الثُّكْلِ، اكتشفتُ، يَلجأ الناس إلى عطفٍ بدائيّ، يتجلّى أوضحَ ما يتجلّى في صورة تقديم الطعام. أطباق الشطائر أُحْضِرَتْ إلينا وترامس من حساء الدجاج، وفطائر تفاح، وقدور مرق عظيمة البطن ملفوفة بحذر في فوط مطبخ غسلتَها ليديا من بعدُ وكوتها وأعادتها إلى أصحابها، مطويّة بعناية داخل القدور المغسولة التي كنت قد أفرغتها، كلّ واحد منها، في صندوق القمامة. شعرنا مثل قسّيس وقسّيسة يرأسان قدّاسًا، يتلقّيان قرابين المؤمنين، التي كانوا يقدّمونها بالابتسامة المومِئة الحزينة نفسها، برَبْت اليد نفسه أو قبض الذراع، بهمهمات التعازي الخجولة نفسها. لم

---

149 من أنواع الخبز الإيرلندي التقليديّة.

150 تنويع على التعبير البريطاني الشائع: «كذا/ كما قالت الممثلة للأسقف» الذي يستخدم على سبيل الدّعابة تحويرًا للمعنى المقصود وتوجيهًا لذهن المستمع إلى معنى آخر بذيء (إيحاء جنسيّ في الغالب) قد يحتمله الكلام ذو المقصد البريء. والمراد من الجملة الاعتراضيّة هنا- حسب فهمي- أنّ تباين أفراد المجموعة قد بلغ مبلغًا لا يمكن معه حتى أن يجدوا ما يتمازحون بشأنه.

أبكِ على الإطلاق، لم أذرف دمعة واحدة، في أيّام العزاء الأولى- لقد أدّيتُ مناحتي سلفًا، في ظلمة أصائل السينما المأهولة المضاءة بأنوار الشاشات قبل شهور- غير أنّي لو كنتُ سأنهار لانهرتُ في لحظة من تلك اللحظات لمّا كان يوضَعُ في يدي مضغوطًا بمنتهى الحنان صحنٌ من قوالب الكعك أو قِدرُ حساء. لكنّ كلّ هذا فات أوانه، الدعوات المهموسة، والصلوات الموعودة، ولحوم المأتم المُحمَّرَة، لأنّ العذراء الآن قد غدت إلى القربان.

الشّجا يسلب الأشياءَ مذاقَها. لا أعني أن أقول فقط إنّه يُضْعِف التّكهات الخفيّة، يملِّس النسيجَ المميّزَ لقطعة لحم بقر رائعة، يخفّف حدّةَ صلصة، بل إنّ المذاقات الخالصةَ نفسَها، للحم، للخضروات، للنبيذ، لطعام الآلهة، أيًّا يكن، تُقتَلُ تمامًا، حتى ليجدر بالشيء الذي في نهاية شوكة أن يكون ورقًا مقوّى، بالشراب المسكر في كأس أحدهم أن يكون ماءً راكدًا فحسب. قعدتّ وأكلتُ مثل آلة، ببطء أجترّ اجترارًا؛ دخل الطعامُ، تحرّك فكّاي حركتَهما المألوفة على شكل الرقم ثمانية (8)، تحدّرت المضغة، ولو خرجتْ مباشرةً من سبيلها دون توقّف في الطريق لما دَهِشْتُ، أو قَلِقْت. الآنسة كِتل بطريقتها المرسلة على البديهة حافظت على سير الحديث، أو المونولوج، في الحقيقة، الذي لم يكن بهيجًا ولكنّه ليس كئيبًا، كذلك. لا بدّ أنّها قد كانت جارةً، أو قريبة من قريبات كويرك كان قد كلّمها طلبًا للدعم والعون في هذا الوقت الحَرِج، على الرغم من أنّها بدت مستنكرةً إيّاه، إذ كلّما وقعَت عينها غير الراغبة عليه انزمّتْ شفتاها وتحزّزتا في خطوط عميقة. كانت سليلة محترفات نياحة وصورةً محسَّنةً منهنّ، أولئك اللاتي كنّ في الأزمنة الخوالي في هذا الجزء من العالم يُحيِيْن المآتم بعويلهنّ ونواحهنّ المستأجَر. تناولَت في حديثها مسألة الموت بمهارة ورقّة تستحقّ بهما أن تكون مديرة دار

جنازة. النشاز الوحيد في أدائها كان تلك النظّارة المائلة، التي منحتها مظهرَ شخصيّة ديكنزيّة غريبة الأطوار. أشارت بشكل متكرّر إلى أختها المتوفّاة، على أنّي لم أُرْعِها سمعي كفايةً لأدرك متى أو كيف ماتت؛ بدا من الطريقة التي تحدّثَتْ بها عنها وعن رحيلها أنْ كان متوقَّعًا منّي تقريبًا أن أكون على دراية مسبقة ببعض التفاصيل. هذه الأحاديث المتبادَلة، إن ساغ أن تسمّى متبادَلة، كان يمكن، في ظروف أخرى، أن تسبّب إحراجات وارتباكات كبيرة؛ هنا، رغم ذلك، لا شيء كان مطلوبًا منّي على سبيل الأدب أو السلوك الحسن؛ شعرت كأنّي حيوان كبير غير مؤذ كان قد جُلِب من الغابة جريحًا، كي يُعتنى به، ويُدْرَس بسريّة. قعدَت ليديا قبالتي، تأكل مثلي بطريقة آليّة، في صمت، نظرتها مثبّتة على صحنها. كويرك كان على رأس المائدة، وقد بدا كليّة مثل ربّ الأسرة، ملامح لطيفة وموسوسة، وعين على كلّ شيء. في الناس من يحسنون معاملة الموت، تزهر نفوسهم إيجابيّة في نسمة الفناء الجليديّة، وممّا فاجأني، وأثار استيائي الغامض، أن ظهر أنّ كويرك كان واحدًا منهم. كلّما التقيت عينيه، وكانت مرّات نادرة، ابتسم لي نصف ابتسامة مصحوبة بإيماءة مشجّعة وجيزة، ابنة عمّ تلك التي كانت الآنسة كِتلْ قد أغدقتها عليّ آنفا، حين اقتنص كلانا نظرةً من الآخر، وخطر سريعًا على ذهني المشوّش أنّ كلّ هذا ربما- التعاطف، الأحاديث المُلْهِية، مرق العظام- كان بالفعل خدمةً احترافيّةً راحا يؤدّيانها وأنّه عمّا قريب ستمرّ لحظة محرجة من أصوات السّعال، وهزّات الكتفين المعتذرة، وفاتورة، وأجر ليُدْفَع. تخيّلت كويرك ممرِّرًا الفاتورة خفيةً، كما يُخفي حاوٍ ورقة لعب في راحة يده لكن بالمقلوب- الظرف لا شكّ مربوط بشريطة حريرية سوداء- وتعبيراته الصامتة، المقدِّرة إذ ناولته بازدراء كيسًا من الجنيهات المخشخشة. أجل، إنّ في كويرك شيئًا

فيكتوريًّا؛ لمحةً متملِّكة متغطرسة بتأنّق من خادم عاش في خدمة أسياده زمنًا طويلًا حتى اعتقد أنّه يمكن أن يعدّ نفسه من أهل البيت.

لِلِي كانت الشخص الذي حيّرني. بعد جيشان عاطفتها في الرّدهة من قريب، صارت الآن مكفهرّة ومنكمشة انكماشة سِنَّوْر. قعدتْ إلى جانبي منكفئةً على صحنها، وجهها متوارٍ خلف خُصَلِ شعرها المتدلّية. خبرتُ جيّدًا كيف يُضجِر الموتُ الشباب، مثل متطفّل كئيب يأتي ليفسد أخيرًا حفلةً مضجرةً سَلَفًا، لكنّ الصمت الذي شَعَّ منها مثل حرارة كان يملك قوّةً مستشيطةً كانت، كما أمكنني أن أرى حتى في كَدَر روحي، موجَّهةً بكاملها إليّ. لكن ما الأذى الذي كنتُ قد ألحقتُه بها؟ أساسًا أنا لا أفهم البشر، كما ذكرت يقينًا غيرَ مرّة، لكنّي أجد اليافعين خصوصًا محيِّرين، وطالما وجدتّهم كذلك. لاحقًا، في الردهة، بينما كنّا نغادر أنا وليديا، ماشيين بخطى متثاقلة في أسانا المُخْضَلّ، إذ طلعت الطفلة وألقتْ بنفسها عليّ وتعلّقت بي لحظةً في عناق رطيب، مربك، شديد، قبل أن تنكص مسرعةً من جديد، على تينك القدمين القذرتين، الحافيتين، الرشيقتين. ربما أنّها حقًّا أرادتني أبًا.

الآن دخل الليل تقريبًا، لكنّ الفرار كان صعبًا، صعبٌ أن تجد وصفة تنهي بها الحدث. الآنسة كِتِل كانت تبتسم وتومئ من جديد، وكويرك وقف دون أن يقول شيئًا، سوى أن بدا جادًّا ولطيفًا لطفًا متفكِّرًا. لربما كنّا طفلين، أنا وليديا، متعبين ونعسانين، بعد يوم في الريف زرنا فيه عَمّةً طيّبةً وعَمًّا. كان المساء قد مرّني ظلامًا شفقيًّا، فريدًا، مضاءً على نحو متقطّع بومضات بطيئة وشاحبة من لمبة كاميرا. لقطات محدّدة بقيت: كويرك وليديا وقد تنحّيا عن الطاولة، قاعدَين يقابل أحدهما الآخر على كرسيين من النوع المستقيم الظهر، ليديا تنوح دون تحكّم بنفسها، وكويرك، منحنيًا إلى الأمام

بجديّة وركبتاه منفرجتان، يمسك بيديها في يديه ويخفق بهما برفق أعلى وأسفل، كأنّه كان خارجًا يقود عربة حصان خفيفة ويداها طرفا العنان؛ الآنسة كتل تضحك على شيء ما، ثم تتذكّر، وتُسكّر فمَها، وتُعدّل اعتذارًا نظّارتَها، التي عادت مائلةً على الفور؛ ذراع لِلي المكشوفة جنبَ ذراعي، كل خيط ضئيل فيها لَمَع؛ شمس المساء في النافذة، مذهِّبةً لوحَ تجفيف الأطباق ومتلألئةً على حافّة قدح؛ صحني، بحبّةِ طماطم مستديرة ليّنة، ورقةِ خسّ مجرَّحة، لطخةٍ من صفار بيض مفتّت. هذه هي الأشياء التي يتذكّرها المرء.

رحيلنا، حين تدبّرنا أمرَه أخيرًا، كان بداية تلك «الباروديا» المشوّهة لعطلة عائلة حُكِم علينا أنا وليديا بأن نمثلّها خلال الأيّام القادمة. تجمّعنا كلّنا عند الباب الأماميّ، نحن وحقائبنا، وكويرك والآنسة كتل، وحتى لِلي، التي كانت قد عاودت الظهور من أيّما مكانٍ كانت قد فَزِعت إليه، وعَلِقَتْ في الخلف في ظلال الردهة، فظّة ومتّهمة، مثل ممثّلة شابّة مدلّلة قد سُرِقَتْ منها الأضواء، وهو ما أظنّه كان قد سُرِق منها. آخر أضواء المساء من الغرب جعل وهج مصابيح الشارع خلفنا خابيًا. عدستا نظّارة الآنسة كِتل قنصتا وميضَ شيء وللحظة بدا أنّ عملتين معدنيتين لامعتين، فارغتين وضعتا على عينيها. كويرك بقميص ذي أكمام وقف في المدخل وِقفةَ «بِيَرو» ل(فوبلين)[151]، محاولًا أن يجد شيئًا ليفعله بيديه المتدلّيتين.

«ما عندك إلّا هذه الواحدة؟» قال لي.

«الواحدة؟»

---

151 جان فوبلين: شخصيّة متخيّلة لفنّان تشكيليّ يحضر اسمه في عدد من روايات جون بانفيل، وتُشَابِه سيرته وأعماله المشار إليها تلك التي للفنّان الفرنسيّ جان أنطوان فاتو (1684 – 1721). من ذلك لوحة «بِيَرو» Pierrot المنسوبة هنا لفوبلين وهي في الواقع لوحة شهيرة لفاتو يصوّر فيها شابًا يلبس زيّ بِيَرو (شخصية المهرّج في المسرحيات الإيمائية الفرنسية)، وخلف هذا المهرّج الحزين يطلّ حمار برأسه وسط أربعة من الممثلين.

«البنت».

في ذهني تراءى لي بوضوح غودفيلو، الذي ابتسم ابتسامتَه رقيقةَ الشفتين، وغمز لي، وتلاشى.

«هذه الواحدة فقط»، قلتُ، «نعم».

*

كانت هناك لفتات عجيبة من العون والعزاء. سيبدو غريبًا، ربما، لكنّ هذه من بينها، عيونَ اللفتات العجيبة، هي التي أثّرتْ فيّ أكثرَ شيءٍ حِدّةً، مخترقةً أكفانَ الشّجا العصبيّةَ، لولاها، على النفاذ مثل صعقات خفيفة لكهرباء ساكنة. إحدى خالات ليديا، عجوز وحشيّة بشارب وبشرةٍ كجلد فيل، مَنْ حَسِبتُ أنّها كانت دائمًا تحتقرني، عانقتني عناقًا عابقًا بكُرَات النفتالين ودَسّتْ في يدي رزمة من الأوراق النقديّة، ناقّةً في أذني نقيقًا خشنًا: ستكون هناك أشياء يُحتَاج إليها. الجنائنيُّ الذي كان يعتني بحديقة ليديا- أرى المنزل عند البحر وكلَّ شيء فيه الآن منزلَها ومِلْكَها- تبرّع بتنسيق أزهار الجنازة. التجّار المحليّون أسهموا، كذلك، بسخاء؛ كان على ليديا أن تنفق أيّامًا في كتابة رسائل شكر وامتنان. الصيدليّ الذي تتردّدُ عليه مرّر لنا من تحت «الكاونتر» كنزًا دفينًا للمصابين بالأرق من المنوّمات التي كان سيتطلّب الحصول عليها في الظروف العاديّة وصفةً طبيّةً موقّعةً من طرف هيئة صحيّة كاملة، لتأثيرها القويّ جدًّا. البقّال أرسل إلينا صندوقًا يحوي تشكيلة منوّعة من المعلّبات. ثُمّ هناك رسائل التعزية، التي كان لا بدّ من الردّ عليها. بعضها وَرَدَ من أناس لم نتعرّفْ أسماءهم، من أماكن في الخارج لم نسمع بها قطّ، معاهد أكاديميّة، مؤسّسات بحثيّة، مكتبات. رسموا لنا صورة أخرى عن ابنتنا، نسخة لم أعرفها: العَالِمَة العالميّة؛ لقد كان يجدر بي أن أعير انتباهًا

أكبر إلى ما كنت أجفل دائمًا كلّما سمعتها تشير إليه بوصفه عَمَلَها. لم أعتقد قطّ أنّه كان أكثر من تسلية معقّدة، مثل أحجية صور مقطوعة مكونة من ألف قطعة، أو «سوليتير[152]» صينّي، شيءٌ مملٌّ لكنّه متطلِّبٌ كي يهدِّئ عقلَها المحموم. ذات ليلة في وقت متأخّر، وكنّا قد أخلدنا أخيرًا إلى النوم، متهاويين على السرير بالضربة القاضية من قطرات السيّد فِنْ، اتّصل شخص ما، لكنه كان ثَمِلًا، ثَمَلًا منتحبًا، ولم أستطع أن أتبيّن شيئًا ممّا كان يقوله، إلا أنّه شيء بخصوص كاس، وكنت لم أزل أحاول أن أهزّ رأسي لأستفيق حين قطع الخطّ. بدأتُ أدرك إدراكًا كاملًا في النهاية ضآلةَ ما أعرفه عن ابنتي- ضآلةَ ما كنتُ قد عرفته؛ يجب أن أعوّد نفسي الآن على صِيَغ الفعل الماضي.

*

في الرحلة اللامنتهية- بحسْب وقت حدوثها فإنّها لم تستغرق إلا مدّةَ ما بين الصباح الباكر ومنتصف الظهر- أقعى على مَنْكِبينا الهَمُّ مثل حقيبتين مدرسيتين ثقيلتين، مُنْهِكًا كاهلينا. فكّرت في أنّنا حاجّان متسوِّلان خارجَان من مشهد تَوراتيّ، منحنيان تحت ثقل أعبائنا، نشقّ دربنا المضني على طول طريق مغبرّة وحارّة تَهدي إلى منظر غير محدود. كنا تَعِبَين للغاية؛ لم أعرف قطّ تعبًا كهذا، تلظّى في دواخلنا مثل خُثَارَةِ شرابٍ ليلةٍ طويلة. شعرت بأنّي قَذِر، ملطَّخ بالعرق، ومُستنفَد القوى. جلدي كان متورِّمًا وساخنَ الملمس، كأنْ لم يكن دَمًا ذاك الذي يغلي في عروقي بل أَسِيدًا. قعدت منهارًا في مقعد الطائرة الضيّق، مخدَّرَ العقل والقلب، أتصبّب عرقًا في ثيابي المتجعّدة، تحديقتي الضفدعيّة المتشائمة مثبّتة على مُرقَّعَة العالم المنسوجة على نمط معيّن وهي تمرّ بطيئةً بعيدًا أسفلَ منّا. لم أستطع أن ألقى راحةً لانزعاج

---

152 لعبة ورق.

جسدي، وظللت أطلق تنهّدات متذمّرة مرتعشة صغيرة. إلى جانبي بكَتْ ليديا بهدوء بينها وبين نفسها، كأنّما كانت تستدعي البكاء بالتفكّر، وتتنهّد أيضًا في الأثناء. غير أنّي أتساءل أتراها، مثلي، أحسّتْ خلف هذا كلّه، خلف الأسى والدموع المتواصلة، لا تكاد تُحَسّ لكنّها أبدًا لا تنقطع، بهمهمة الارتياح في الخلفيّة. أجل كان هناك نوع من الارتياح. لأنّ الأسوء الآن قد وقع، لم يعد عليّ أن أعيش في خوفٍ من وقوعه. هكذا يصوغ العقل، مصابًا، منطقَه الجريح.

بقعة ساحرة كان المكان الذي اختارته كاس لمماتها، رأيناه أوّلًا من منعطف على الطريق الساحليّة، مدرّج غير مرتّب من منازل صغيرة بيضاء وتَراكوتيّة ومَغْرِيّة صفراء على تلّة مدرّجة في نهاية رَعْنٍ ناتئ وداخل في بحر مزبد من زرقة مهلكة عميقة. كان مثل شيء في كتيّب سفر، إنّما ببعد أوحشَ بقليل. بايرون[153] على ما يُقال سبح واحدًا من سباحاته الماراثونية من هنا، بقدمه الحنفاء وإلى ما هنالك، إلى لسانٍ أرضيّ على بعد خمسة أميال عبر المضيق. كان في المرفأ صيّادون حقيقيّون يصلحون شباكهم الحقيقيّة، وحانات حقيقيّة بستائر من خرز ورجال بقمصان بيضاء يلعبون ألعاب طاولة مطقطقة، و*ragazzi*[154] (صبيان) حقيقيّون يركلون كرة قدم تحت أشجار زيزفون غبراء في ال(بيازا كافور[155]). ركنَت ليديا سيّارتنا المستأجرة خارج مركز الشرطة- في المطار كنت قد أدركت أنّي قد فقدت القدرة على القيادة- ببساطة لم أعد أستطيع تدبّر أمر الدوّاسات، أو تغيير التعشيقة-

---

153 جورج غوردن بايرون (اللورد بايرون 1788 – 1824) الشاعر البريطاني الشهير الذي عُرِف أيضًا بحبه للبحر والسباحة.

154 كلمة إيطاليّة تعني جمعًا من الصِّبْية أو الشبيبة تؤلّف بينهم رابطة من الصداقة.

155 الميدان أو الساحة الرئيسة في أية مدينة أو بلدة إيطالية.

وقعدنا هنيهة بلا حراك جنبًا إلى جنب نحدّق تحديقًا فارغًا خلال الزجاج الأماميّ إلى ملصق دعائيّ مشقوق عرضَتْ منه شابّة كاملة الحسن كمالًا من الخيال نهدين نصفَ عاريين وهي تمطّ شفتيها. «لا أقدر»، قالت ليديا، دون تشديد. وضعتُ يدًا على معصمها لكنها هزّته عنّي، بتعب. خرجنا من السيّارة، ناشِرَين ذاتينا المنطويتين من مقعدينا بحذر الناجيين الوحيدين من حادث مميت وعنائهما المتردّد. الميدان كان مألوفًا ألفةً حميمة- تلك الشجرة، الحائط الناصع البياض- وشعرت بأنّ كلّ هذا كان قد حدث لي من قبل. كانت في الهواء رائحة السمك المعتادة والزيت والغبار والمجاري السيّئة. رجل قصير أنيق في بدلة غالية وأنيقة خرج واقفًا على عتبات مركز الشرطة كي يستقبلنا. كلّ شيء فيه صُنِع مُصغَّرًا. كان له شارب صغير، وقدمان صغيرتان على نحو رائع في حذاء جلد لمّاع نظيف، وشعر فاحم السواد مزيّت ومصفّف بنعومة ومفروق عند الجانب بقسوة. صافح كلينا بوقار، فمه مزموم في تعبير متعاطف، وأدخلنا إلى المركز. كان المبنى كبيرًا على نحو متنافر، هيكل عظيم عالٍ يتردّد فيه الصدى بأعمدة من حجر منقّر وأرضيّة رخاميّة بيضاء وسوداء ذات مربعات. رؤوس ارتفعت قليلا من الطاولات، أعين داكنة نظرت إلينا بفضول ضئيل. الرجل القصير كان يثب أمامنا، حاثًّا إيّانا بفرقعات لسانه وشفتيه، كما لو كنّا حصاني رهان. لم أكن لأعرف بالضبط من أو ما يكون؛ ربما كان رئيس الشرطة، أو محقّق الوفيات، أو الموت نفسَه أيضًا. لم تسكن فيه ساكنة، حتى حين كنّا قد أتينا إلى المشرحة وكنّا نقف عاجزين عند النعش، بل ظلّ يحني كتفيه ويمدّ يده لكن دون أن يلمس يد ليديا، أو مرفقي، ويخطو إلى الخلف بخفّة ورشاقة متنحنحًا خلف البرجمة الأولى المرفوعة لقبضة بنيّة متناهية الصغر. لقد كان هو من أخذني جانبًا، بعيدًا

عن سمع ليديا، وأخبرني بهمس متعجّل، أجشّ ومُحرَج، بأنّ ابنتي كانت حاملًا عندما ماتت. في شهرها الثالث، كما يقولون. صفق يدًا بتصنّع على صدره. "*Ah, signore, mi dispiace*..." (آه، سنيور، أنا آسف...).

سُحبت الملاءة إلى الخلف. ستيلا ماريس[156]. وجهها، لم يكن ثَمَّ وجهٌ، راح نَهْبَ البحر والصخور. من خاتمٍ حدّدنا هويّتها، وندبةٍ صغيرةٍ على كاحل قدمها اليسرى تذكّرتَها ليديا. لكنّي كنتُ سأعرفها، مارينايَ[157]، حتى لو لم يبق منها سوى العظام المجرّدة التي غسلها الموج.

ماذا كانت تفعل في هذا المكان، ما الذي أتى بها إلى هنا؟ كأنّ غموض حياتها لم يكن كافيًا، فالآن يجب أن ألتفت إلى غموض موتها. صعدنا الشوارع الضيقة إلى الفندق الصغير حيث كانت قد أقامت. كانت ساعةَ القيلولة، وكلّ شيء كان ساكنًا على نحو مخيف، حَرٌّ خانق، وإذ تسلّقنا جاهدَين هذه الحُدُرَ المرصوفة بالحصى فغرنا فاهينا في غمامة من عدم التصديق، غير قادرين على أن نقدِّر وحشيّة الجمال المحيط بنا من كل جانب. كانت في المداخل قططٌ وَسْنانة، وعلى عتبات النوافذ نبتات إبرة الراعي، كناريّ أصفر كان يغنّي في قفصه، واستطعنا سماع أصوات الأطفال يلعبون في مكان ما، في فناء معزول ما، وكانت ابنتنا ميتة.

مالك الفندق كان شيخًا عريض الصدر، داكن البشرة بشعر رماديّ دهنيّ وشارب مقصوص، يشبه نجم السينما فيتوريو دي سيكا[158]، إن كان

---

156 (نجمة البحر) من الألقاب التي سمّيت بها السيّدة العذراء.

157 اِلقدّيسة مارينا أو مارغريت كما تعرف في الغرب. ولدت في القرن الثالث الميلادي لأبوين وثنيين. وقد عهد بها والدها بعد وفاة أمها إلى مربية مؤمنة نشّأتها على حب المسيح والتفاني في خدمته. أذاقها والي أنطاكية بيسيدية صنوف العذاب إثر رفضها الزواج منه وإعلان إيمانها بالمسيح بين يديه، ثمّ أمر آخرَ الأمر بقطع رأسها. تُعيّد لها الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسية والكنائس الغربيّة.

158 مخرج وممثل إيطاليّ (1901 – 1974)، مخرج التحفة السينمائية «سارق الدرّاجة».

أحدٌ يتذكّره الآن. حيّانا بحذر، ماكثًا بإصرار خلف الحاجز الواقي لمكتب الاستقبال، ناظرًا إلى كلّ شيء عدانا ومغمغمًا بينه وبين نفسه، لكنّ إيماءات الموافقة بدت مثل هزّات الكتفين اللامبالية، ولم يكن ليخبرنا بأيّ شيء. زوجته السمينة، مستديرة وثخينة مثل عمود طوطميّ، غرسَت نفسها خلفه ويداها مشبّكتان بعناد على بطنها، عبوسها الموسولينيّ مثبّت على قفاه، مريدةً منه أن يأخذ حذره. تأسّف أن لم يكن لديه شيء ليطلعَنا عليه، قال، لا شيء. كانت كاس قد وصلت قبل يومين، قال، ودفعت الأجرة مقدّمًا. منذ أتت نادرًا ما كانا قد رأياها، كانت قد أنفقت وقتها في التلال المشرفة على البلدة، أو ماشية على الشاطئ. بينما تحدّث كان يعبث بالأشياء على المكتب، أقلام، بطاقات، حُزَمُ خرائط. سألتُه أكان أحدٌ معها، فهزّ رأسه نافيًا- بسرعة شديدة، حسب ظنّي. لحظتُ حذاءه- جوربان، إبزيمان ذهبيّان صغيران- كان كويرك سيحسده- والحرير الناعم لقميصه الناصع البياض. يا لَه من متغندر! صعد بنا الدرج الضيّق، مرورًا بمجموعة صور مطبوعة غير لائقة بعض الشيء من فنّ القرن الثامن عشر في إطارات بلاستيكيّة، وأدار مفتاحًا كبيرًا «مُؤَنْتَكَ» الطّراز في باب غرفة كاس وفتحه لنا. أحجمنا، أنا وليديا، ناظرين نظرةَ فاقد الأهليّة إلى الداخل. سرير كبير، منضدة غسل وإبريق، كرسيّ مستقيم الظهر بمقعد قَشّ، نافذة ضيّقة على المرفأ الدائخ بالشمس. كانت في المكان، على نحو متنافر، رائحة مستحضر لاسمرار البشرة. حقيبة سفر كاس كانت مفتوحةً على الأرض، لم تكمل إفراغها. فستان، بنطالان قصيران، حذاؤها المتذكّر، أشياء خرساء تضجّ فيها رغبةُ الحديث. «لا أقدر»، قالت ليديا، بفتورٍ كالذي من قبل، وأشاحت بوجهها. نظرتُ إلى دي سيكا فنظر إلى أظفار يده. زوجته الثقيلة كانت هادئة جنبَ كتفه. لقد

كانت ذات يوم شابّةً مثل كاس، ورشيقةً، على الأغلب، رشاقتَها كذلك. منحتُ وجهَها نظري كلَّه، متوسِّلًا إليها بصمت كي تفصح عمّا كان قد حدث هنا لابنتنا المسكينة المنكوبة، لضوئنا المنكسف، وقادها إلى الموت، لكنها وقفَتْ فحسب وبادلتني النظر ببرود حجريّ ولم تنبس بكلمة.

سكنّا في الفندق تلك الليلة، بدا ذلك أبسطَ ما يمكن فعله. غرفتنا كانت بمثل الجوّ الغريب الذي كانت عليه غرفة كاس، المنضدة نفسها والكرسيّ، والنافذة نفسها مؤطّرةً ما بدا منظرًا متطابقًا من المرفأ. تعشّينا في حجرة الطعام الصامتة، ثمّ نزلنا إلى المرفأ ومشينا أعلى الرصيف وأدناه مدّةً بدا أنّها ساعات. كانت الأجواء هادئة، على نهاية الموسم. أمسك كلانا بيد الآخر، للمرة الأولى منذ أيّام الهالسِيَن. غروب ذهبيّ ورماديّ كالدخان غرق في البحر مثل كارثة بطيئة، وهبطت الليلة الدافئة، وتوهّجت أضواء المرفأ، ومالت إلينا الصواري المنتصبة دون صوت. في الغرفة تمدّدنا أَرِقَين جنبًا إلى جنب على السرير الكبير العالي، مثل مريضَي مستشفى طال بهما المقام، نصغي إلى همسات البحر البعيدة الخافتة. غنّيت برفق تلك الأغنية الصغيرة التي اعتدتُ غناءها لكاس، كلّما أردتها أن تضحك:

لديّ دموع في أذنيّ
من المنام على ظهري،
في سريري،
وأنا أبكي،
عليك.[159]

---

159 مقطع من أغنية I've got tears in my ears للثنائي الأمريكيّ هومر وجيثرو.

«ماذا قال لك ذلك الرجل؟» سألتني ليديا من قلب الظلام. «الرجل الذي في مركز الشرطة». نهضَت على مرفق، مُرَجْرِجَةً المرتبة، ونظرَت إليّ مليًّا. في الوهج الضعيف من النافذة التمع بياض عينيها. «ماذا كان، إلى حدّ أنه لم يُردْني أن أسمعه؟»

«أخبرَني بالمفاجأة»، قلتُ، «مفاجأتُها التي طلبَتْ منكِ ألّا تطلعيني عليها. كنتِ محقّةً: أنا مشدوه». لم تردّ بشيء على ذلك، زفرَتْ ما لعلّه كان زفرةَ غضب، وأراحت رأسَها من جديد. «أحسب»، قلتُ، «أنّنا لا ندري من يكون الأب؟» استطعت أن أراه، روح ضائع كروحها، على الأرجح، عَالِم شابّ مبثّر مضنى بالطموح ومثقَل بالمعرفة العقيمة التي اكتسبها بألم؛ أتساءل هل عرف كم قد كان قريبًا من استنساخ ذاته. «لا يهمّ، الآن».

في الصباح لم يكن بحرٌ، ليس إلّا سطوع ذهبيّ شاحب يمتدّ إلى اللاأفق. بقيتْ ليديا في الفراش، ووجهها منصرف عني، لا تقول شيئًا، على الرغم من أنّي عرفت أنّها لم تكن نائمة، دببت دبيبًا أسفلَ الدرج، شاعرًا، لا أدري يقينًا لِمَهْ، مثل قاتل يغادر مسرح الجريمة. يوم مثاليّ، شمس، رائحة بحر، كلّ ذلك. وإذ مشيت خلال هدوء الصباح أحسستُ بأنّي كنت أمشي على خطاها؛ من قبلُ، كانت قد سكنتني، والآن كنتُ أسكنها. صعدتُ إلى الكنيسة القديمة قائمةً على الجرف الصخريّ في الطرف البعيد من المرفأ، أتهادى على الحجارة المصقولة بأقدام أجيال من المتّقين، كأنّي كنت أصعد إلى الجُلْجُلة. بنى الكنيسةَ فرسانُ الهيكل في موقع ضريح روماني كان مكرّسًا لفينوس- أجل، كنت قد اشتريتُ دليلًا سياحيًّا. هنا أدّتْ كاس فصلَها الأخير. في الرواق، نِثار قصاصات ملوّنة ذرتها الريح كان مغروزًا في الصدوع بين صفائح البلاط الصخري. الداخل كان قليل الزخرفة. لوحة

تصوّر السيدة العذراء منسوبة إلى جنتيلسكي- الأبَ جنتيلسكي[160]، أعني، لا ابنته[161] سيّئة السمعة- عُلِّقتْ بعيدًا في مصلّى جانبيّ، قطعة مظلمة، لم تُضَأْ على نحو جيّد، لكنّها، مع ذلك، تعرض لمسة المعلّم المضيئة. شموع محترقة على حامل حديدي أسود وعلبةُ صفيحٍ للأعطيات معلَّقَة تحته، وأصيص كبير من أزهار كريهة الرائحة استوى قائمًا على بلاطات أمام المذبح المكشوف. ظَهَرَ قسّ، وعرف على الفور من كنتُ. كان قصيرًا ومتينًا وأسمر وأصلع. لا هو كان يحسن كلمةً من الإنجليزية ولا أنا الكثيرَ من الإيطاليّة، لكنّه راح يثرثر بسعادة، ويشير بيديه ورأسه إشارات مفصّلة. قادني خلال مدخل مقوَّس قرب جانب المذبح، إلى تعريشة حجريّة صغيرة معلّقة على بعد مئة قدم فوق الصخور والبحر المزبد، حيث حسب التقاليد، كما يخبرني دليلي السياحيّ الممتع، يأتي إليها الأزواج الجدد بعد الزفاف مباشرة، حتى يتاح للعروس أن ترمي بباقة وردها قربانًا للمياه المهتاجة بعيدًا في الأسفل. كان نسيمٌ يهبّ إلى الأعلى على طول الصخور، رفعت وجهي في تيّاره القويّ، المشبع برائحة اليود وأغمضت عينيّ. الربّ يلطِّف الريحَ على الخروف الذي جُزَّ صوفُه، يقول داودُ النبيّ، لكنّي هنا لأقول لك إنّ داودَ النبيَّ على خطأ. كان القسّ يريني المكان الذي لا بدّ أنّ كاس قد تسلّقته إلى السور الحجريّ وألقت بنفسها على الهواءِ المجرَّح بالملح، لقد أراني حتّى كيف كانت ستفعلها، مقلّدًا أفعالَها لي، رشيقًا كماعز ومبتسمًا خلال ذلك كلّه ومومِئًا برأسه، كما لو كان يصف مزحة ثقيلة متهوّرة،

---

160 أورازيو جنتيلسكي (1563 – 1639) أحد كبار فناني روما في العصر الباروكي.

161 أرتيميسيا جنتليسكي (1593 – 1656) رسّامة إيطاليّة. أكثر فنّاني جيلها تأثرًا بكارفاجيو. نساء لوحاتها قويّات سواء حملن سلالًا برؤوس رجال مقطوعة أو عزفن آلات وتريّة. اشتكى والدها إلى الكنيسة زميلَه الرسّام أغوستينو تاسي بتهمة اغتصابها وشاركت هي في محاكمته حتى أُودِع السجن.

غطسة التَّمِّ[162] الافتتاحيّة التي غطسها جورج غوردن[163] بنفسه، ربما. التقطتُ حجرًا مُثلَّمًا أُزيح حديثًا من الحاجز، وتحسّستُ ثقلَه الحادّ في يدي، بكيت أخيرًا، هاويًا بالرأس أوّلًا في أعماق ذاتي الغائرةِ بغتةً، بينما وقف القسّ العجوز إلى جانبي، رابتًا على كتفي وهامسًا بما بدا أنّه سلسلة من الملامات الخفيفة، الناعمة.

وكذا شرعت ذلك النهار في الرحلة الطويلة الشاقّة عائدًا إلى حيواتنا، أعني حيواتنا عندما كانت كاس هناك، السنين التي كانت فيها معنا. كنت أبحث عن النمط، النمط الذي ما زلت أبحث عنه، مجموع المؤشرات المنسّقة مثل نقاطٍ اعتادت أن تربط بينها بقلمها الشمعيّ لتحصل على صورة الجنيّة الجميلة ذات العصا السحريّة والجناحين. أكانت ليديا محقّة حين اتّهمتني بأنّي كنت بصورة ما على علم بما كان سيقع؟ لا أريد أن أظنَّ ظنَّها. لأنّي لو عرفتُ، لو أنّ الأشباح كانوا حديثَ نفسٍ، هاجسًا بأنّ هذا هو ما كان سيأتي، فَلِمَ لم أفعل شيئًا تجاهه؟ لكن بعدُ، لطالما استعصى عليّ التفريق بين أن أفعل وأن أُمثّل. وفوق ذلك، كنت أنظر إلى الوجهة الخطأ، كنت أنظر إلى الماضي، وذاك لم يكن، على الإطلاق، مكانَ الأشباح. اعتدتُ أن أحلم أحلام يقظة، في تلك الأسابيع الأولى التي قضيتها وحيدًا في المنزل، بأنّ كاس كانت ستأتي لتعيش معي، بأنّنا كنّا سنقدّم نسخة جديدة من الحياة القديمة التي كنتُ قد أضعتُ قيادها هنا، بأنّنا بطريقة أو بأخرى سنستردّ السنين الضائعة. أفمن هذه الأوهام استحضرتُها؟ وهل استحضاراتي أضعفَتْ من

---

162 غطسة أماميّة يُرجِع فيها السبّاح رأسَه إلى الخلف، يقوِّس ظهره، ويبسط ذراعيه على جانبيه كجناحي طائر ثمّ يأتي بهما جميعًا فوق رأسه راسما خطا مستقيما مع باقي جسده قبل أن يغطس في الماء.

163 اللورد بايرون.

قبضتها على الحياة الحقيقيّة التي ربما تكون قد عاشتها، الحياة التي لن تعيشها الآن أبدًا؟ الحيوات.

لم أبدأْ أشعرُ بالذنب، بعد، ليس تمامًا، سيكون في الوقت متّسعٌ لذلك.

في تلك الليلة، بعد زيارتي الكنيسة، حلمت حلمًا غريبًا ومؤثّرًا على نحوٍ غريب، حلمًا كاد يريحني. كنت في خيمة السيرك. غودفيلو كان هناك، ولِلِي، وليديا، ورأيتُ أيضًا أنّ كلّ من في الجمهور، على الرغم من أنّي لم أستطع أن أراهم بوضوح، في الظلام هناك، كان من معارفي، أو قريبًا لي بشكلٍ ما. كنّا جميعا نرنو إلى الأعلى بصمت مستغرق، نشاهد كاس، من كانت معلّقة في الجوّ بلا حراك، دون مساعدة، ذراعاها ممدودتان، وجهها الهادئ مضاء بشعاع ناعم أبيض قويّ. وبينما شاهدتها، إذ بها قد بدأت تهبط نحوي، أسرعَ فأسرعَ، لم تزلْ أعضاؤها بلا حراك، لم تزل ذراعاها ممدودتين كما في مُباركة، لكن كلّما اقتربَتْ، بدل أن يزداد حجمها في نظري، كانت تَصْغُر، حتى إنّي في النهاية عندما مددت يدي لأمسكها كانت لا تكاد تكون هناك مطلقًا، كانت لا تكاد تكون أكثر من نقطة مضيئة سرعان ما انطفأت.

صحوت، صافيَ الذهن، تعب الأيّام الماضية قد ذهب كلُّه، ونهضت، ورحت، ووقفت في الظلام عند النافذة لوقت طويل، ناظرًا إلى المرفأ المهجور، والبحر، الذي بدت أمواجه الصغيرة الزائلة شيئًا كان يُنْطَق بنعاس، مرّة بعد مرّة بعد أخرى.

*

عصفَت عاصفةٌ في اليوم الذي طرنا فيه إلى الوطن. فتحَت الطائرة سحّاب المَهْبِط المغمورِ بالمياه وحلّقتْ بأزيزٍ مُعْوِل. حين صرنا فوق الجبال

نظرَت ليديا مليًّا، وهي في ثالث كأس لها من «الجِن»، خافضةً بصرَها، إلى القمم الصوانيّة والوهاد المخطّطة بالثلج وضحكت ضحكة خافتة قاتمة. «أتمنّى لو تتحطّم بنا الطائرة»، قالت. فكّرتُ في ابنتنا مشوّهة الوجه في تابوتها مع الأمتعة أسفل أقدامنا. أيُّ غودفيلو أمسك بها، أيُّ (بِلي إن ذا بول) غرس أنيابَه في عنقها وامتصّ دمَها؟

*

كان غريبًا، شعورُ الوطنِ، ما كان الوطنَ، الجنازة فُرِغ منها والحياة، بأسلوبها الخالي من الرحمة، مصرّةٌ على أن تُعَاش. كنت أقضي الوقت خارج البيت ما استطعتُ أن أكون خارجَه. قيدٌ غريب نما بيني وبين ليديا، خجل، إحراج، تقريبًا، كأنّا قد ارتكبنا جُنْحةً معًا وكان كلانا خَجِلًا من معرفة الآخر بما كان قد فعله. آصال طويلة ذرعتُ خلالها شوارع المدينة، مفضِّلًا منها المناطق المحايدة بين الضواحي وأصلِ المدينة، حيث أزهرت البُدْلِيا، وقعدت السيّارات المنبوذة تصدأ أعاليها في برك من الزجاج المهشَّم، وأومضت النوافذ المثلَّمة للمصانع المهجورة بأهميّة غامضة في الضياء الخريفيّ المائل. هنا حامت عصابات أبناء الشوارع بحريّة، راكضًا خلفها دائمًا كلبٌ مبتسم. هنا اجتمع السكّيرة، على رقع من الأرض اليباب، كي يعبّوا من زجاجاتهم البنيّة الكبيرة، ويغنّوا، ويتشاجروا، ويضحكوا عليّ إذا مررت بهم، غاطسًا في معطفي الأسود. وهنا أيضًا رأيت كلّ صور الأشباح، ناس لم يعد في وسعهم أن يكونوا أحياء، ناس قد طعنوا في السنّ حين كنت صبيًّا، شخوص من الماضي، من الأسطورة والخرافة. في تلك الشوارع الخالية لم أدرِ أكنتُ أتحرّك وسط الأحياء أم وسط الموتى. وتحدّثتُ إلى كاس، بحريّة أكبر، بصراحة أكثر ممّا كنت سأطيق لو كانت لم تزل هنا، على الرغم من أنّها لم تكن قطّ تجيب،

ولا مرّة، كما كانت ربما لتفعل، ربما أخبرتني لماذا اختارت أن تموت على ذلك الساحل المبيَّض بالشمس. ربما أخبرتني من كان أبو طفلها. ربما قالت لي هل كان مستحضر اسمرار البشرة الذي شممتُه ذلك اليوم في غرفة الفندق لها. هل ادّهنتْ به وذهبت وقفزت في البحر؟ هذه هي الأسئلة التي تحتلُّني.

أبحث في أوراقها، عشرات الصفحات الفولسكابيّة التي تركَتْها وراءها في الفندق. ستكون فخورة بي، بتطبيقي العلميّ؛ بانكبابي على البحث كطالب جامعيّ حاصل على منحة تحت مصباح درسه. مكتوبة بخط اليد، غير مقروءة إلى حد كبير، بدت فوضى، في البداية، غير متسلسلة، دون إيقاع ينظمها أو منطق أستطيع تبيُّنَه. ثمّ، شيئًا فشيئًا، بدأ نمط يظهر، لا، ليس نمطًا، لا شيء في غاية التحديد كالنمط- هالةٌ، بالأحرى، وهج ضعيف، متقطّع لما يوشك أن يكون معنى. تبدو في جزء منها مفكّرة، على الرغم من أنّ الأشياء التي تدوّنها، الأحداث والمصادفات، لها نبرةٌ متخيَّلة، مشكَّلةٌ على نحو مستحيل. أهي ربما قصّةٌ كانت تؤلّفها، تسليةً لنفسها، أو حمايةً لها من الأهوال المتلاطمة في رأسها؟ أشياء محدّدة كانت تعاود الظهور، اسم، أو مجرّد حرف أوّل من اسم، مكان يُزَار مرارًا، كلمة يوضع تحتها خطّ بصورة متكرّرة. هناك تقارير عن حالات طرد، ووفاة، وانقراض، وهويات ضائعة. كلّ شيء يلفّ ويدور في دوامة خيالاتها. وفي القلب من هذا كلّه غيابٌ، مكانٌ فارغٌ حلّ فيه ذات مرّة شيءٌ ما، أحدٌ ما، قد أزال نفسَه. الصفحات غير مرقّمة، طبعًا، إلّا أنّي مقتنع بأنّ بعضها ناقص: مرميّ، مُتْلَف- أو مُخْتلَس؟ أرأف بالفراغات، بالأماكن الخالية، محرِّكةً دماغي مثل أصابع رجل أعمى فوق الكلمات، لم تزل ترفض أن تُسْلِمَ سرَّها. هل سيسكنني الآن شبحٌ آخر، شبح لا يمكنني حتّى أن أراه، شبح يستحيل أن أعرفه؟ أقول لنفسي إنّ كلّ هذا في خيالي، إنّ كلّ هؤلاء

ليسوا أكثر من الأهواء الأخيرة اليائسة والمفكّكة لعقلٍ يحتضر. لكنّي لا أتخلّى عن الأمل بأنّ هذه الصفحات ستتحدّث لي يومًا ما، بذلك الصوت المعروف، تخبرني بكلّ ذاك الذي قد أريد أن أعرفَه وقد لا أريد.

*

رأيتها، مرّة أخرى، مرّة أخيرة، أظنّها ستكون. نزلتُ إلى المنزل القديم كي أجمع أغراضي. كان واحدًا من تلك الأيام الخريفيّة الغامقة كالزجاج المدخّن، كلها سماء وغيوم ومسافات سمراء مصفرّة. بينما كنت أحزم أمتعتي وصل كويرك، ووقف في مدخل الغرفة في سترته الخفيفة الزاهية وحذائه المنزلق الرماديِّ رماديَّ سمكة، مستندًا بيد إلى العضادة، وإبهام يتحرّك بعصبيّة. بعد بعض تأفّف ونحنحة سألني عن كاس. «مرّتْ بصعوبات»، قلتُ، «مرّتْ بصعوبات، وغَرِقَتْ». أومأ، بعبوس كئيب. بدا على وشك أن يتحدّث من جديد. لكنّه غيّر رأيه. التفتُّ إليه بترقّب، بأمل حقّ. غالبًا مع كويرك كان ينتابني الشعور، وقد انتابني الآن من جديد، بأنّه كان على وشك أن يكشف عن معلومات جوهرية وكبيرة أو تعليمات، حقائق أساسية يعرفها الجميع، إلّاي. يقف هناك، متجهّمًا، جاحظ العينين بصورة ما، مستمتعًا بعض الشيء على الرغم منه، يبدو متأمِّلًا حكمةَ أن يفصح لي أخيرًا بالسرّ التافه إنّما المهمّ للغاية. ثم تعبر اللحظة، ويعطي نفسه نوعًا من خضّة العقل، فيغدو الشخصَ الذي كانه من قبل، كويرك فحسب، لا مستودعَ المعرفةِ الجليلةِ الخطير.

«متى ماتت زوجتك؟» قلتُ.

رفّتْ عيناه. «ربّة قلبي؟»

كنت أصفُّ الكتب في صندوق كرتونيّ.

«نعم. اعتدتّ أن أرى شبحًا هنا. حسبتُ مرّةً أنّه شبحُها».

كان يهزّ رأسه ببطء. أعجبني أن كدتّ أسمعه يدور على تروسه.

«ربّة قلبي لم تمت»، قال، «من أخبرك بذلك؟ هَرَبتْ مع عابر سبيل».

«مع... ؟»

«بائع متجوّل. أحذية». ضحك ضحكةً أسيانة غاضبة. «العاهرة».

ساعَدَني في حمل حقائبي وصناديق كتبي إلى الطابق الأسفل. أخبرته بأنّي نويت أن أَهَبَ المنزل للفتاة. «ليس لك، انتبه»، قلتُ. «للِلي». كان قد توقّف عند عتبة الدرج الأخيرة، ووقف الآن، مائلًا إلى الأمام وحقيبة ثقيلة في كلتا يديه، ناظرًا إلى الأرض. «بشرط واحد فقط»، قلتُ، «ألّا تعرضَه للبيع. أريدها أن تعيش هنا». استطعت أن أراه يقرّر، بطقطقة، أن يصدّق أنّي كنت جادًّا. وضياء الترقّب كان الآن يبزغ في عينيه؛ وشككت بأنّه كان يتطلّع إلى كتابة الصكّ بقدر ما كان إلى الاستيلاء ، ولو عن طريق ابنته، على مِلْكي. أنزل عنه الحقيبتين كأنّ مصائبه كلّها كانت فيهما، ونَصَبَ ظهرَه، غيرَ قادر على أن يمنع نفسه من الابتسام ابتسامة عريضة.

أجل، سأعطي الفتاةَ المنزل. آمل أنّها ستعيش هنا. آمل أنّها ستسمح لي بزيارتها، *la jeune chatelaine* (القهرمانة اليافعة). لديّ كل أنواع الأفكار الغريبة، المشاريع المجنونة. قد نصلح المكان فنقسمه بيننا، بيني وبينها. ما رأي السماسرة؟- ترميمات كبيرة. لماذا، ربما نستضيف نزلاء من جديد! سأسألها هل يمكنني الاحتفاظ بحجرتي الصغيرة. قد أكتب شيئًا ما عن البلدة، تاريخها، وصف تضاريسها، أتعلّم أسماء أماكنها أخيرًا. أجل أجل، كل أشكال الخطط، هناك وقت كافٍ، ويا لِي! ما أبطأَ مُضِيَّه. حين أستعيد مهارتي في القيادة سنذهب في نزهة حول الريف بحثًا عن ذلك السيرك،

ونجعل غودفيلو يرقص لنا من جديد، وهذه المرّةَ ينوّمني أنا مغناطيسيًّا، ربما، ويُخْمِد كلَّ أشباحي. أو لعلي آخذها معي عائدًا إلى تلك القرية متعلّقًا بمنحدر تلّها الصخريّ على ذلك البحر اللازورديّ، وأصعد تلك الشوارع المرصوفة بالحصى من جديد وأمسك بخناق دي سيكا وأقول بأنّي سأخنقه ما لم يخبرني بكلّ ما يعرفه. أفكارٌ سدى، خيالاتٌ سدى.

مشيت إلى داخل المطبخ. عندما نظرت عبر النافذة، كانت كاس في الخارج. كانت تقف على المرتفع خلف ما قد كان ذات مرّة حديقة الخضروات، عند شجرة البتولا التي لم يكتمل نموّها. كانت تلبس ثوبًا أخضر دون حزام كشف عن ذراعيها وربلتي ساقيها الطويلتين. لحظتُ التجاوب بين بشرتها المتلألئة ولحاء الشجرة الأبيض الفضيّ. كان الطفل معها، مع أنّي إذ أقول إنّه كان الطفلَ فإنّما أعني أنّه كان دائما فكرةَ طفلٍ ليس إلّا، لا يكاد حتى يكونُ صورةً، شفافيّةٌ متردّدة. ولمّا بدا أنّها رأتني عند النافذة استدارَتْ وبدأت السير إلى المنزل. في تُنْكِها الأخضر وصندلِها لربّما كانت تمشي بخطى واسعة خارجة من أركاديا لتلتقيَني. وإذ تقدّمَت على طول درب الحديقة المغطّاة بالنباتات البريّة ضغط الهواءُ قماشَ ثوبها الفضفاض عليها، وفكّرت، ليس لأوّل وهلة، كيف بدَت مثل واحدة من فتيات بوتيشِلّي[164]- ومثلهنّ حتى، مترجِّلة بعض الشيء. أَتَت إلى الغرفة وعبسَت ونظرَت في ما حولها بتركيز حادّ، كأنّها كانت قد توقّعت شخصًا آخر هنا. ذراع كانت مرفوعة أعلى من رأسها، اليد مفتوحة كأنّما لتمسك بشيء مرميّ من الهواء وطائر. كان فيها امتلاء، نشوة روحيّة. كان لعينيها بريق مخضرّ بصورة باهرة. لامسَت أنفاسُها خدّي، أُقسم إنّها فعلَت. تذكّرت

---

164 ساندرو بوتيشلي (1445 – 1510) رسّام إيطاليّ من رسّامي عصر النهضة.

ريح الدّبور! كم بدت حقيقيّةً، تجسُّدٌ أُرسِل إليّ أوّلا لتحيّتي في حين تلكّأتْ في الخارج أناها الأخرى، إلهة أشجار البتولا، تُغْمِد نِصالَها وتنزع وتر قوسها المذهّب. كاس! الجبين الوضّاء، هالة الشعر الخمريّ، الأنف المرسوم بدقّة بسرجه المرقّط كجلد التفاح، تلكما العينان الخضراوان-الرماديّتان، عيناي، عمود العنق الشاحب الطويل. وخزة عبرتني فمددتُ يدي المتردّدة لألمسها، ونطقتُ باسمها، وبدا أنّها توقّفَت، وارتعدَت، كما لو كانت بالفعل قد سمعتني، ثمّ من فورها رحلَتْ، تاركةً خلفها نغمة عبورها اللامعة، التي خفتت وتهافتت. في الخارج، في الحديقة، وقف النهار المشرق، إنسانٌ من ذهب، ساكنٌ في جفول. *Die Sonne, sie scheinet allgemein*[165]...

التفتّ إلى الغرفة من جديد فإذا بلِلِي هناك، مائلة إلى جنب على ساق واحدة وتنظر بتوق إلى النافذة ورائي، محاولةً أن ترى ما كنتُ قد رأيت، أو ربما غيرَ مهتمّة بي ولا بأشباحي البتّة، ربما أنّها تنظر إلى العالم فحسب، العالم العظيم، وهو ينتظرها. لا علامة على كاس، لا علامة على الإطلاق. الأحياء كثيرون جدًّا على الموتى. لِلِي كانت تقول شيئًا، لم أستطع سماعها.

أزهار، شفاءً عاجلًا. البرعم في الزهرة. قد تسوء الأحوال. وا ماريناايَ، وا ميراندايَ، آهِ، وا بِرْدِيتاي[166].

---

165 الشمس، إنّها تشرق على البشريّة جمعاء... سطر من قصيدة للشاعر والمترجم والمستشرق الألماني الكبير فريدريش روكت (1788 – 1866) من مجموعة قصائد كتبها في رثاء طفليه بعنوان «أغانٍ عن موت الأطفال». اختار منها الموسيقار النمساوي غوستاف مالر (1860 – 1911) خمس قصائد ولحّنها للأوركسترا.

166 برديتا: اسم لاتينيّ يعني الضائعة وشخصية شيكسبيرية من مسرحية «حكاية الشتاء». ابنة ليونتيز (ملك صقلية) وهِرْمايوني. ولدت في السجن حيث أُرْسِلتْ أمّها. كان أبوها قد اعتقد، خاطئًا، رغم الشبه الكبير بينهما، أنّها ثمرة خيانة زوجته وصديق صباه بوليكسينيز (ملك بوهيميا)؛ فأمر بإبعادها إلى مكانٍ ناءٍ.



جون بانفيل، روائي ومحرّر أدبي أيرلندي، وُلد في ويكسفورد عام 1945. يكتب تحت اسم آخر (بنيامين بلاك) روايات مختلفة عن تلك التي يكتبها باسمه الأوّل. له قُرابة الأربع عشرة رواية، من بينها كتاب الشهادة (1989) وكسوف (2000) والمنبوذ (1997) والبحر (2005)، وهو المرشّح الأيرلندي الأكثر بروزًا لنيل جائزة نوبل للآداب. نال جائزة مان بوكر، وفرانز كافكا، وغيرها كثير. لطالما قورنَت كتابات بانفيل بنصوص ألبير كامو ودوستويفسكي، وأنه "الوريث الشرعي لبروست من خلال نابوكوف".

يعيش مع زوجته وأبنائه في دبلن.

سلمان الجربوع - شاعر ومترجم من السعودية.
صدر له ديوان ضباب أليف (2018)، ومحاولة حائط للتعبير عن قلقه (2016). وفي الترجمة: قدّوس المتين (2020)، أساطير الخريف (2019).
ينشر باستمرار في مدوّنته:
«salmanzaid.wordpress.com»

ألكسندر كليف، ممثّل شهير، يلوذ ببيت طفولته هربًا من خزي انهياره الأليم على خشبة المسرح. وهناك، في غبش الإحساس بالزمان والأحياء والموتى، يتذكّر ويتفكّر ويحلم ويمشي بخطّى مرتابة نحو ذاته.

«انجلى الموقف لي دفعة واحدة: على الأرض أسفل عتبة النافذة يرقد فرخ ميت. لا بد أنّه قد وقع عن السقف، أو فشل في التحليق فهوى إلى الأرض وكسر عنقه. على نظرته غشاوة شبه زجاجيّة، وعلى ريشه شحوب. النورس، ولا ريب عندي في أنّه أحد الأبوين، فتح منقاره من جديد بتلك الطريقة الغريبة، بلا صوت. لعلّها كانت تهديدًا، يحذّرني به من أن أقترب، لكنّي أميل إلى الاعتقاد بأنّها أَمَارَةُ كرب شديد. حتى النوارس يجب أن يكون لديها تعابير ترح أو فرح يستطيع الرفقاء تمييزَها. ربما ترى هي ملامحنا فارغة وغير معبّرة مثلما نرى نحن ملامحها. رجل مخدَّر بأساء لا يمكن شرحها، على سبيل المثال، أنا واثق بأنّه لن يكون في نظرها سوى غبيّ آخرَ بعينين ميتتين يحملق بلا رحمة إلى مشهدِ فقدٍ لا يُقَاس. الطائر كان ذكرًا، أظنّ؛ أجل، أظنُّه أبًا. تركته لصلواته الصامتة، ونزلت، مدفوعًا بهذه المصادفة، إلى البحر».

Cover Painting: The Fighting Temeraire, By William Turner
Cover design: Hassan Al Mohtasib


ISBN 978-9948-25-825-4

